فن الحرب

الكتاب : فن الحرب.

الكاتب : سونبين.

رقـــم الإيداع : 2025- 14165

الترقيم الدولي : 978- 633- 833- 00- 26

جميع الحقوق محفوظة للناشِر©

وأي اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية يُعرِّض صاحبه للمُساءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالكاتب فقط لا غير.

فن الحرب

سونبين

محتويات الكتاب

المقدمة 8

القبض على القائد بانشيوان 66

لقاء مع الملك وي 72

محاورات الملك وي 77

مناقشات تيانجي بشأن التحصينات 88

انتقاء القوات 93

الحرب والطوالع الفلكية 96

توزيع التشكيلات 99

أهمية أرض العمليات 102

القوة الضاربة 106

قيادة القوات 111

الموازنة الذكية والاختيار الصائب 113

التجنيد والتعبئة 115

التوجيه المعنوي 116

مهام القادة 119

طرق التدريب الخمس..... 127

تقوية الجيش..... 132

شن الحرب 135

الهجوم بالخداع Attack By Stratagem 140

المناورات التكتيكية Tactical Dispositions 145

الطاقة energy..... 149

نقاط الضعف والقوة weak points And Strong 155

المناورة Maneuvering..... 164

تنوع التكتيكات الحربية Variation In Tactics 170

التحرك بالجيش The Army On The march 176

التضاريس Terrain 187

المو اقف/الحالات/الأوضاع التسع The nine Situations..... 197

الهجوم بالنارThe Attack TBy Fire 218

استعمال الجواسيس Using Spies..... 223

التشكيلات القتالية 235

الأسئلة العشرة 246

ضرب نقاط القوة عند الخصم 253
القوات السيادية والقوات الزائرة 255
البراعة القتالية..... 260
خمسة أنواع من الجيوش 271
خسائر المعارك 276
أخلاقيات القائد 282
مثالب القائد 283
هزيمة القائد..... 286
المدن المنيعة والأسوار المخترقة..... 291
القواعد الخمس والمغانم التسعة 293
التمركز والانتشار 295
الثوابت والمتغيرات..... 298

المقدمة

ليس في التاريخ أمةٌ تمتاز بالصلابة والتماسك كما تتمتع به الأمة الصينية، ولا تاريخ شهد أمّةً عانت من النزاعات والحروب بين أبنائها كالأمة الصينية أيضًا. إنَّ الصواب في العبارة الأولى لا يتناقض مع الثانية، إذ تُعدّ الثانية نتيجة للأولى، فلا تناقض أو تضاد بينهما، بل هي تجسيدٌ لقواعد الفكر الفلسفي الصيني القديم، الذي ينظر إلى الأضداد على أنها قادرةٌ على إحداث تجاذب أو تنافر بين حدود متقابلة، كما أنها تتيح توازنًا بين أطراف متعادلة، مما يُحافظ على حركة دائمة وموصولة للأشياء والأشخاص.

في هذا الإطار، تُعبر الحياة الاجتماعية والفكرية الصينية عن طبيعة متأصلة، حيث تُعدّ الثنائيات المتقابلة أساسًا راسخًا للبقاء. فمن اجتماع الأرض والسماء تتوالد الممالك، أبناء السماء، ولكنهم ليسوا من الآلهة، ولا يشبهون البشر. ومن أحضان الجبال والأنهار تنبثق الطبيعة، وبين الملوك والدهماء تُسطَّر صفحات التاريخ الصيني، مملوءةً بخطوط الزمن.

وقد ارتبطت مخططات الفكر الكونفوشي بتنظيم العلاقات الثنائية بين الآباء والأبناء، والإخوة الكبار والصغار، والرجال والنساء، والحكام والمحكومين، وغير ذلك من ثنائيات.

بين الحرب والسلام، وُجدت التسويات، وفي خضم كل الصراعات، وُلدت حدودٌ وسطى للتوافق، حتى يمكننا القول بأن التسوية تُعتبر جوهر الفكر الصيني. وليس غريبًا أن يُشير النقاد إلى أن السمة السائدة في الثقافة الصينية عبر العصور هي «الوسطية»، حيث يتجلى تاريخ الصين كحركة جدلية تتأرجح بين المتناقضات، تؤدي دائمًا إلى تسويات مؤقتة لا تلبث أن تنتقل من جديد إلى صراعٍ جديد.

لقد استمر الحال على هذا النمط حتى قبل وصول «المادية الجدلية» إلى الصين في العصر الحديث. وهكذا، فإن «الوسطية» تُعتبر جوهر الفكر الصيني، و«التسوية» بين طرفَي نقيض أو أطراف متنازعة تمثل روح التاريخ الاجتماعي والفكر الفلسفي في الصين.

هذا إذا ما تغاضينا عما يُثار أحيانًا من بعض المفكرين والمحللين حول عدم وجود فلسفة صينية واضحة. إن تاريخ الصين هو رواية التسويات في صراعاتٍ متجددة، إذ تُظهر النزاعات في جوهرها آراءً

متباينة بين أبناء بيتٍ واحد. كما أن البنية الفكرية، أو ما يُعرف بـ«البيت الذهني» في الصين، كما عبر عنه المترجم القدير الأستاذ شوقي جلال، اعتادت أن توازن بين أطرافها المتصارعة من خلال تسوياتٍ متجددة، حتى يصبح السؤال المطروح: أيهما يسبق الآخر في مسار تاريخ الفكر الصيني، النزاع أم التسوية؟

خرج الفكر الفلسفي الصيني من صميم الصراعات، حيث أدرك كيفية التعامل معها واحترام شؤون البشر بكل ما تحمله من تناقضات. لقد غاص تاريخ الفكر في الصين في أعماق الحياة اليومية، عائشًا بين الناس، مُدوِّنًا سجلاتهم الحياتية بأيديهم، وصاغ مقولاته فلاسفة لا يعلم أحدٌ أين عاشوا، ولا متى وُلِدوا، ولا كيف ومتى رحلوا.

تتميز الفلسفة الصينية، بخلاف مثيلتها اليونانية، بأنها لم تتعالَ على الناس ولم تسخر من البسطاء، بل لم تعتبر الفكر ترفًا مُخصصًا للسادة المهذَّبين أو حقًا محصورًا فيهم دون سواهم، ولم تُعلي من شأن مثال أرفع وأكمل فوق البشر، أو تسبح في غياهب ما وراء الطبيعة.

قامت الفلسفة الصينية على أساس صيغة الوسطية، والتسوية بين أطراف المتناقضات، مع مراعاة شؤون البشر وسياسة أحوالهم. فـ«السياسة» في هذا السياق تعني تدبير الأمور الناشئة بين الناس والمجتمعات من نزاعات أو تعارض، والاهتمام بما يتصل بمعاشهم وعلاقاتهم الاجتماعية من مصالح وتعيين الحدود العادلة التي تضمن قواعد المعاملات بينهم. كل ذلك يمثل العنصر الأساسي في الفكر الصيني.

لطالما انشغلت الفلسفة الصينية بما هو قائم في هذا العالم، دون أن تطمح إلى ما يتجاوز حدود المجتمع الإنساني. صحيح أن اهتمامها بالإنسان لم يتطابق كثيرًا مع المعايير اللازمة لمراعاة حقوق الأفراد كما هو مفهوم في الفلسفة الأوروبية، لكن كانت النزعات الفردية وجموح الجماعات القليلة التي تخرج عن نمط الثقافة السائدة والأعراف الاجتماعية تؤدي دائمًا إلى الفوضى، وتبدد قيمة الحياة في مجتمع لم يُعرف لبقائه قيمة إلا في حياته. فلم يكن لدى الصينيين نموذج أفلاطوني يتجاوز وجوده، أو جوهر أرسطي يتعالى عليه، بل كانت الصين ترى في الناس وحياتهم ومجتمعهم الكبير القيمة العليا والأهمية الوجودية، مما يجعل أي وجود آخر يتضاءل أمامه.

لذا، لا يُعجبنا استنكار الصينيين حين تُوصف سياسة بلادهم بأنها تنتهك حقوق الإنسان، إذ إن التجربة التاريخية والحضارية استوجبت تنوعًا في رؤيتهم لقيمة الوجود الإنساني. ولا يبدو غريبًا لدارس الثقافة الصينية أن يرى فوارق بين من يعدُّ الفرد الأقرب إلى المثال/الحقيقة هو النموذج المكتمل لمعنى الإنسانية، وبين تصوُّر آخر يرى في الحشد الاجتماعي أو الكتلة الحضارية المتحركة عبر التاريخ مشهدًا حقيقيًا كاملًا.

غالبًا ما كانت الحقائق في الصين تتجلى وسط حشود البشر، الذين لم يسبق أن وفد إليهم مُبشِّرٌ بنموذجٍ يُظهر لهم عالَمًا يتجاوز هذه الدنيا، كما لم تكن الدنيا دنيئة بتلك الدرجة التي تُصوَّر بها! فقد كان كونفوشيوس، في أكثر من مناسبة، يُؤكِّد لمستمعيه أنه لم يأتِ بقواعد أو تصورات أخلاقية من عنده، بل هو فقط ناقلٌ للتراث، مُعزِّزًا هذه الفكرة من خلال تحقيقاته في الكتب القديمة. وما يمكن أن ينسبه لنفسه هو أنه مُجدِّدٌ لقيم المجتمع القديم، لا أكثر.

إنه من العجيب حقًّا أن نجد أولئك الذين يؤيدون تصورات حقوق الإنسان، وهي في جوهرها مُستمدة من مجتمع كانت تقاليده تُنقص

من كمال الوجود الإنساني لصالح مثالٍ ضبابي وغامض، أكثر من كونه رمزًا متعالياً. وأغرب من ذلك أن نجد محاولات لفرض هذا التصور كما كان يفعل أحد المهرجين في الأساطير الصينية القديمة، الذين كانوا يبيعون الأحذية للغرباء، مُطالبين إياهم — عند ضيق مقاسات الأحذية على أقدامهم وبروز رءوس أصابعهم — بأن يقطعوا أصابعهم بالمقص لتتوافق مع قالب الحذاء!

ليس في نماذج الفكر نمطٌ أفضل، بل إن التصورات المُستخلَصة من سياقٍ ما قد تجعلها تبدو كذلك. والمفارقة أن مشاهد الحياة في المجتمع الإنساني — الصيني — كانت تنفر من التجريد، وتتأبى على الخضوع لمثال يتجاوز حدود الملموس في علاقات الناس بعضهم ببعض. فلم تستدعِ تعقيدات الواقع مثالًا أرفع وأكمل بقدر ما استدعت مفاهيم تقوم على قواعد للسياسة والأخلاق.

فالسياسة والأخلاق هما ركنتا البناء التقليدي في الفلسفة الصينية، ومن عباءتهما انبثقت كل الأفكار والفلسفات. وقد بزغت أهم المدارس الفكرية في فترة اتسمت بالصراعات الدامية بين أجزاء الوطن، الذي انقسم إلى دويلات تتنازع بعضها بعضًا، تتقاتل تارة

وتتوافق أخرى، حتى قام بين حدودها جدار دفاعي عظيم. ويشهد تاريخ الأمة الصينية أن النزاع — حتى العسكري منه — بين أقاليم تتشارك تاريخًا وثقافة ولغة ووجدانًا ومصيرًا واحدًا يمكن أن يكون تجسيدًا لتقلُّبات كيان تاريخي، تعتريه الهزات وتتخلل قطاعاته شقوقٌ غائرة، تُدمي أطرافه، ثم تلتئم.

فالحروب التي نشبت بين الأقاليم لم تكن سوى تجسيدٍ لقواعد في الأخلاق والسياسة الصينية، التي ترى أن هدف الحرب هو الوصول إلى الحل السياسي، وأن أقصى ما يسعى إليه المقاتل هو التسوية بإخضاع الأطراف المناوئة للقبول بين خيارات متاحة، وليس بالإبادة أو التفرقة أو الاستغلال أو الاستعباد. كانت الحرب، في الفكر الصيني، هي السياسة بوسائل أخرى، حتى قبل أن يُقرر تلك المقولة «كلاوزفيتز» بما يقرب من ألفَي عام. لكن كيف يمكن أن يتحقق ذلك؟

مَن يقرأ التاريخ الصيني القديم يُدرك أن معظم المدارس الفكرية نشأت أو نشطت في فترة من أكثر فترات التاريخ اشتعالًا بالحروب والمواجهات بين الدويلات الصينية القديمة. حتى يُقال إن "المائة

مدرسة فكرية"، التي ترمز إلى التنوع الهائل في ساحات الجدل الفكري القديم، تشكَّلت تقريبًا في الفترة الممتدة من العصر المعروف بـ "الربيع والخريف" (٧٧٠ ق.م.) إلى العهد الذي يُطلق عليه "الدول المتحاربة" (٤٧٥–٢٢١ ق.م.)، وهي المرحلة التي انتهت فيها الحروب بوحدة الصين الكبرى تحت كيان شامل في عهد سلالة تشين (٢٢١–٢٠٦ ق.م.)

ليس صحيحًا، تقريبًا، أن اشتعال الحروب بين دويلات أمة واحدة كان سببًا لفنائها، فالتاريخ الصيني يُظهر أنه لم يتبدد الإيمان ببقاء الأمة أو باستمرار الكيان الحضاري الذي أبدعه الأجيال. لم يكفر أحد بموروثات الوحدة أو بهُويته، برغم العهود الطويلة من النزاع والصراعات. لم يحدث أن تخلّى أحد عن انتمائه للأمة أو حاول مصالحة أعدائه عبثًا في لحظة طيش، وأقصد هنا أعداء وحدته ومسيرة حياته. أما أعداء الخارج، فكان لهم شأنٌ آخر.

صحيح أنه وُجد على الحدود أعداء من القبائل المتاخمة، وكانت الصين، بما تتمتع به من إحساس عميق بالتفوق على ما هو خارج تلك الحدود، تنظر إليهم بشموخٍ وإباء. ومن هنا، لم يكن بمقدورها أن

تصالح أحدًا من أولئك الأدنى منزلةً وحضارة. وكانت لحظة الطيش الوحيدة التي ارتكبها أحد الأباطرة القديسين — ولم يسامحه فيها المؤرخون — هي ارتداؤه زيَّ إحدى تلك القبائل الهمجية خلال حفل عشاء أُقيم احتفالًا باتفاق تم توقيعه بين جميع الأطراف كضمانة لاستقرار الأوضاع.

قبل أن تشهد الصين انفراجًا تاريخيًا يُفضي إلى وحدة كبرى بين دويلاتها، كانت قد خاضت غمار فترة من التألق الفكري، حيث ازدهرت فيها العلوم وتجسدت ثقافة "المائة مدرسة فلسفية"، التي تمثل الأسس المتينة للاتجاهات الفكرية المتعددة، التي سطعت على مدار التاريخ وحتى اليوم. ومن بين تلك المدارس، تميزت أربعة مذاهب رئيسية: الكونفوشية، الطاوية، الموهية، والقانونية، والتي تجسدت في صراع فكري حاد، إذ لا يزال يتصارع فيها الكونفوشيون والطاويون حتى اللحظة.

على ضوء هذه الأسس الفلسفية، انبثقت أصول الأفكار العسكرية، التي رغم إقصائها عن السرد الفكري التقليدي، كانت لها بصمة بارزة في تشكيل الأسس النظرية والعسكرية، مما ميز الحضارة

الصينية عن سائر الحضارات القديمة. وقد وجدت تلك الأفكار طريقها إلى الرواج خارج حدود الصين، لتغمر معظم مناطق شرق آسيا، من اليابان إلى كوريا والهند الصينية.

إن رجال العسكرية لا يمثلون مجرد منفصلين عن الفكر، بل هم جزءٌ لا يتجزأ من البنية الفلسفية الصينية، مستندين إلى الخصائص العامة التي أرسوها، ومبتكرين مقولات راسخة تدل على عمق تفكيرهم. فقد استخدموا أفكارهم كأداة لبناء الدول وحفظ الكيان الوطني، حيث تظل العسكرية الصينية، تاريخيًا، العنصر الأبرز في نسيج الخدمة الوطنية، إذ وظف السلاح لأغراض سياسية نبيلة.

هذا الواقع يقودنا إلى استنتاج يتجاوز حدود الفلسفة، مؤكدًا أن هذه الأخيرة هي ابنة بيئتها الضيقة، موصولة بجذورها في الوطن. ويمكن تلمس ذلك في مقولة سونزي، التي تُعتبر استنتاجًا عامًا ينسجم مع الخصوصية الصينية، إذ تقول: "إن الحرب مسألة ذات شأن بالنسبة للدولة، وهي تتعلق ببقاء وبناء الأمم (أو الدويلات.")

في تقديري، وقد أكون مخطئًا، إن جوهر الفكر الاستراتيجي الصيني القديم يتجسد في فكرتين رئيسيتين، تشكلان محور هذا المجال الواسع والمعقد:

الأولى :مدرسة «تسونغ هنغ»، أو "مدرسة المناورات السياسية"، التي تميزت بفكر عميق وابتكار استراتيجي، إذ إن روادها كانوا عقولًا بارعة في التخطيط السياسي والعسكري خلال تلك العصور الغابرة. لقد كان لهم دور محوري في الصراعات المشتعلة بين الدويلات الصينية أثناء فترة الدول المتحاربة، ولقد استعرضت بعضًا من أعمالهم في ترجمة كتاب «سياسات الدول المتحاربة» الجزء الأول، الذي صدر عن المركز القومي للترجمة.

الثانية :تلك المدرسة التي ضمت المفكرين العسكريين الذين صاغوا نظرياتهم في مؤلفات مدهشة، وقدموا إسهامات بارزة في مجال تطبيق أفكارهم، من خلال توليهم المناصب العسكرية والسياسية عبر مختلف العصور. ورغم أن النقاد استبعدوهم من خانة الفلاسفة ليصنفوهم ضمن صفوف الإدارة، باعتبارهم موظفين

رسميين، فإن أفكارهم ومنطلقاتهم النظرية جعلتهم أقرب إلى صفوف الفلاسفة والمفكرين منهم إلى رجال الحرب المحترفين.

وإذ أطرح بين يديك، سيدي القارئ، ترجمة محتويات هذا الكتاب الذي بين يديك، فإنه يمثل نصًّا فلسفيًّا لمفكر عاش في العصور القديمة، كغيره من الفلاسفة، بلا اسم معروف، أو تاريخ يحدد ميلاده أو وفاته، حتى أن البعض قد شكك في وجود هؤلاء العباقرة أصلًا.

ويجدر بي أن أذكر أن أبرز الأسماء التي تتلألأ في سماء العسكرية الصينية تتكون من خمسة فلاسفة، يمثلون تجليات الفكر القديم، وهم: سونزي (أو سون تسي، أو سون تزي)، الأكثر شهرة في عصرنا الحاضر، بعد أن اشتهر كتابه «فن الحرب». يليه الفيلسوف العظيم «سمارانجيو»، ثم «أو تشي»، و«سونبين»، صاحب الكتاب الذي بين أيدينا، وأخيرًا «ويلياو» الذي أسس لأهم مؤلف في التراث العسكري الصيني، المعروف باسم «ويلياو تسي.«

تجدر الإشارة إلى أن كلمة «تسي» أو «تزي» أو «تزو» تعني في الصينية القديمة "السيد" أو "الأستاذ" أو "الشيخ"، ويُستخدم هذا

اللقب بعد ذكر الاسم الأول مباشرة في التسمية. فعلى سبيل المثال، فإن لفظة «سونزي» تعني تقريبًا "الشيخ سون"، أو "سون أفندي."

أما عن الاسمين كونفوشيوس ومنشيوس، فقد ارتبطت تسميتهما بمسار ثقافي تم إدخاله ضمن ثقافة النخبة، حيث أضاف المبشرون الأوروبيون، الذين تأثروا بخلفيتهم الثقافية، لواحق جرت مجرى تسميات دالة على المذكر في الأسماء، في حين يُعرف كونفوشيوس في الصيني القديم باسم «كون تسي»، وكذلك يُشار إلى منشيوس باسم «منغ تسي». لكن تلك مسألة أخرى، تغوص في عمق التراث الثقافي الصيني.

في هذا المقام، يجدر بنا أن نلفت الانتباه إلى أن معظم هؤلاء الفلاسفة، رغم أن ظهورهم كان كطلوع الشمس في غيمٍ حالك، ووفاتهم أشبه برحيلٍ دون أثر، إلا أنهم قدموا إسهاماتهم التاريخية استجابة لنداء عصورهم، التي غمرتها الحروب والنزاعات الدموية بين الدويلات الصينية. لقد استلزم الوضع أن ينخرطوا في غمار الفكر بكل ما يملكون من ذخائر معرفية وتجارب عملية.

بعضهم، كـ"سونبين" صاحب هذا الكتاب، اختار أن يلتحق بميادين القتال، بينما فضل آخرون البقاء في قاعات القصور الإمبراطورية، يشرفون على مجريات الحرب. ولكن جميعهم اتحدوا تحت راية واحدة، تسعى إلى "إصلاح أحوال البلاد" كشرطٍ لازم للظفر في المعارك. لقد كانوا عسكريين بعقول سياسية، حيث تركز اهتمامهم على كيفية توظيف السياسة لحل النزاعات العسكرية.

وقد عُرف سونزي، في مؤلفه "فن الحرب"، بعبارة جليلة تتردد أصداؤها عبر العصور: "إن أعظم انتصار هو الذي يتحقق بلا قتال". يوضح سونزي أن الخطة المثلى هي تلك التي تبدأ بإحباط استراتيجيات العدو وإزالة معتقداته، ثم تأتي المرحلة الثانية التي تسعى لتقويض علاقاته الخارجية، تليها الخطوة الأخيرة التي تستهدف هزيمة قواته العسكرية واحتلال حصونه عند الحاجة.

إن هذه الرؤى تحمل في طياتها دلالات عميقة تتناغم مع نسيج الفكر السياسي، مما يمنح أفكار هؤلاء العسكريين طابعًا خاصًا يميزها عن غيرها. فهم ينظرون إلى القضايا من زوايا أكثر شمولًا، مستندين إلى مبادئ راسخة. وعليه، يتجلى الإبداع في أقوال سونزي وأقرانه، كما

يتضح في فكرته العبقرية "الانتصار بلا حرب"، حيث يتجاوز هذا المفهوم الأساليب التقليدية لإدارة المعارك ويقدم لنا رؤية تنبع من عمق الفكر الاستراتيجي.

إنَّ مَن يتصفح النصوص الأصلية لمؤلفات الحرب القديمة في التراث الصيني، سيجد نفسه مُنجذبًا نحو بحرٍ من الرؤى الفلسفية العميقة. ومن أبرز هذه الرؤى، يتجلى مفهوم "الطريق"، الذي يُعتبر حجر الزاوية في الفلسفة الطاوية، ولا يخفى تأثيره أيضًا في الفكر العسكري، حيث يُعبر عن "السياسة". فما إن تطأ قدماك عتبة أي كتاب عسكري قديم حتى تجد هذه الكلمة تتلألأ في السطور الأولى، دلالةً على الأهمية التي تُعطى للحلول السياسية كوسيلة فعّالة.

لقد كان سونزي هو السبّاق في استجلاء معالم هذه التصورات الفلسفية، تبعه عدد من المفكرين العسكريين الذين استلهموا أفكاره، كأوتشين الذي أكّد في مؤلفاته على ضرورة دعم الدولة لسياساتها الداخلية، بينما تعدُّ قواتها على جبهات القتال. ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل تناول أيضًا الأصول الاجتماعية للحرب، مُقدّمًا رؤى قيّمة حول الفروق بين الحرب العادلة والجائرة، مُتعمقًا في دراسة طبيعة

الصراع من منظور عسكري، وهو جانب لم يُلقَ الاهتمام الكافي في التراث الصيني القديم، إذ طغت السرديات العملية لمفاهيم القتال على التأمل في جوهر الحرب نفسها.

في سياق الفكر الصيني، يُلاحظ أن الميتافيزيقا لم تُطرح كأسئلة محورية، مما جعله ينأى عن البحث في الأشكال أو المعاني التي تصف السمات الجوهرية للظواهر المختلفة. لذا، لم يُخصص المفكرون العسكريون جهدًا يُذكر لتحديد أو مناقشة طبيعة الحرب. يُذكَر أن سونبين كرر العديد من النصائح التي تستمد روحها من هذه الرؤية، إذ قال: "من الأمور الحيوية للدولة أن تكتسب القدرة على إحراز النصر في المعارك، وقت الحرب، وأن تحافظ على قدراتها العسكرية، وقت السلم؛ فإن هذه الوسيلة هي سبيل النفوذ والهيمنة وسط الممالك."

وعند النظر إلى الفكر الصيني، يتضح أن الدولة تُعتبر أحد أركان البناء الكونفوشي، بل تُعد أساسه الجوهري. ومن هنا، كانت اجتهادات فلاسفة الحرب تراعي خصوصيات المجتمع وبيئته الاجتماعية وسماته الأصيلة. لم يكن لأي نظرية أو اجتهاد فكري أن ينفصل عن سياقه الحضاري، حتى أكثر الاتجاهات الفلسفية تمردًا،

كالفكر الطاوي، لم تستطع الخروج عن إطار المفاهيم التقليدية الصينية. ومن الضروري الإشارة إلى أن تلك التوجهات السياسية لم تكن دائمًا وفية لقواعدها المذهبية، إذ بالغت بعض الأعمال النظرية، رغم ابتكاراتها وإبداعاتها، في تقدير دور القائد، مُهمِّشةً دور الجنود وحشودهم.

لوحظ أن بعض الاجتهادات النظرية العسكرية في التراث الصيني تعطي مكانة أدنى للمقاتلين مقارنة بقادتهم، بينما أوصت بضرورة توعية القادة وتنمية قدراتهم المعرفية، إلا أنها، بشكل غريب، كانت تسعى إلى تعمية عقول الجنود، مانعة إياهم من فرص الوعي والنمو. وهكذا، أقرّت مفهومًا خرافيًّا في التاريخ القديم، قائمًا على الاعتقاد بأن حفنة من الأبطال وحدهم هم الذين صنعوا المصير وسطروا صفحات البطولة والمجد.

غير أن سونبين، مؤلف هذا الكتاب الذي بين أيدينا، اعترف في مواضع عدة من مؤلفه الشهير بأهمية الدور البشري في الحرب، رغم أن هذه الفكرة لم تكن مُعتمَدة بشكل كبير في زمنه. وقد قدم ثلاثة عناصر حاسمة في حسم الحرب، وهي: المكان الملائم، الزمان

المناسب، والعنصر البشري، مما يُظهر رؤيته العميقة في فهم طبيعة الصراع وعمق التحليل العسكري.

في سياق تأكيده لقيمة البشر في خضم المعارك، يبرز سونبين تأثره العميق بما جاء في كتاب «سيما فا»، الذي يعد أحد أبرز النصوص العسكرية في التراث الصيني. هنا، يتجلى تأثير الأفكار الكونفوشية في مفهوم الإنسانية والعدل، حيث يصبح هذا التأثير جوهريًا في تشكيل رؤاه الاستراتيجية.

أما المفكر العسكري الآخر، «ويلياو تسي»، فهو يتجاوز حدود الفكر التقليدي، مُسلطًا الضوء على الرؤى الاجتماعية التي تشكل أساس نظرياته. في كتابه الذي يحمل اسمه، والذي يُعتبر أحد أهم سبعة مؤلفات في التراث العسكري الصيني، يؤكد ويلياو تسي أن الحرب ليست مجرد وسيلة للاقتتال، بل هي أداة رئيسية لإدارة الشؤون الاجتماعية الداخلية، مما يُعزّز من دورها في النهوض بالاقتصاد. هنا، نجد أن أفكاره تُسلّط الضوء على أبعاد فلسفية متفرعة عن الكونفوشية، حيث تبرز المدرسة القانونية، التي تعكس طابعًا خاصًا في تنظيم المجتمع.

وفي تصوره العميق، يطرح ويلياو تسي قاعدة مكونة من ثلاث نقاط تشكل أركان إصلاح البلاد وتنظيم شؤونها، وهي:

1. **الأرض،** التي تُعتبر المصدر الأساسي لمعيشة الناس وتوفير أقواتهم.

2. **أسوار المدن،** التي تُعتبر الدرع الحامي للمجتمعات.

3. **الحرب،** كوسيلة فعالة للدفاع عن هذه المدن والحفاظ على أمنها.

يذهب إلى أن تطوير أدوات الزراعة والحصاد يُحقق أسباب العيش الكريم، وأن الأسوار تُحافظ على الأرض مصونة من المخاطر، بينما يُسهم التدريب الدؤوب في فنون القتال في حماية المدن من أية تهديدات.

تُمثل هذه النقاط الثلاث الأسس الحيوية لسياسات الإصلاح في الوطن الصيني القديم، كما يحددها ويلياو تسي. ويرى أن الحرب تُعتبر من العناصر الأساسية، حيث الأكفاء والمؤهلون هم وحدهم القادرون على النهوض بأحوال البلاد. في هذا السياق، يُبرز دور أمراء

الدويلات الذين يمتلكون السلطة لتعيين النظريات المفيدة والصحيحة، بجانب وجود كبار العسكريين والفلاسفة الذين يقفون دائمًا في خدمة هؤلاء الأمراء عند الحاجة.

وفي النهاية، تندمج الفلسفة العسكرية مع الفكر الاجتماعي والاقتصادي، مما يجسد الروح الحقيقية للإصلاح الذي يسعى إليه المفكرون العسكريون في التراث الصيني، تاركين أثرًا عميقًا على مسارات الفكر الاستراتيجي والحياة الاجتماعية.

فيما يتعلق بالخلفيات الفكرية والمذهبية التي تُصنف انتماء هؤلاء الفلاسفة، لا بد من تسليط الضوء على الاعتبار الأهم الذي أظهرهم على مسرح التاريخ، وهو طبيعة ما تخصصوا فيه، كرجال حرب يُعول عليهم في شؤون المعارك، سواء على صعيد التنظير أو في تجسيد تلك الأفكار على أرض الواقع كقادة عسكريين.

دعونا نستعرض أبرز هؤلاء القادة مع قليل من الإيجاز، مرتبين حسب أهميتهم وشهرة آرائهم في التراث العسكري وثقل ما أسهموا به من أدوار في صياغة ملامح الفكر العسكري الصيني عبر العصور.

(١)

سونزي :ابن دولة تشي القديمة، عاش في أواخر فترة «الربيع والخريف» (770–446 ق.م)، ويُعتبر مؤسس العسكرية الصينية. هاجر إلى دولة «لو»، حيث وجد حاكمها في استقباله، ولقِي من تقديره الكثير، مما أهَّله ليصبح قائدًا عامًا للجيش. أسس سونزي لنفسه مجدًا باهرًا حين تمكن من الانتصار على جيش يتكون من مئتي ألف مقاتل بجيشٍ لا يتجاوز الثلاثين ألفًا، مُقتحمًا عاصمة تشو ومهددًا كلًا من دولتَي «تشي» و«جين». لقد ترك سونزي للبشرية إرثًا خالدًا، كتابه الشهير «فن الحرب»، الذي يُعتبر من أهم المؤلفات العسكرية ليس في الصين فحسب، بل في التاريخ الإنساني ككل. يتألف هذا الكتاب من ثلاثة عشر فصلًا، بالإضافة إلى فصول أخرى اكتُشفت خلال حفريات في إقليم شاندونغ عام 1972.

لقد كان سونزي يُعلِّم أهمية استغلال الفرص، وهو ما تجلى في أعمال خليفته سونبين، الذي جاء بعده بنحو قرن. وقد أخذ على عاتقه توظيف مقولته التي تلخص ضرورة استثمار الموقف: «من اللازم جعل الموقف الواحد مفيدًا لقواتنا، وضارًّا بالعدو». كما يُنسب

إليه إرساء مبدأ «هزيمة العدو بالهجوم المباغت». بينما أكّد سونزي على أهمية الهجوم، ارتقى سونبين بفكرته، قائلًا: «كن دائمًا المهاجم، ولا تكن الطرف المدافع أبدًا.«

يستطيع المرء فهم هذا الفارق بين النظريتين من خلال الظروف التاريخية التي أحاطت بسونبين، في زمن شهد فيه المجتمع تصاعد قوى وطموحات اجتماعية تسعى نحو السيطرة. بينما كان سونزي يُشدد على تفادي الحصار كإهدار للجهود، أبدع سونبين في تأكيد أهمية حصار المدن، متأثرًا بما شهدته الحقبة من ازدهار اقتصادي جعل للمدن دورًا محوريًا. إذ إن التطور الفني والتقدم في وسائل التسلح أتاحا اقتحام المدن المحصنة، ليُعبر هذا الانتقال في الرؤية عن صراعٍ معقد بين الفلسفة العسكرية والممارسة الفعلية في ميادين الحرب، مُجسدًا بذلك تاريخًا زاخرًا بالتحديات والانتصارات.

ينسب إلى سونزي الفضل في تأسيس مبادئ أساسية في فنون القتال، تلك المبادئ التي ألهبت خيال الأجيال اللاحقة وأفصحت عن إمكانات مبدعة للتطور والتغيير. فقد أكد سونزي على أهمية جذب انتباه قوات العدو من خلال انطباعات زائفة، تمهيدًا للقضاء عليها،

مُتيحًا بذلك لتابعيه فرصة ذهبية للإبداع والتجديد. وكان من بينهم "أوتشي"، أحد أخلص تلاميذه، الذي جسد تلك الفكرة من خلال تكيفها مع ظروف معركة "مالين" الشهيرة، حيث تمكن من استدراج أعدائه إلى هزيمة ساحقة. كما استلهم "سونبين" من رؤية سونزي حول تجنب قوى العدو، مُقدّمًا مبدأً متطورًا يقوم على تشتيت قوات العدو بينما يحتفظ بتماسك قواته، بحيث يُهيئ نفسه للهجوم عندما تسنح الفرصة.

لقد أشار سونزي أيضًا إلى أهمية الحصول على معلومات موثوقة حول العدو، مُبتعدًا عن خرافات الكهانة والعرافة، مُعتمدًا على آراء من يتمتعون بمعرفة عميقة ببواطن الأمور. وهذا الاتجاه يمثل انعتاقًا من القيود الفكرية السائدة في زمانه. من بعده، جاء "أوتشي" ليُسلّط الضوء على أهمية إلمام القائد بجميع فنون الحرب، للتعامل مع مختلف الظروف وتحاشي الهزيمة، وهو ما يتعارض تمامًا مع الأعراف المستقرة التي كانت تُنسب النصر أو الهزيمة إلى أقدار السماء التي لا مفر منها.

(2)

"أوتشي": (تقريبًا 440–381 ق.م.) وُلِد في دولة "وي"، خلال بداية عصر "الدول المتحاربة"، قبل أن يهاجر إلى دولة "لو"، حيث اتجه بعيدًا عن دراسة الفلسفة الكونفوشية نحو احتراف فنون الحرب. تولى قيادة قوات دولة "لو"، ونجح في الانتصار على جيش "تشي"، ثم عاد إلى "وي" ليقضي سبعة وعشرين عامًا في منصب المحافظ. خلال هذه الفترة، أجرى العديد من الإصلاحات العسكرية والسياسية والاقتصادية، مُسهمًا في صد أطماع دولة "تشين" في "وي"، وأعلى من شأن بلده بين الجارتين القويتين "هان" و"جاو"، مما مكّن "وي" من توسيع نفوذها وسلطتها على أراضيها الشاسعة. ولكن، وللأسف، فقد تعرض لوشايات رُبّما أدت إلى نفيه، حيث لجأ إلى دولة "تشو" التي عيّنته في منصب رفيع يُشرف من خلاله على إصلاحات عامة في البلاد. ومع ذلك، وفي لحظة غير متوقعة، أُغتيل على يد أحد النبلاء، بعد أن جمع آراءه وتجربته في كتابه "فن الحرب عند أوتشي"، الذي أوجزه في ستة فصول.

(3)

"سونبين": ينتمي إلى إحدى الدويلات الصينية القديمة المعروفة

باسم "تشي"، ويُقال إنه أحد أحفاد المفكر العسكري العظيم "سونزي". وعلى الرغم من وجود فاصل زمني يُقدّر بمئة عام بين الجد والحفيد، فقد درس سونبين في سن مبكرة كتاب "فن الحرب" وحضر دروس الفيلسوف الشهير "كويكوتزي". وأثناء تلك الفترة، تزامن مع زميل له يُدعى "بانشيوان"، الذي تمكن من الحصول على وظيفة مرموقة في جيش دولة "وي" بفضل دعم الملك "هوي"، الذي كان يشجع الموهوبين.

على الرغم من ما حققه بانشيوان من مكانة رفيعة، إلا أنه كان يحمل في قلبه مشاعر من الغيرة والكراهية المكبوتة تجاه سونبين، الذي أظهر نبوغًا استثنائيًا في فنون القتال منذ صغره. خشيةً من أن يتفوق عليه زميله، سارع بانشيوان إلى استدعائه بخديعة، مُقنعًا إياه بضرورة القدوم إليه سرًّا، دون أن يشك الملك في الأمر. وقد استجاب سونبين بحماس، ولكن ما لبث أن وجد نفسه محاصرًا بحرس الملك، مُلقىً في غياهب السجن. وعندما استفاق من صدمته، صادف أشنع آلات التعذيب التي كانت تُستخدم آنذاك.

وفي خضم تلك الأهوال، وبحيلة من الذكاء، تظاهر بالجنون هربًا من عذاب الأعداء. واستغل الفرصة للتواصل سرًّا مع رسول من دولة "تشي" كان قد حلّ بالبلاد، وتمكن من الهرب إلى دويلة "تشي"، حيث لقي ترحيبًا حارًا واستقبالًا رائعًا من القائد العام "تيانجي"، الذي أُعجب بذكائه وسرعة بديهته.

سرعان ما عُيّن سونبين مستشارًا للشؤون العسكرية، بينما قرر الملك تعيينه قائدًا للجيش خلال الحرب بين دويلة "وي" ودولة "جاو". ولكنه اعتذر بأدبٍ، مُشيرًا إلى الآثار السيئة التي تركتها آلة التعذيب على وجهه. بدلًا منه، تم اختيار تيانجي ليقود الحملة، فيما بقي سونبين مستشارًا له.

وبينما كانت الأحداث تتوالى، كان سونبين يعمل وراء الكواليس، يُرشد تيانجي بخططه الاستراتيجية. وقد تألقت شهرة سونبين في عام 340 ق.م. عندما اتحدت دولتَا "جاو" و"وي" لمهاجمة دويلة "هان"، التي طلبت النجدة من "تشي". وعندما أصاب الهلع قائد جيش "وي"، "بانشيوان"، الذي أبدى استخفافًا بقوات "تشي"، جاء سونبين بفكرة ماكرة أوقعت غريمه تحت الحصار، ما اضطر

بانشيوان إلى الانتحار، بعد أن سقطت عاصمة بلاده. ومنذ ذلك الحين، ذاعت شهرة سونبين، حتى تجاوزت الأسطورة، وتواترت القصص حول براعته في المعارك، حيث وُصف بأنه الرجل ذو الخطط الماكرة.

تذكر السجلات التاريخية في "أرشيف دولة هان" أن كتاب "فن الحرب" الذي ألفه سونبين قد شمل تسعة وثمانين فصلًا، لكنها ضاعت خلال فترة حكم أسرة "سوي" (في القرنين السادس والسابع الميلاديين). وبالتالي، ضاعت الكثير من تراث هذا الفيلسوف المحارب، وتطلب الأمر مئات السنين حتى عُثر على نسخة مُهلهلة من كتابه خلال إحدى الحفريات الأثرية في عام 1972. ومع ذلك، كانت الأحداث التي عاشها سونبين قد سطرت لدولة "تشي" أسباب القوة والازدهار، بينما بقيت تفاصيل حياته، مثل تاريخ ميلاده ووفاته، غامضة، سوى ما دُوِّن في السجلات التاريخية من أن القائد تيانجي "اعتزل الحياة العامة، ولحق به سونبين، الذي اختار العزلة في أواخر أيامه."

الأغرب في هذا السياق هو أن الاسم الحقيقي لسونبين يبقى مجهولًا، ففيما يتضح من لقبه الأول "سون"، يمكن الافتراض بأنه ينتمي إلى عائلة مشهورة عبر التاريخ بإنجاب العسكريين. أما المقطع الثاني "بين"، والذي يُنطق كما في كلمة "موبينيل"، فهو ليس اسمًا بالمعنى التقليدي، بل هو لقب آخر يحمل دلالة "الأعرج"، كما يُفهم من خلفية حياته. فقد ألصقت به هذه التسمية نتيجة للعرج الدائم الذي يعاني منه، والذي نتج عن تعذيب وحشي، أدى إلى تشوهات دائمة في قدميه. وبذلك يكون معنى لقبه حرفيًا "سون الأعرج"، أو بشكل أدق "حفيد آل سون الأعرج"، وفقًا للتقديرات التي لا تتجاوز كونها أشباه حقائق.

ولما كان سونبين قد نال من المجد ما يضاهي ما حققه رفيقه ومُعاصِره "أوتشي"، فقد أُطلق عليهما معًا لقب "سون أو". ومن جهة أخرى، فإن تسمية الفيلسوف العسكري الأول "سونزي" أو "سون تزو" — بغض النظر عن كيفية نطقها — لا تعكس اسمه الأصلي كما يُعتقد، بل هو لقب يُقرأ في الكتب القديمة وفي السجلات التاريخية هكذا: "سون وو"، الذي يعني "سون المنتسب إلى دولة وو"، أو بصيغة أخرى مفهومة بالعربية "سون ابن البلد وو" (كما يُشار إلى

الفقيه الذي وُلِد في بخارى بـ"البخاري"، أو "القرطبي" في دلالة إلى موطنه).

هذا لأن سونزي هرب من دولة "تشي"، مسقط رأسه، إلى دولة "وو"، حيث برع وذاعت شهرته. وعلى نفس المنوال، تمت الإشارة إلى سونبين أحيانًا في سجلات التاريخ القديم بأسماء متنوعة، مما يعكس تعقيدات تدوين الأسماء في التراث الصيني القديم. تلك التعقيدات صعبة الفهم حتى للمتخصصين، فكيف الحال بالجمهور العام؟ لكن ما يعنينا في هذا الصدد هو ما يمكن أن نصادفه في الترجمات السابقة أو اللاحقة للمدونات التراثية.

يأتي ذكر سونبين أحيانًا بصيغة مختلفة، حيث يُشار إليه بلقب "سون تشي". هذا الأمر ليس بجديد، إذ يتكرر في سياق الهروب من موطنه بحثًا عن ملاذ أكثر رحابة، فالجميع يسعى إلى النور، وكل منهم يسطع نجمه في سماء المجد، فيتحول إلى أسطورة. كما في معظم الأساطير، تتعدد الأسماء لبطل واحد، وتتلاشى أوقات الميلاد والوفاة، مما يمحو حدود الزمن بين الأيام والسنين. يبقى الدهر محتفظًا بوجود الجميع، رغم التحدي الذي يمثله النسيان، وقد يتجلى ذلك في

سخرية التاريخ من ذاكرتنا، كاشفًا عبثية التدوين وتآكل الأوراق وصحف الماضي، وفوضى تراكم الأحداث في الذاكرة.

هنا نجد أمامنا رجلين، تفصل بينهما جملة اعتراضية مقدارها مئة سنة كاملة، ولكن تجمعهما حكاية القدر. فقد هاجر سونزي بدوره إلى دولة الجوار، حيث ارتقى إلى المناصب العسكرية العليا، محققًا انتصارات عظيمة بفضل استراتيجياته المدروسة لقوات دولة وو، التي استطاعت التوغل لمسافة ألف "لي" في أراضي غريمتها "تشو"، وذلك إثر هجوم مباغت. وفي العام الثاني عشر من حكم الملك "فوتشاي" (٤٨٤ ق.م.)، حققت وو النصر بفضل سونزي، لتصعد بذلك إلى ذُرى المجد وتبلغ آفاق الإمبراطورية. لكن رغم كل سجلات الانتصار، يضيع أثر سونزي وسط الزحام، فلا يعرف أحد مصيره بعد أن وصل إلى ذروة الرفعة والشهرة. تظل الروايات متضاربة، ولا يدري المؤرخون إن كان قد توفي بعد ذلك مباشرة، أو اغتيل، أو أُحيل إلى التقاعد، أو اختار العزلة.

ومع مرور الزمن، لم يتبقَ سوى الأقلام والصحف التي صمدت أمام اختبار الزمن، فاستمرت أطول من أعمار أصحابها. ومع ذلك، لم

تسلم مصادر التراث من الشكوك بسبب الغلالة الضبابية التي تغلف سيرة الماضي وأهله. فقد استمر عدد كبير من الدارسين وكبار المتخصصين في العلوم العسكرية، منذ بداية عصر دولة سونغ (٩٦٠–١٢٧٩م)، في اعتبار كتب التراث العسكري الكبرى، مثل: "ليو طاو" (أي: الفنون الستة) و"فن الحرب عند سونزي"، و"ويلياو تسي"، و"قوان تسي"، و"يان تسي"، وغيرها من المدونات الحربية القديمة، مجرد محررات مزيفة لا ترقى إلى مرتبة التراث الذي يستحق التقدير. وفي فترة من ذلك العهد، انتشرت آراء بين الدارسين في علوم الحرب تفيد بأن كلًا من سونزي وسونبين لم يكتبا عملين منفصلين عن الحرب، بل إنهما قد قدما كتابًا واحدًا بعنوان "فن الحرب". واستمرت هذه الظنون تسيطر على أذهان الدارسين حتى اكتُشفت نسخة كاملة من "فن الحرب عند سونزي" ونسخة ناقصة من "فن الحرب عند سونبين" في حفائر إقليم شاندونغ سنة ١٩٧٢م.

تتعدد الكتب التي تحمل عنوان "فن الحرب" في المكتبات العسكرية الصينية، حيث يُعتبر كتاب "سونزي" الأشهر بينها. ولكن ثمة مؤلفات أخرى تستحق الذكر، مثل "فن الحرب عند سيمافا"، و"فن الحرب عند كونمين"، و"فن الحرب عند ليجين". ولولا خشية

الإطالة والملل، لاسترسلت في سرد المزيد من هذه الكتب التي تعكس عمق المذاهب الاستراتيجية الموروثة عن الحضارة الصينية القديمة. وقد يتبادر إلى الذهن أن التراث الصيني قد انحصر في إبداع فنون القتال، مما قد يثير انطباعًا بأن الصين أمة لا تعرف سوى الحرب والقتال. لكن، كما هو معروف في تاريخ الأمم، كثيرًا ما تُروى حكاياتها عبر صراعاتها، كما تجلت في التاريخ الروماني الذي امتد بحد السيف.

والحق أن الحرب ليست سوى جزء من فلسفة سياسية واجتماعية شاملة تسعى لتحقيق التسوية. فإذا أمعنا النظر في الفترات المشتعلة من "عصر الدول المتحاربة" حتى زمن أسرة تشين، التي تجاوزت مئتي عام تقريبًا (من 470 إلى 206 ق.م)، نجد أن الوحدة الصينية الشاملة قد كانت النتيجة الحتمية للإمبراطور تسين شيهوانغ. يمكن القول إن التاريخ الصيني شهد صراعات كثيرة في سعيها نحو تسوية النزاعات، والذي انتهى بالوحدة الأولى عبر تاريخها الطويل. لم تأتِ أعظم وحدة إلا بعد صراعات عميقة بين جنبات الأمة الواحدة، وكأن التاريخ يروي لنا أن الصراع هو السبيل نحو الوحدة.

والأغرب من ذلك أن المدارس الفكرية والفلسفية التي تميز الصين عن غيرها من الأمم ولدت من رحم "زمن الدول المتحاربة". فقد تزامن الإنتاج الفكري في المجال العسكري مع التأمل في قضايا المجتمع، حيث كان رجال الحرب جزءًا من النسيج الثقافي والإبداعي. ولعل الفارق بين المفكر والمثقف والشاعر والمفكر الاستراتيجي ليس بتلك الهوة التي قد تبدو للوهلة الأولى. فلقد كان "ماو تسي تونغ"، على سبيل المثال، أحد أبرز الشخصيات في القرن العشرين، فهو مثقف وسياسي وزعيم وشاعر، له إنتاج أدبي متميز. وكانت كتاباته العسكرية تمثل قمة نضجه الفكري، إذ أدرجت في مقدمة أهم الكتابات العسكرية، وخاصة ما يتعلق بـ"حرب العصابات". ولا عجب في ذلك، فجزء من تكوينه الفكري يعود إلى ثقافة صينية تقليدية تعتز بالكتابة في نظريات الحرب، بوصفها إبداعًا ذا مكانة رفيعة.

وعلى الرغم من كثرة كتب التراث العسكري، لم يكن هناك سوى سبعة مؤلفات تُعتبر جوهرية للمشتغلين بمهام التخطيط، وهو تصنيف يعود إلى عصر أسرة سونغ. ورغم الشكوك حول صحة نسبة بعض هذه المؤلفات إلى أصحابها، فإن الكتب المعتمدة تشمل: (١) "فن الحرب عند سونزي"، (٢) "فنون الحرب الستة" (ليو طاو)، (٣)

"كتاب أوتسي"، (٤) "كتاب ويلياو تسي"، (٥) "كتاب الخطط الثلاث" (سان لو)، (٦) "كتاب سيمافا"، و(٧) "كتاب محاورات لويقون."

يظل كتاب «فن الحرب» لـ«سونزي» الأبرز في مجاله، رغم أنه ليس الأعمق أو الأكثر شمولية. وقد تُعزى مكانته إلى سيرة كاتبه الشخصية، التي تتقاطع أحداثها المأساوية مع قصص الأنبياء والملوك، حيث تكشف عن كفاحه وإسهاماته في خدمة الوطنية الصينية، بما يتماشى مع قواعد الفكر الكونفوشي. ومع ذلك، فقد انتقد البعض الكتاب، مشيرين إلى عدة مثالب، يمكن تلخيصها على النحو التالي:

•**أولًا** :على الرغم من تناول سونزي العلاقة بين الحرب والسياسة، إلا أنه لم يُحلل طبيعة الحرب بصورة كافية. صحيح أن المؤرخين قد اتفقوا على أن حروب فترة الربيع والخريف لم تُعطِ أساسًا لمناقشة مفاهيم حرب طبيعية أو عادلة، إلا أن نظرية سونزي، كما صيغت في كتابه، تفتقر إلى العمق المطلوب.

•**ثانيًا** :انتُقد سونزي لرفعه من قيمة القائد وأهمية دوره، معتبرًا إياه «سيد حياة الممالك وسبب أمنها أو ترويعها»، بينما نال الجندي المقاتل احتقارًا لا يُغتفر. ويُعد ذلك خطيئة جسيمة، لا يمكن تبريرها.

•**ثالثًا** :مما يُعاب على سونزي هو ميله لإصدار أحكام مطلقة تتعلق بمبادئ الحرب، دون أن يستند إلى حكمة تجاربه الشخصية.

وعلى الرغم من ذلك، يبقى كتاب «فن الحرب» لسونزي ركيزة في تراث الفكر العسكري الصيني والعالمي. وتدلّ سجلات التبادل الثقافي على أن أول محاولة لترجمته إلى لغة أجنبية كانت إلى اليابانية في عهد أسرة تانغ الملكية عام 734م، حين حاول طالب ياباني خلال رحلته الدراسية نقل الكتابين العسكريين: «فن الحرب» و«أوتزي» إلى بلاده، مُخفياً المدونتين في لوحات مصورة للحيلولة دون اكتشاف محاولته.

في عام 1782م، تمت ترجمة الكتاب إلى الفرنسية على يد «أميوت»، وهو عضو في الجمعية التبشيرية، ثم تُرجم إلى الإنجليزية لأول مرة عام 1908م بواسطة «كالثروب»، أحد المبعوثين البريطانيين إلى اليابان. وجاءت ترجمة أكثر دقة عام 1910م على يد

«ليونيل جايلز»، المتخصص في الدراسات الصينية، والتي تُعتبر النسخة المعتمدة في الإنجليزية حتى اليوم. بينما أتى الأمريكي «غريفيث» عام 1963م ليُكمل ما نقص في ترجمة «جايلز»، مُنتجًا نصًا دقيقًا، إذ أمضى سنوات طويلة في مراجعة نصوص «فن الحرب» وشروحاتها، مما يجعله متعمقًا في الثقافة الصينية القديمة.

ولم تقتصر الترجمات على تلك اللغات فحسب، بل حظي الكتاب بترجمات إلى لغات عدة، من بينها اللغة العربية، حيث قدم المركز القومي للترجمة في القاهرة ترجمة رائعة من قِبل الأستاذ الدكتور هشام المالكي، تُعتبر من بين أفضل الترجمات التي أُنجزت. فقد شملت هذه الترجمة النص الأصلي والشروح المصاحبة، مضافة إليها هوامش وإشارات توضِّح الظروف المختلفة لتطبيقات النصوص الواردة في الكتاب. كما استعرضت مجالات متنوعة تتجاوز الجوانب العسكرية لتتناول الصراعات والمنافسات في مجالات التجارة والعلاقات الدبلوماسية وأنشطة المال والاستثمار وفنون إدارة الأعمال. تلك ترجمة ذكية عكست مغزى النص في لغته المباشرة وإشاراته المرجعية المحتملة، وهو ما يُعَد إنجازًا لمترجم يتمتع بالأدوات اللازمة لفهم النصوص في معجمها اللغوي والثقافي. وأملنا

أن يتمكن الأستاذ المالكي من استكمال ترجمة بقية أجزاء الكتاب، حيث لم يصدر منه سوى الجزء الأول حتى الآن.

إن بقية الترجمات، رغم كونها عن لغات وسيطة، قد أسهمت بشكل ملحوظ في إضاءة الوعي بأهمية هذا الكتاب. لطالما اعتقدت، في إطار الحديث عن الترجمة غير المباشرة، أن التصورات الجامدة التي تتبناها بعض دوائر الترجمة بشأن القيمة المبالغ فيها للترجمة عن لغات أصلية، فضلاً عن العديد من المفاهيم المتحجرة المتعلقة بالنشاط الترجمي، قد تؤدي إلى تراجع عملية الاتصال الحضاري بصورة خطيرة. فما السبب في الإصرار على تفضيل الترجمة عن لغة مباشرة؟ أليس من الغريب أن يُغفل المتشددون أن العديد من روائع الفكر والأدب في مختلف الثقافات قد عرفناها أولاً من خلال تلك اللغات الوسيطة؟

لولا الترجمة عن الإنجليزية والفرنسية، لما استطعنا مثلاً تقدير قيمة كتاب مثل «الطاو» أو «محاورات كونفوشيوس» في التراث الصيني. كما أن غياب الترجمة الإنجليزية حال دون اطلاعنا على روعة رباعيات الخيام في الفارسية، أو الكتاب الهندي «الكاماسوترا». بل إن

كتبًا مثل «كوليانمول» الهندية أو «ليتزو» الصينية قد لا تُدرك قيمتها إلا من خلال تلك اللغات الوسيطة، التي تحمل في طياتها ما يُعادل أثر «ألف ليلة وليلة» و«المواقف والمخاطبات» في التراث العربي.

ويجدر بالذكر أن كتاب «فن الحرب» قد عرفته أوروبا في البداية عبر اللغة اليابانية، والتي كانت، للغرابة، هي اللغة التي قدمت للصينيين أحد أهم كنوز التراث العربي، وهو «ألف ليلة وليلة». من هنا، فإن الترجمة عن لغات وسيطة، في رأيي، تمثل وسيلة لاكتشاف أهمية نصوص لم يُقرأ أو يُعرف في لغة الأصل.

أُعبر عن هذا الرأي وأنا أحد أولئك الذين يخصصون أنفسهم للقارئ العربي من خلال الترجمة عن اللغة الصينية. لكن المسألة هنا لا تتعلق برؤية فردية تتعلق بقيمة ما يمتلكه من مؤهلات، بل ترتبط بما ينبغي أن تمتلكه أمة كبرى من جسور ثقافية تربطها بالعالم من حولها. لكن تلك قضية أخرى تتطلب تأملًا أعمق ورؤية أشمل.

لنعد إلى العبقري الصيني، ذلك العسكري البارع، سونزي، ورغم أن حفيده سونبين هو محور بحثنا، فإن سيرة الأول قد تكون مفتاحًا

لفهم أفكار الثاني، إذ سار سونبين على نهج سلفه. وقد ذُكر في سياق بيان أهمية كتاب «فن الحرب» الذي تزايدت ترجماته إلى اللغات الأوروبية (إذ تم ترجمته إلى 29 لغة) أن مقدمة إحدى الترجمات، التي ترجمت عن الإنجليزية، كتبها «ليدل هارت»، أحد أبرز المفكرين العسكريين في القرن العشرين. وقد قيل إنه استلهم الكثير من كلمات سونزي في صياغته لمؤلفاته العسكرية، كما يُروى أن القادة العسكريين الأمريكيين خلال حرب الخليج كانوا يحملون في جيوبهم نسخًا من هذا الكتاب أثناء خوضهم غمار المعارك، في حكاية تُثير التأمل في كيفية استقبال نصوص في ثقافات مغايرة، وفي زمن يتطلب طرقًا جديدة لفهمها وتأويلها.

يبدو أن فن الحرب الذي ألفه سونزي كان سعيًا للتصالح مع مفهوم جماعي لعصر حضاري كان يواجه خطر النزاعات المدمرة، تلك النزاعات التي كانت تهدد بمحو إرثه الفكري المقدس. نلاحظ أنه لم يكن مؤيدًا للخطط الهجومية، وهو ما يتناقض مع فن الحرب الذي قرأه ليدل هارت في ظروف غابت فيها فكرة الوحدة الصينية، حيث تُدرك الأزمات بوعي تاريخي عميق، وليس من منظور جغرافي بحت، فالصين تمثل صيغة تاريخية بحتة، بينما تُعتبر بريطانيا كيانًا جغرافيًا.

لكننا هنا أمام موضوع آخر، وفي المجمل، لا بد من الإشارة إلى أن ظروف التدوين التي أحاطت بعصور التوثيق التراثي في الصين كانت تضع نصوصًا مكتملة، لكنها أيضًا نصوص متحركة، لا تنحصر في أُطُر تصنيفية محددة. نجد شيئًا من فن الحرب في كتاب الطاو، الذي يعد مدونة فلسفية بامتياز، كما نجد فصولًا كاملة من كتاب منشيوس في «حدائق الكلمات» للمؤرخ الأديب «ليو شيانغ». وفي كتاب سونبين أيضًا اقتباسات موسعة من كتاب «أوتسي»، ومعظم هذه الكتب تُعتبر مؤلفات جماعية، إذ وُضعت بأيدٍ غير معروفة، لتصبح كل نصوصها انعكاسًا للواقع الطبيعي والتاريخي للصين.

هذه الكتب تمثل جزءًا لا يتجزأ من هوية وطنها الثقافي، وتمتد عبر الزمن في حركة عمودية، ومن خلال تنوعها بين أقاليم مختلفة. تتناغم حول تصورات تعكس خصائص كل منطقة، رغم أن هذه الخصائص قد تحيط بها بأسوار عالية، كالسور العظيم. لكنها في النهاية ليست سوى حدود وهمية، تخلي مكانها لمتشابكات التاريخ الكبرى. لذا، قد نكون أمام نص واحد في التراث الصيني، ولكن من الجلي أننا لسنا أمام نص واحد بأي حال.

وقد أدرك المترجمون اليابانيون هذه السمة، فحرصوا على نقل مجموعات من الكتب التي تتناول موضوعات معينة. في السياق العسكري، نجد أن كتابًا مثل «ويلياو تسي» قد استحق ثلاثين ترجمة، مما يبرز عمق الوعي بأهمية هذه النصوص. من هنا، أرى أنه سيكون من المجدي أن نعرض على القراء العرب أكثر من كتاب في فنون الحرب الصينية (فهذا الكتاب الذي بين أيديكم هو بداية لمشروع ترجمة الكتب السبعة الرئيسية في هذا المجال)، ليس فقط لأهميتها بالنسبة للدارس المتخصص في تاريخ الفكر العسكري، ولكن أيضًا للقارئ الذي يطمح لفهم الثقافة الصينية الغنية، وأيضًا الكتلة الحضارية الكبرى في منطقة أقصى شرق آسيا، حيث يُعتبر التراث الصيني حجر الزاوية الذي يؤثر بقوة ووضوح في اليابان وكوريا وغيرها من الثقافات.

أما عن كتاب سونبين في فن الحرب، فإنه يقف على ضفاف المعرفة، لكنه لا يرتقي إلى عظمة سلفه الأسطوري سونزي. فقد طُمرت نسخته الأصلية تمامًا في غياهب الزمان، لا سيما في أواخر عصر أسرة هان الشرقية (٢٥–٢٢٠م)، مما أضفى غموضًا على شخصية سونبين في الأذهان؛ حيث اعتقد كثيرون أنه قد يكون مجرد

كائن خيالي، وعمد بعضهم إلى إلحاق اسمه بسونزي، كما لو كان هذا اللقب علامة على توحدهما في كتاب واحد مُعنوَن بـ«فن الحرب»، منسوبًا إلى سونزي فقط، مما أسفر عن مصادرة فكرة وجود سونبين وكتابه.

لكن، في السابع من فبراير عام ١٩٧٢م، كانت المفاجأة تتجلى في حفائر «شاندونغ» بالصين، حيث عُثر على نسخة من كتاب «فن الحرب لسونبين»، مؤلفة من ثلاثمائة وأربع وستين قطعة من رقائق الخيزران، مُقسَّمة إلى بابين رئيسيين يشتمل كل منهما على خمسة عشر فصلًا. ورغم ذلك، لم ينجُ هذا الكتاب من الغموض والريبة، حيث تفجَّرت حوله مزاعم تُثير الشكوك حول صحته، فتقوَّل البعض بأن الباب الثاني مُقحم على المتن، وآخرون اعتقدوا أنه جزء هامشي أو فصل زائد مأخوذ من نص آخر، مُدَّعين أن هذا الفصل لا يلتزم بقواعد البناء نفسها، إذ كان يُستهل في الفصول الأخرى بعبارات مثل: «قال سونبين: ...» أو «قال ملك وي.«... :

لم يكن لهذا الجدل أن يمر دون أثر، فقد استجابت دوائر علمية لهذا الضجيج، وأسفرت جهودها عن إصدار طبعة منقحة في عام

١٩٨٥م، أُزيل فيها الجزء الثاني برمته، باستثناء فصل واحد اعتُبر مُوثقًا. ومع مرور السنوات، توالت الإصدارات الجديدة على هذا النهج، بينما أصرَّت بعض دور النشر على تقديم الجزءين معًا، مُعتبرة أن الجهود الأثرية تبرهن على وجود النص بكامله.

إنني، ككاتب ومترجم، أرى أنه من حق القارئ العربي أن يطالع نصًا يضم بين دفتيه كلتا الجزئين، لأن تعدد المدارس النقدية المتعلقة بتحقيق التراث الصيني لا يُعفي من ضرورة توضيح أسباب استبعاد جزء كامل من نص بهذا القدر من الأهمية. ورغم أنه كان بإمكاني إدراج هذا الجزء في الهوامش، فإنني عدلت عن ذلك، لأن بعض دور النشر الصينية سبقت إلى دمج ذلك الجزء ضمن النص الأصلي، إذ يُعتبر ذلك سلوكًا يُعبِّر عن احترام النص.

إنّ دوري كمترجم يستلزم مني أن ألتزم بدقة النص الأصلي، دون أن أتحول إلى مُتصرِّف أو مُفسِّر. وفيما كنت أؤكد على أهمية الالتزام بحدود النقل، فإنني أسعى لأن أكون ناقلًا أمينًا، مُكرسًا جهودي لنقل النص كما هو، مُتمسكًا بأمانته، على الرغم من أنه قد يكون هناك من المترجمين من يحملون حق التصرف بحكم تخصصهم. لذا، أجد أنه

من الأجدر أن نترك للنص إمكانية التنفس في فراغه الخاص، مُدعِمًا بذلك الحق في معرفة مكوناته.

وعمومًا، فإن روح النقل المباشر قد استبدَّت بي، حتى إنني، ولا أدري إن كان ذلك ذا فائدة، حرصت على ترجمة بعض الفقرات القليلة التي وُجدت منثورة بين ثنايا الفصول، دون أن تكون جزءًا مكملًا للمتن. ولم يترجمها المحققون إلى الصينية الحديثة (التي أترجم منها أساسًا)، لذا انطلقت لترجمتها مستندًا إلى ما لحق بها من تعليقات وشروح، فضلًا عن معرفتي الضئيلة بالصينية الكلاسيكية (فهل النسبة إلى «كلاسيك» ممكنة دون لفظ «كلاسي»؟.)

ومفهوم، بالطبع، إحجام المحققين عن ترجمة تلك الفقرات وغيرها، بل إن فهمي لمجهودات الكثير من الطبعات التي حذفت فقرات مطوَّلة أو أبوابًا كاملة يُعد أمرًا واضحًا، إذ يُجمع النقاد والدارسون على أن العديد من نصوص كتاب فن الحرب لسونبين قد تم تدوينها على يد تلاميذه. ويتفق الجميع على هذه النقطة، إلا أن الاختلاف يظهر في تقدير الوقت أو الفترة الزمنية التي شهدت تلك الإضافات.

يحمل النص ذاته سمات فكر سونبين، المنحاز بطبيعته إلى الفلسفة الكونفوشية، حيث يُطرح وجهات نظره من زاوية مراعاة مبادئ «العدل والاستقامة»، كما أقرَّتها هذه الفلسفة. ولأنه يُعد فيلسوفًا سياسيًا أكثر منه مفكرًا عسكريًا، فإنه يؤكد أن «الانتصار هو الركيزة الأهم للقوة والمجد» (مجد الدولة)، ثم يقترح في موضع آخر أن الحرب وسيلة لتحقيق وحدة الأمة، لأنها الطريقة المثلى لإخضاع الممالك. لكنه سرعان ما يُدرك ما تنطوي عليه الحرب من سلبيات تعيقها عن إيجاد حلول فعالة لمختلف المشكلات، فيوصي القادة والأباطرة بضرورة التعمق في فهم ما تمثله الحرب من وسيلة حاسمة لتحقيق السيادة للممالك.

وقد تطرق عدد من النقاد، أثناء عكوفهم على استكشاف الخصائص الفكرية والفلسفية لنصوص الكتاب، إلى فكرة أن سونبين، في مواضع متفرقة من كتابه، تناول، بطريقة بدائية أو جنينية، ملامح قريبة الشبه بالمادية الجدلية، أو بالأحرى مضامين جدلية لم تتبلور بعد. إذ يقرر، في أحد المواضع، أنه «لا بد من فهم طرق السماء وطبائع الأرض، وضمان تأييد الأهالي في الداخل، والتأثير في مشاعر

الأعداء في الخارج، والإلمام بالطرق الثمانية، بما يحقق النصر وقت الحرب، والاستقرار زمن السلم.«...

وفي تناوله لفكرة أهمية الهجوم، ضمن سياق محدد أثناء عرض أفكاره في الكتاب، يتقدم سونبين خطوات أبعد وأكثر تطورًا مما طرحه الفيلسوف العسكري الأول سونزي؛ حيث يؤكد على أهمية الهجوم بشكل مطلق، ويخصص لهذه الفكرة مكانة بارزة في فلسفته، مُعتبرًا إياها الأساس النظري والمبدأ الأول وأهم ركن في أي بناء فكري لفن القتال. وهنا تختلف رؤيته عن الكتاب الأصلي (فن الحرب لسونزي) بما يُحقق طفرة في مستوى هذا الطرح النظري.

إن ما يقدمه سونبين في كتابه يمثل تجميعًا فريدًا لتجارب تاريخية غنية بالأهمية، مستندًا إلى خوضه شخصيًا غمار المعارك. ففي فصل بعنوان "أحوال الجيش"، يستكشف أسباب النصر والهزيمة، مؤكدًا أن الحرب ليست الوسيلة الوحيدة التي يُعتمد عليها، ولا يمكن الاستغناء عنها تمامًا. بل إن العوامل التي تحدد النصر أو الهزيمة تكمن في مدى توافر الاحتياطي والمؤن، فضلًا عن عدالة القضية التي يُحارب من أجلها.

وفي فصل "التشكيلات القتالية العشرة"، يسلط الضوء على أهمية الاستعداد القتالي، مشرحًا بأنماط متنوعة من التشكيلات التي تُستخدم في ساحة المعركة. ومع ما اقتضته ظروف عصر الدول المتحاربة من ضرورة وجود قادة محترفين على رأس الجيوش، أصبحت معايير اختيار القادة محط اهتمام بالغ. لذا، يعكف سونبين في بعض فصول كتابه على توضيح الصفات الأساسية التي ينبغي أن يتحلى بها القادة العسكريون.

أما فيما يتعلق بترجمة الكتاب إلى العربية، فقد حرصت، كعادتي، على البحث عن نصوص محققة متعددة في البداية. كما سعت للوقوف على ترجمات إنجليزية أو فرنسية للتعرف على كيفية تعاطي المترجمين مع النص، نظرًا للوعي العميق الذي يحمله الدارسون في كلا الثقافتين تجاه التراث الصيني. فثمة مدارس أوروبية وأمريكية في مجال الدراسات الصينية، لكل منها سماتها الخاصة وتاريخها الطويل، ومن المستحيل تجاهل جهودها القيمة.

ولم أكتفِ بذلك، بل راجعت أيضًا أية ترجمات سابقة صدرت حول الكتاب، سواء كانت مباشرة عن النص الصيني أو عبر لغة

وسيطة. وقد أسفرت خطواتي الأولى عن وجود ثلاثة مصادر محققة لهذا النص بالصينية، إلا أنني لم أعثر على ترجمة له في الإنجليزية أو الفرنسية، ولا على ترجمة سابقة في العربية.

ومع تزايد النسخ المتاحة التي تتجاهل ذكر الباب الثاني من الكتاب بدعوى أنه لا ينتمي إلى الأصل، صادفت، من حسن حظي، نصًا وحيدًا من بين الثلاثة يحتوي على كلا الجزءين معًا، فضلاً عن بضع فقرات مُضافة في الهامش، قيل إنها وُجدت في النصوص بالشكل الذي اكتشفته به بعثة الآثار عام 1972م. فاعتمدت هذا النص كمرجع أساسي للترجمة، واستعنت ببقية النسخ كمصادر ثانوية للتحقق من أي تفاصيل أو لتوضيح الأمور عند الحاجة. وفي سياق التوثيق، أود أن أنقل للقارئ فقرة من مقدمة الناشر، تسلط الضوء على أحوال النسخة المعتمدة للترجمة كما يشهد بها أهل الاختصاص.

•أولًا: صدرت هذه الطبعة بعد جهد مضنٍ قامت به مجموعة (يين شياو سان هان مو) في ضبط وتحقيق النص الأصلي المدون على رقائق الخيزران، مُتخذة من النسخة الصادرة عام 1985 عن دار نشر «أون وو» مرجعًا أصليًّا، وسيُشار إليها فيما بعد بـ "المرجع الأصلي".

وقد تم أيضًا الرجوع إلى مجموعة من النصوص الأخرى التي تُعزز هذا العمل وتثريه.

•ثانيًا: بالإضافة إلى ذلك، تمت الإضافة من النسخة الصادرة عام 1987 عن الدار المذكورة، التي تضم نصوصًا كمُلحق طبق الأصل، يتضمن هوامش موجزة تحتوي على الفصول الخمسة عشر التابعة للباب الثاني. انتهى الاقتباس.

ولم أُدخِل الإشارة إلى النسخ الثلاث بشكل مستقل، مكتفيًا بما تُقدِّمه من فوائد كمرجع للترجمة، إذ تسلط الضوء على جوانب خفية من المعنى. وأعد القارئ بأنني سأبذل جهدًا لإلحاق صورة وثائقية تظهر بيانات تلك الكتب الثلاثة، وذلك أفضل من مجرد كتابة عناوينها بحروف لاتينية أو الاكتفاء بتوثيقها المرجعي. ولكن ذلك يتوقف على ما تتيحه الإمكانات الفنية لإخراج الكتاب.

ومن جهة أخرى، أحرص على تجنب الإحالات المستمرة إلى هوامش ملحقة تتعلق بعجز الكتب أو بقاعدة الصفحة. صحيح أنني أقدم الترجمة للمتخصصين وذوي الاهتمام بالدراسات الصينية القديمة، لكنني حين أقدم هذا النص للجمهور، اعتمدت على النص

الأصلي كقاعدة أساسية للقراءة، حيث يحتوي على كل ما يتصل بالمعنى العام، سواء كان بشكل رئيسي أو هامشي. وضعت بين قوسين هلاليين (...) ما يتعلق بالمتن بشكل مباشر، كأن تكون هناك صياغة محتملة أو توضيح من الشروح المصاحبة، أو إضافة من إحدى النسخ المحققة، رأيت إلحاقها على سبيل الاستطراد.

ثم أضفت بين قوسين مربعين [...] هوامش جانبية تتعلق بما قد ينشأ من ثغرات تتطلب التعريف بأحد الأعلام أو إضافة إشارات توضيحية موجزة، بغرض التعريف والاستزادة، دون أن تكون سندًا ثابتًا متضمنًا في تركيب المعاني العامة للكتاب، لكنها إضافات من المترجم، يمكن للقارئ الباحث عن الأفكار الرئيسة في النص تجاوزها دون الإخلال بتدفق السياق.

سيجد القارئ أنني وضعت بين قوسين مربعين كلمة "فراغ" أو "فراغ في الأصل"، إشارة إلى البياض الذي ورد في النص الأصلي. ونظرًا للاختلافات في استخدام بعض علامات الترقيم بين اللغة الصينية والعربية، حيث يظهر البياض في النص الصيني برسم ست نقاط متتالية، فقد أوردت مكان الفراغ مصحوبًا بلفظه أو ما في معناه، علمًا

بأن النص مليء بمثل تلك الفجوات، وهو نقص لا حيلة للمحققين في إصلاحه، ولا للمراجعين في سد خلله؛ لأنه جزء أصيل من حالة النص المكتشف عند العثور عليه، لم تتدخل فيه يد العبث أو الإهمال، وإنما هو عوار نشأ عن تقادم السنين. ومن بين تلك الفجوات، ما أمكن للمحققين تقدير معناه، فأوردته مترجمًا مع الإشارة إليه في موضعه، مع ملاحظة أن مكان الفراغ قد يتراوح بين الكلمة المفردة أو الجملة أو العبارة القصيرة، دون إشارة واضحة إلى تلك الفروق عند إيراد خانة الفراغ سواء في النص الأصلي أو المترجم. وقد اكتفى الناشر بتوضيح ذلك الجانب، إذ جاء في ملحق الكتاب صورة منقولة عن شرائح الخيزران التي ورد عليها النص الأصلي في النسخة المكتشفة.

وسأسعى، إن أمكن، إلى نقل هذا الملحق في النسخة المترجمة، بحسب ما تسمح به الإمكانات الفنية في إخراج الكتاب. ويُشار إلى أنه قد اقتضتني الضرورة إلى الترجمة التفسيرية في الفصل الثامن المعنون "أهمية أرض العمليات"، بسبب كثرة الأسماء التي تتعلق بنباتات عشبية تنتمي إلى فصائل وأنواع ليست مألوفة في البيئة العربية. لذا، قمت بترجمة شارحة للمعنى، حرصًا على أن يكون المكافئ دقيقًا في تقدير قيمة الترجمة، دون أي خلل أو نقصان.

لماذا نترجم هذا الكتاب، ولماذا نختار هذا الوقت بالذات؟ الأسباب تتنوع بين ما هو عام وما هو شخصي، لذا سأبدأ بالأسباب العامة، ثم أترك لك النص لتنغمس فيه مباشرة دون أن تشغل نفسك برابط قد يبدو غير وثيق بموضوع الترجمة.

على صعيد الأسباب العامة، يُعد هذا الكتاب جزءًا من التراث العسكري، ينتمي إلى مجموعة من النصوص القديمة التي تضفي طابعًا فريدًا على المكتبة التاريخية، حتى ضمن المدونات الصينية. إنه ليس مجرد نص عابر، بل هو جزء لا يتجزأ من تاريخ الفكر الإنساني، ويمثل تراثًا ثقافيًا يعود للبشرية جمعاء. كتب الحرب الصينية تتجاوز بكثير مفاهيم الصراع المسلح، إذ تحمل في طياتها دلالات إنسانية عميقة، تفتح أبوابًا على مجالات متنوعة من التنافس والصراع، تشمل كل ما يرتبط بنوازع الإنسان نحو التفوق والهيمنة، حتى في سياقات السلم. فهي تتناول التجارة والدبلوماسية وإدارة الأعمال، بل تمتد إلى الرياضة والمنافسات السياسية، حيث تتجلى روح المنافسة بأساليب شتى تتماهى مع أساليب القتال، ولكن عبر آليات أخرى.

أجد نفسي مختلفًا مع أولئك الذين يقتصرون على تقدير الكتاب من منظور عسكري بحت، دون أن ينظروا إلى ما يحتويه من عناصر فلسفية وثقافية تعزز من قيمته التراثية. بالإضافة إلى كونه وثيقة تاريخية تروي جزءًا من تاريخ الفكر الصيني، فإنه أيضًا يعكس رؤية أوسع للوعي الإنساني، وهذا الوعي بات مهمًا اليوم، خاصة ونحن على عتبة عصر جديد يتسع فيه الأفق الثقافي نحو فضاءات الإبداع في أقصى شرق آسيا. إن انفتاحًا جديدًا، حتى بالمعنى الأنطولوجي، يضاف إلى رصيد الوعي الإنساني، مما يجعل من الضروري تمكين القارئ العربي من التعرف على مصادر التراث الصيني، مترجمةً عن أصولها كلما أمكن ذلك.

أما في ما يتعلق بالدافع الشخصي وراء هذا الكتاب، فهو لا ينفصل كثيرًا عن السياق العام. إذ آمل من خلال هذه الترجمات أن أساهم، ولو بقدر يسير، في تمهيد الطريق لتأسيس مدرسة فكرية عربية تعنى بالدراسات الصينية. كما بدأ الأوروبيون مشروعهم بالاهتمام بترجمة التراث الصيني منذ القرن السابع عشر، أُحاول أن أقتفي أثرهم، رغم شعوري المتواصل بالخجل حين أمد قلمي لترجمة موضوعات تتنوع

بين حقول متعددة، من الفن العسكري إلى الفلسفة والرواية والتاريخ والشعر.

هذا التنوع في الموضوعات يثير في نفسي بعض الإحراج، إذ أجد نفسي أحيانًا كأحد باعة الحرف في الأزقة، الذين يمتلكون القدرة على كل صنعة، محملين بأدواتهم السحرية. ورغم وجود من يجرؤون على ترجمة كافة مجالات الإبداع، بل حتى ما هو غير إبداعي، من الفلسفة إلى الأدب والسياسة، فإنني أعلم أن مفهوم المترجم قد تأثر بممارسات تاريخية، إذ اعتبروا وسطاء بين الثقافات، يمتلكون بعض مظاهر السلطة في تفسير اللغات المختلفة.

لكن الحق يقال، إن الترجمة ليست مجرد ممارسة لأغراض السحر، بل هي إعادة صياغة للمعاني والأفكار. وبالرغم من أنها لا تُسهم في ابتكار الأفكار، فهي تواجه تحديات جمة، تجعل التخصص أمرًا بالغ الأهمية. إن التخصص ليس مجرد خيار، بل هو واجب يفرض على المترجمين، يتطلب منهم التواضع أمام طبيعة العصر الذي يفرض ضرورة التخصص، وهو ما ينبغي أن يكون جزءًا من الوعي الثقافي الراهن.

لقد أتى حين من الزمن يبدو فيه أن الترجمة، سواء المباشرة أو الضمنية، قد تناوبت على تشكيل نسيج ثقافي تأثر بمشاريع النهضة في المستعمرات القديمة. كانت تلك المشاريع تعتمد على الترجمة كجزء أساسي من برامج التحديث الثقافي، ومع ذلك، ظل جزء من تراثنا الثقافي القديم ثابتًا، متشبثًا بالبقاء بعناد. لكننا اليوم نعيش في زمن مختلف، حيث يعي القارئ مشهدًا يطغى عليه الانحصار في أطر محددة، يتجه فيه عالم التأملات نحو صور مربعة لا تقبل تعددية التعبير. في خضم هذا، يمارس الكثيرون فن الترجمة خارج أوقات العمل الرسمية، إذ يظل المبدع، الشاعر والمترجم، يجسد صراعًا فنيًا في البحث عن الخلق، حيث يختلط الأسطوري بالواقع.

إن الغريب في الأمر أن الشيخ الطهطاوي، في بداية مشروع التحديث، كان يعبر عن مفهوم التخصص في الترجمة. فلم يكن المترجم العسكري يتعدى نطاق اصطلاحاته، بل إن الشيخ رفاعة نفسه لم يترجم سوى رواية واحدة، ويبدو من مراجعة أوراقه الخاصة المودعة في دار الوثائق القومية بالقاهرة أنه لم يترجمها للجمهور، بل كانت مواساة له في أوقات الأزمات النفسية. ومع ذلك، فإن هذه القصة بعيدة عن صلب موضوعنا.

وإذا كان تلاميذ الشيخ قد التزموا حدود إبداعهم في الموضوعات العسكرية، مستندين إلى طرق معالجة المفاهيم العميقة في تخصصاتهم، فإنني، كأحد أحفاد تلامذته، أخرج عن تلك القاعدة، من خلال ترجمتي للرواية والفلسفة والسياسة ونظريات الحرب من التراث الصيني. ورغم أنني لم أستطع أن أُرث انضباط الألسن القديمة، فقد ورثت شيئًا من أزمة الشيخ التي كادت تعصف به، رغم أنني أنتمي إلى زمن مختلف.

لقد نشأت في وقت لم تنفتح فيه إدراكي على العالم إلا من خلال مشهد الحرب. كما هاجرت، على غرار سونبين، بين البلدان، محمولًا ضمن قافلة المهجرين الذين تركوا مدينة القناة المشتعلة تحت القصف في الخامس من يونيو. وما زالت صورة تلك الأجواء تحفر في ذاكرتي، كأنها علامة أبدية لا تُمحى. لطالما كانت لي ذكريات الحرب منذ طفولتي، حين كان والدي، الضابط المحارب، يحكي عن تلك المسيرة الليلية الطويلة من "الكنتلة" إلى "بير لحفن"، ثم عبر درب غامض في صحراء سيناء، حتى بلغ "القنطرة شرق"، بعد أن أُعلنت وفاته لمدة ثلاثين يومًا إثر معركة العدوان الثلاثي على مصر، وهو حدث علق في ذاكرتنا كحزن عائلي.

عشت سنوات مضت، وعاد والدي من حروب أخرى، وقد روى لي وقائع المعارك التي خاضها، حتى ظننت أن كل الحكايا تتضمن، بالضرورة، سيرة حرب. وفي سنوات دراستي الجامعية، التقيت بالدكتور يانغ شي تشيوان، الذي أدين له بالعمر كله، فقد كان شاهدًا عيانًا على سنوات الحرب، الحرب الكورية، وقد نقل لي تجربته كاملة. من خلاله، تعرفت على تراث الحرب الصيني، وأبطال الملاحم القديمة، مثل تصو ساو، وجو كي ليانغ، وأوسونغ، وأدركت كيف تصنع الحرب التاريخ، وتجعل من التجربة شيئًا يستحق التأمل.

لقد عشت سنوات تحت تأثير تلك التجارب، حتى شعرت أنني عشت أكثر من عمري. ورغم تقلبات الزمان، فإنني لم أعيش سوى تلك الأيام. "لم يكن سهلًا أن يعيش المرء بعد الحرب"، كما قال والدي، وغالبًا ما كان يقطع حديثه ليخرج لفافة قديمة تحمل بقايا شظايا وقطعة من عظام مكسورة. روى كيف استطاع الأطباء استخراج تلك الشظايا من ساعده الأيسر، ذلك الساعد الذي تشوهت ملامحه لكنه استمر في الحركة، رافضًا القمصان طويلة الأكمام، وقد ورثت تلك الحساسية حتى الآن.

ظل الرجل، بين الحين والآخر، يتحسس شظية متبقية في كتفه الأيسر، غائرة لكنها محسوسة. "أنظر، لن تراها، لكن بضغطة خفيفة ستشعر بها"، كان يقول. لقد تحدثنا عن عمر بأسره، وفي إحدى المرات، استرسل غاضبًا لأني أسلك طريقًا لا يراه سديدًا. كانت تلك المرة الأخيرة التي تكلمنا فيها، وانفصلنا غاضبين، ثم جاء الفراق. مرت ثلاث سنوات، وأغلق دفتر تلك الذكريات، وبقيت آثار الشظايا غصة غائرة. انظر، هذه أيضًا آلام مؤلمة، لا تتكئ كثيرًا، فإن مجرد انتباهة خفيفة قد تكفي لإيقاظ الألم.

أنت الآن، رحلت سيدي، ولم يعد يؤلمك شيء، وانتهت كل الحكايات، وتناثرت آثار الشظايا وراء السنين. لقد تحدثت طويلًا، ولم أستمع إليك، وعندما انتبهت، كنت قد ذهبت. هكذا تمضي الحرب، تسجل ذكرياتها على هامش ساحات الصراع. لقد أردت منا أن نكتب معًا تاريخ تلك الأيام، وكنت قد أملَيتَ عليَّ شطرًا، ثم أطبق الصمت، ولم يعد هناك سوى الأوراق الذابلة، ولفافات تحمل آلام الماضي. لذا، أُهدي إليك ترجمة هذا الكتاب.

الفصل الأول

القبض على القائد بانشيوان[1]

كان الملك "هوي"، حاكم دولة "وي"، يتهيأ في عصور ماضية، لشن هجومٍ على مدينة "هاندان"، عاصمة دولة "جاو". لذا، أصدر أمرًا إلى القائد بانشيوان، بأن يتقدم بجيشٍ قوامه ثمانون ألف مقاتل، ليتخذ موقعه في منطقة "شا تشيو". ولما بلغ هذا الخبر الملك "وي"، حاكم دولة "تشي"، أرسل القائد "تيانجي" على رأس جيشٍ من

[1] يتناول هذا الفصل جانبًا من وقائع معركة «قويلين»، حيث يعرض لجانب من الخطط الآتية: «تجنب مكامن قوة العدو مع استغلال نقاط ضعفه»، «التظاهر بالغفلة وعدم إدراك الجانب الصحيح من الأمور»، «إثارة الشكوك لدى العدو»، وغيرها من الوسائل التي قصد بها استدراج القائد بانشيوان لتنطلي عليه الحيلة ويقع في الأسر، وعندئذٍ، يتم العمل بمقتضى الخطة الثانية، ومفادها «الركون إلى الراحة ريثما يستنفد العدو طاقته، ثم يتم التغلُّب عليه عَبْر ثغرات أخطائه ومثالبه»، وهي الخطة التي كان لها أكبر الأثر في هزيمة قوات دولة «وي» [إحدى الدويلات الصينية القديمة]. وقد وجد هذا العنوان على ظهر أحد أعواد البامبو المنقوش عليها نص الكتاب في نسخته المكتشفة في الحفائر الأثرية.

نفس العدد، ثمانين ألفًا، ليحرس الحدود بين دولتي "وي" و"تشي"، دعمًا لدولة "جاو."

وفي تلك الأثناء، كانت قوات دولة "وي"، تحت قيادة بانشيوان، قد اجتاحت واحتلت مدينة "ويشيو"، عاصمة دولة "ويه". ولما رأى تيانجي، القائد العام لقوات "تشي"، الفرصة سانحة، حاول استغلال الموقف لشن هجومٍ على "جاو"، آملًا أن يتمكن من صد الاعتداءات على دولتي "ويه" و"جاو". فتوجه إلى "سونبين" يسأله: "ألا يمكننا مساعدة دولة "ويه"؟"

فأجابه سونبين بلغة حذرة: "إن محاولة إنقاذ دولة "ويه" تُعتبر انتهاكًا لمبادئ الحرب. اعلم أنه لا يجوز لمن يبدأ بحل تعقيدات صراعاتٍ متشابكة أن يتصرف بتهور، وإلا زاد الأمور تعقيدًا. كما لا ينبغي لمن يسعى لفض النزاع بين طرفين متحاربين أن يغوص بيده في خضم المعركة، وإلا فقد ينجرف في ما كان عليه أن يتجنبه."

ثم واصل حديثه: "لذا، أرى أن عليك تجنب نقاط القوة الواضحة في عدوك، لتستغل مواطن ضعفه. انطلق حيث تشاء لإنقاذ الموقف،

فتلك هي الطريقة التي تلزم العدو على تغيير خططه، وقد تفيد في تفكيك أزمة "جاو" وصد الهجوم المباغت عليها."

فسأل تيانجي: "فما العمل، إذن، بدلاً من التحرك مباشرةً لإنقاذ "ويه" و"جاو"؟"

أجاب سونبين: "توجه بجيشك إلى منطقة "بينلين" في الجنوب، تلك الأرض التي تمتاز بكثافة السكان وجودة التسليح، رغم ضيق مساحتها. إنها إحدى القواعد العسكرية البارزة في إقليم "دونيان"، حيث تكتسب موقعًا منيعًا يصعب اقتحامه. إنني أهدف من وراء ذلك إلى أن تضلل عدوك، فتجعله يظن أنك غير مدرك لمخاطر تلك المناورة."

"فإن هجومك على هذا الإقليم قد يهدد خطوط إمدادك، ويعوق تدفق المؤن، بسبب موقعك بين دولتَي "ويه" شمالًا و"سونغ" جنوبًا، وبالقرب من مدينة "شا تشيو" التي تفصل بينهما. ولكن من خلال هذه الحيلة، توحي لعدوك بأنك لا تفهم الأمور كما ينبغي، مما يجعله يقيم تقديراته على أنك تُخطئ في الحسابات. وعندئذٍ،

ستتقدم قوات دولة "تشي" نحو "بينلين"، مما يخلق حالة من الارتباك في صفوف العدو، ويمنحك فرصة للسيطرة."

عندما اقتربت جحافل دولة "تشي" من منطقة "بينلين"، استدعى القائد تيانجي مستشاره سونبين، مستفسرًا: "ما الذي تقترح فعله في الخطوة التالية؟ كيف ترى مسار الحرب بين قواتنا والقوات المعادية؟"

فرد عليه سونبين برؤية متبصرة: "أود أن أستفسر منك، أولاً، عما إذا كان هناك أي من رؤساء المدن الذين يمكن أن يسهموا في إنجاح خطتنا؟"

أجاب تيانجي بحزم: "نعم، لدينا اثنان من رؤساء المدن، وهما رئيسا مدينتي "تشيجن" و"قاوطان"."

دعا سونبين إلى اتخاذ خطوات جريئة: "أرسلهم على عجل مع جيشين عظيمين ليهاجموا "بينلين"، بحيث تقوم إحداهما بحصار مدينة "هوانتو"، بينما تتنقل الأخرى بخفة وسرعة لتضرب "بينلين" بقوة. يجب أن تكون جوانب القوة ومؤخرتها مواجهتين لمدينة "هوانتو"، كونها قاعدة تمركز قوات العدو".

وتابع سونبين: "علينا أن نأخذ في الاعتبار أن قواتنا ستعبر عبر مدينتي "هوانغ" و"جيوان"، وهما تتمتعان بأرض سهلية وطرق متعددة. إنهما المكان المثالي لنشر القوة العسكرية. من الضروري أن تحافظ الطليعة على قدرتها القتالية العالية، وأن تتجنب تشرذم وحداتها الأساسية. ينبغي أن تهاجم "بينلين" بأسرع ما يمكن، مع تعزيز القوات بشكل مستمر. لكن، عليك أن تكون واعيًا بأن قوات دولة "وي"، المتمركزة في "هوانتو" تحت قيادة "تسوانتو"، لن تتردد في قضم مؤخرة قواتك لقطع إمدادات الحبوب، مما قد يؤدي إلى هزيمة القوات التي يقودها رئيسا "تشيجن" و"قاوطان"."

ما لبث تيانجي أن جعل كل رئيس مدينة على رأس جيش، مُفوضًا إليهم مهمة الهجوم على "بينلين". تقدمت القوات في تشكيل متوازن، واندفعت نحو المدينة بأسوارها العالية. غير أن قادة العدو من المنطقتين "شياتيه" و"هوانتو" شنوا هجومًا مفاجئًا على مؤخرة الجيشين، فأوقعوا بهما هزيمة ساحقة كما توقع سونبين، واضطرت القوات إلى التراجع المذل.

استدعى تيانجي سونبين مرة أخرى، واعتلت وجهه ملامح القلق: "لقد فشل هجومنا على "بينلين"، وقد قُتل قائدانا أثناء محاولة الاقتحام، كما تعرضت قواتهما لأضرار جسيمة. فما السبيل إلى الخلاص الآن؟"

أجابه سونبين برؤية ثاقبة: "أرى أنه يجب عليك الدفع بقوات خفيفة الحركة نحو الغرب، لضرب مشارف مدينة "طاليان"، عاصمة دولة "وي"، وذلك لإثارة غضب العدو. ولكن، كن حريصًا على تقليل أعداد القوات الموكلة لهذه المهمة، حتى توحي لأعدائك بأن ما تبقى من قواتك ضئيل. مع ذلك، يجب أن تبقى الوحدات الرئيسية مرابطة في منطقة "قويلين"، لتباغت أعداءك في المعركة القادمة مع دولة "وي"."

وبالفعل، أخذ تيانجي بهذا الاقتراح الذي قدمه سونبين، متمسكًا برؤية استراتيجية تضمن له تحقيق النصر في معاركه القادمة.

ثارت حماسة بانشيوان للدفاع عن مدينة طاليان، مما دفعه إلى التخلي عن كميات كبيرة من المؤن والعتاد، فاندفع مسرعًا بلا هوادة نحو العاصمة المستهدفة. في هذه الأثناء، تحرك سونبين، مصحوبًا

بالقائد تيانجي، بكل سرعة ودون أن يُعطي قواته فرصة للراحة أو التقاط الأنفاس. هاجموا قوات دولة وي عند مشارف العاصمة طاليان، وتمكنوا من أسر القائد بانشيوان حيًّا. وقد أُشير إلى أن خطة سونبين في خوض تلك المعركة كانت تتسم بالإتقان والروعة، حيث استغل كل عنصر من عناصر القوة في سبيل تحقيق النصر.

لقاء مع الملك وي

عندما التقى سونبين بالملك وي، حاكم دولة تشي، قال له باحترام: "يا مولاي، لا ينبغي أن تكون الحرب هي الحل الدائم في مملكة يسعى أهلها للسلام. اعلم أن هذا الرأي ليس من اختراعي، بل هو خلاصة تجارب الأباطرة عبر الزمن، الذين أدركوا أن النصر الذي يحققه القتال لا يدوم، وأن الخسارة تعني الاستسلام أمام الأعداء، وترك الأوطان فريسة لمخاطر تهدد وجودها. لذا، فالحرب ليست مجرد معركة، بل هي موضوع يستحق تأملاً عميقًا".

ومنذ العصور السالفة وحتى عصرنا هذا، كان المغامرون في ميدان القتال هم من جلبوا الدمار على أوطانهم، والساعون وراء النصر دون

تفكير هم من ذاقوا طعم الخزي والعار. إن دفع القوات إلى الحرب ليس فعلًا عبثيًا، والسعي للنصر لا يمكن أن يكون أملًا أعمى. إن الشيء الوحيد الذي يجلب نفعًا حقيقيًا هو الاستعداد التام للحرب قبل البدء بأي تحركات، مما يضمن تحقيق الانتصار. يمكن لمدينة صغيرة أن تصمد أمام الأعاصير، ليس لكونها تتفوق عددًا، بل لأنها تعتمد على موارد غنية، مدعومة باستعداد دائم. ونفهم كذلك كيف يمكن لقلة من الجنود أن يقاتلوا بإصرار وثبات، فقط لأنهم يناضلون من أجل قضية عادلة. لن يثبت في القتال من يظن أنه يستطيع المثابرة دون دعم أو مؤن، ولن يحقق انتصارًا في حرب غير عادلة.

وأذكر لجلالتك مثالًا من سيرة الأباطرة القدماء، فعندما تولى الإمبراطور "ياو" الحكم، قامت سبع قبائل بالعصيان، رافضةً الخضوع لسلطته. اثنتان من تلك القبائل كانت في الشرق، بينما الأربع الأخرى في المنطقة الوسطى. اتجه الإمبراطور نحو المناطق البعيدة قرب الساحل، مما أدى إلى استسلام الأقاليم الشمالية دون قتال. ثم قام بمهاجمة أحد كبار زعماء القبائل المتمردة، المدعو "قون كونغ"، مما أغناه عن إعلان الحرب على الآخرين، وبقي جيشه خاليًا من أعباء القتال لسنوات.

ومع مرور الزمن، أدرك الإمبراطور شيخوخته، فسلم الحكم للإمبراطور "يوشون"، الذي هاجم القبائل المتمردة تحت قيادة "هواندو"، وقبض عليه ونفاه إلى منطقة نائية تُدعى "تشونشان". ولم يمض وقت طويل حتى شن هجومًا آخر على "قون"، أحد المتمردين، ونفاه إلى "يوشان". كما غزا تجمعات القبائل في "سان مياو"، وطارد فلولها حتى إقليم "سانوي"، وواجه الخارجين عليه في الوسط من قبيلة "يوخو". لكن بعض الناجين من قبيلة "سان مياو" اتحدوا، وزادت قوتهم وثباتهم.

ثم جاء الإمبراطور يوشون ليعاني من شيخوخته، فسلّم السلطة لابنه الملك "شيا يو"، الذي مهد الطرق عبر المناطق الوسطى، وأزال الأعشاب البرية والغابات الكثيفة لاستصلاح الأرض. وطارد قبائل "سان مياو" حتى نزحت نحو الغرب. وهكذا، فإن النصر لا يتحقق للقعدين، بل للأقوياء الذين يتجاوزون الاسترخاء والدعة، وتخضع الجموع فقط لمن قهر أعداءه، وأثبت قدرته على التمسك بالسلطة والرسوخ في الحكم.

وممَّا يبرز في صفحات التاريخ البعيد أن الإمبراطور "شينو نغ" خاض معركة طاحنة ضد قبائل "بوسوي"، التي يُعتبَر أنها من أولى المعارك الصينية الموثَّقة. وفي ذات السياق، أحرز الإمبراطور الأصفر، المعروف بـ "هواندي"، نصراً مبهراً على القبائل المتمردة بقيادة "تشيو"، وذلك في معركة "جولو". كما قاد الإمبراطور "ياو" حملة تأديبية ضد قائد المتمردين "قونكونغ"، في حين أغار الملك "شون" على "جوقوان"، وهي قبيلة أو زعيم متمرد.

أما الملك "طانغ"، فقد أزاح الملك "جيه" عن العرش، ونفاه بعيدًا، حيث كان "جيه" آخر ملوك أسرة "شيا" طاغيةً غشومًا. ولم يتوانَ الملك "أو" عن الإغارة على الملك "جو"، آخر حكام أسرة "يين"، حيث خلعه الملك "أو" وأجبره على الانتحار حرقًا. بل إن القون "تشو" قاد قوات مسلَّحة مؤهلة بسلاح وعتاد ليسحق التمرد الذي تردَّد في جنبات دولة "شانيان"، وهو التمرد الذي شجَّع عليه الأمير "أوكن"، سليل أسرة "يين" البائدة، حيث عقد تحالفات مع إمارات مثل "شيو" و"يان" لمواجهة أسرة "جو" الحاكمة.

وبناءً على ما سبق، نستنتج أن أولئك الذين يزعمون أنهم يسعون لتجنب اللجوء إلى القتال هم واهمون في اعتقاداتهم؛ فتصوُّراتهم في هذا الصدد ليست سوى أفكار جوفاء. والأغرب من ذلك، أنهم يرفعون هذا الشعار رغم افتقارهم إلى الحكمة التي امتلكها الأباطرة الخمسة، الذين يستحقون هذا اللقب بجدارة، وعلى رأسهم "الإمبراطور الأصفر"، "ياو"، و"شون."

وإذا كانوا يظنون أنهم سيعتمدون على سياسات إنسانية وتعليمية وأخلاقية تمنع نشوب الحروب من الأساس، فإنهم يجهلون أن الأباطرة والملوك القدماء، مثل "طانغ" و"ياو"، قد ساروا على ذات النهج، ولكن ذلك لم يحل بينهم وبين اللجوء إلى القتال. إذًا، تبقى الحرب وسيلة ضرورية لتسوية الأزمات، ولا مفر منها[2].

[2] جاء في كتاب «سجلات تاريخية» [أقدم وأشهر مدونة تاريخية من العصر القديم] أن القائد تيانجي قام بتقديم سونبين إلى جلالة الملك وي، حاكم دولة تشي، حيث طلب إليه، جلالته، أن يشرح له أفكاره الأساسية في فنون الحرب، ثم ما لبث أن أصدر قرارًا بتعيينه قائدًا عامًّا للجيش، [وسنورد في الملحق أحد النصوص المدونة في السجلات التاريخية، مترجمًا عن الأصل] وهذا الفصل يعرض لأهم أفكار سونبين التي تتلخَّص في أن الحرب «ليست أبدًا هي الوسيلة المثلى للتسوية في كل الأحوال»، مع أنها «الوسيلة التي لا يمكن تجنُّبها تمامًا ...» مع الأخذ في

محاورات الملك وي[3]

عندما سأل الملك وي، حاكم مملكة تشي، الحكيم سونبين عن فنون الحرب، طرح عليه سؤالًا يتعلّق بحالة يتساوى فيها جيشان من حيث القوة العسكرية والعزم على المواجهة، بثباتٍ وصلابة في تشكيلاتهما القتالية، دون أن يبادر أحدهما للهجوم. قال الملك: «كيف يمكن التصرُّف إزاء هذه الحال؟» فأجاب سونبين: «يمكنك أن تختبر عدوك بإرسال كتيبة مشاة خفيفة التسليح بقيادة ضابط

الاعتبار بأن مناط النصر يتعلَّق بـ «الاستعداد بالموارد الكافية»، بالإضافة إلى شرط أساسي، وهو أن تكون الحرب عادلة. وعنوان هذا الفصل من وضع نقاد الكتب التراثية — كمعظم عناوين الكتب القديمة — إذ لم يكُن موجودًا في النسخة الأصلية من الكتاب.

[3] يتناول هذا الفصل حوارات متبادلة بين الملك وي، حاكم دولة تشي، وسونبين وتيانجي حول فنون المعارك، ويدور الحوار بين ثلاثتهم على نمط الأسئلة والأجوبة المباشرة، ويتركَّز القسم الأول منها على ظروف عدم التكافؤ بين القوتين المتصارعتين، وما يتعلَّق بها من طرق وفنون قتال متباينة، أما القسم الثاني فينصب بصورة أساسية على الآراء التي طرحها سونبين في معرض حواره مع تيانجي، بشأن «شن الهجوم حيث تضعف دفاعات العدو»، وهي مسألة تعرضت لطريقتين في التفسير على يد الأكاديميين؛ الطريقة الأولى، تنظر إلى هذا المبدأ من زاوية تركيز الهجوم على الثغرات الضعيفة في دفاعات العدو. والطريقة الثانية، ترى أن المعنى يشير إلى المبادرة بالهجوم وليس بالدفاع.

صغير مشهود له بالإقدام، على أن تقوم هذه الكتيبة بالهجوم دون إحراز تقدُّم فعلي، بل تُظهر بعض التراجع، مما يُتيح للعدو الشعور بالنصر. وفي ذات الوقت، تُسيّر كتيبة أخرى خفية، تلتف نحو جناحي العدو لتباغته من الخلف؛ فهذه أفضل طريقة لاختبار العدو قبل هزيمته«.

فأردف الملك بسؤال آخر: «هل هناك قاعدة تُحدِّد الفرق بين استخدام القوات الكبيرة والصغيرة؟» أجابه سونبين بالإيجاب، فواصل الملك تساؤله: «وإذا كانت قواتنا أقوى وأوفر عتادًا، فكيف السبيل إلى قيادتها في هذه الحالة؟» عندها انحنى سونبين وقال: «لقد أصبت يا مولاي، فسؤالك ينمّ عن بُعد نظر. من الحكمة أن تعتمد على جيش قوي وعتاد وافر، وتبحث عن الخطط المناسبة للقتال، فهذا يُعزز فرص النصر ويضمن سلامة البلاد. وفي مثل هذه الحال، أرى أن الأنسب هو تطبيق استراتيجية "التغرير بالعدو" أو "تسانشي"، والتي تعتمد على إظهار بعض الاضطراب المتعمَّد في تشكيلاتك القتالية، بحيث يبدو صفّك مرتبكًا في ظاهره، مما يغري العدو على الهجوم بلا تروٍّ، فيتيح لك بذلك فرصة السيطرة على المعركة لصالحك«.

واصل الملك وي استفساراته، قائلاً: «لو كان العدو أشد قوة وأكثر حشدًا، فما التصرف الأمثل في هذه الحالة؟» فأجابه سونبين: «هناك أسلوب مثالي يُدعى "وانوي" أو "تفادي هجوم العدو"، ويقوم على إخفاء تحركات القوات الرئيسية، مما يتيح لها الانسحاب عند الضرورة دون أن يكشف العدو مواقعها. في هذه الخطة، تتمركز أسلحة المدى البعيد في الخطوط الأمامية، بينما توزّع أسلحة المدى القريب خلفها، وخلف الجميع تُنشر فرق خفيفة الحركة من الرماة، لتكون على استعداد للتدخل الفوري في الحالات الطارئة. ومن المبادئ الأساسية في هذه الخطة، ألا تُصدر أوامر للتحرك حتى يكشف العدو عن مكامن قوته، ثم نلتحم به ونحسم المعركة«.

ثم تابع الملك سائلاً: «وإذا التقى الجيشان دون أن أتمكن من معرفة حجم قوة العدو مقارنة بجيشنا، فما السبيل إذًا؟» فأجاب سونبين: «الطريقة المثلى في هذه الحالة تُعرف بـ "شيان تشنغ"، وهي تكتيك قتالي يعتمد على تكوين ثلاث تشكيلات قتالية تتعاون فيما بينها، بحيث تتيح لك مرونة التقدم أو التراجع حسب مجريات المعركة«.

فسأله الملك وي مجددًا: «وماذا لو حوصر العدو في وضع يائس، مغلقة أمامه سبل الهرب؟» فردّ عليه سونبين قائلاً: «في مثل هذا الموقف، لا تطارد العدو المندفع نحو الهروب، بل اجعل أمامه طريقًا موهمًا للنجاة، ثم اضربه بقوة حين يحاول الاستفادة منه«.

فبادر الملك وي سائلاً سونبين: «ماذا أفعل إذا كان عدوي يماثلني قوة وعدداً؟» فابتسم سونبين وأجاب: «أيقظ الفوضى في صفوفه، وزرع في قلبه الاضطراب حتى يتشتت عن نفسه ويفقد زمام السيطرة على جنوده، بينما تظل أنت ممسكاً بزمام أمرك، كربّان يقود سفينته وسط عاصفة مجهولة. أخفِ نواياك عنه، وامضِ بخطى الواثق. فإن لم ترَ صفوفه قد تزعزعت ولم تبدُ عليه علامات الضعف، فالأفضل أن تنتظر ولا تهدر قوتك على عدو لم تتضح مواطن ضعفه بعد؛ فالتهور ضرب من الانتحار«.

تابع الملك سؤاله وقد ازدادت دهشته: «ولكن هل هناك قاعدة تمكنني من مواجهة جيش أضخم من جيشي بعشر مرات؟» فأجاب سونبين وقد بدا عليه عمق الفطنة، قائلاً: «لا تترك للعدو فرصة التقاط أنفاسه، بل اسبقه إلى ساحة المعركة قبل أن يتهيأ لها، وكن

عليه كالظل المباغت، حتى يجد نفسه فجأة في فخ لا مفر له منه؛ فالدهاء في السرعة والبديهة يسبق أي استعداد آخر«.

ثم تساءل الملك وي مرة أخرى: «ولكن ما سبب الهزيمة أحياناً، رغم ملاءمة الأرض والجنود في أتم جاهزيتهم؟» فأجاب سونبين بتنهيدة حكيم: «إن الهزيمة تأتي من سوء الاختيار؛ فالجنود الأقوياء هم من يقودون المعركة لا الأرض ولا العتاد، وهؤلاء لا يختارهم سوى القائد الحصيف الذي يدرك ما يبحث عنه فيمن يقف معه على خط النار«.

ثم سأله الملك مجدداً: «وكيف أثبت الطاعة المطلقة في نفوس الجنود؟» فأجابه سونبين: «إذا أردت منهم طاعة مطلقة، كن أنت لهم مثالاً صادقاً في التضحية، وسيجدون فيك قادتهم وملاذهم ويطيعونك بلا تردد. الطاعة تتبع الصدق، وهي ظلّ التفاني والإخلاص«.

أعجب الملك بما سمعه، وقال: «ما أروع حكمتك يا سونبين، إن خططك هذه لآسرة بجمالها وبراعة تفاصيلها!» وحينها تقدم إليه تيانجي، يستفسر قائلاً: «وكيف يمكن للمرء أن يعوق تحركات العدو،

ويوقعه في أزمات تمنعه من التقدم؟ وكيف نواجه حصناً منيعاً يحميه تحصين شديد؟ ولماذا نفقد فرص النصر أحياناً رغم تهيئة المكان والزمان؟» فرد عليه سونبين قائلاً: «إن الأرض الوعرة ألد أعداء الجنود، فهي تكبح تقدمهم وتحيطهم بالأخطار من كل صوب، ومرور ثلاثة أميال وسط مستنقع كفيل بتحويل أعتى جيوش الأرض إلى طابور مثقل بالمشقة. فليكن العدو ثقيلاً بعتاده، بينما ترسم له أراضي المستنقعات درباً يلفه الكد والتعب حتى يصير في قبضة يدك. أما الحصون، فما يجعلها صعبة المنال ليس ارتفاع جدرانها فقط، بل التحصينات والممرات المائية التي تحيط بها كدروعٍ من الفولاذ؛ فلا يقتحمها إلا من جازف بعقله وسيفه معاً».

فابتسم سونبين وقال، وقد أشرق وجهه بحكمة لا تخفى: «حين تحتشد القوات متقابلة ولا تنوي أنت الابتداء بالهجوم، فعليك أن ترفع راية الإقدام دون أن تتحرك، وتُلهب القلوب بقرع الطبول دون أن تدفعها للاندفاع، ليرتفع وهج التهيؤ في نفوسهم ويشتد انتباههم، بينما تظل في موقعك الثابت، مراقبًا أي حركة قد تدفع خصمك للانزلاق نحو ساحة القتال. اجعل العدو يتوهم أنك على وشك الانقضاض، لعلّه ينكشف ويترك مواقعه».

ثم أضاف تيانجي، وعيناه متوقدتان فضولاً: «وما الذي يجعل الجنود ينصاعون للأوامر انصياعاً تاماً، بعزم ثابت وحزم لا يتزعزع؟» فأجابه سونبين بحنكة الراسخ في فنون الحرب: «لتضمن انصياعهم، اجعلهم يدركون قيمة الالتزام، وافتح لهم باب المكافأة والتقدير على الإحسان في الطاعة، واضرب مثالاً رفيعاً في الانضباط حتى يشعر كل جندي أنه في سبيل عظيم يتجاوز ذاته«.

فأخذ تيانجي يستزيد من الأسئلة، قائلاً: «وهل تُعد المكافأة والمجازاة ركيزة أساسية لضبط الجنود؟» فردّ عليه سونبين قائلاً: «ليست الركيزة الأساسية، لكنها من ركائز التشجيع؛ فالمكافأة تشعل الحماس والبذل، أما المجازاة فهي حبل الانضباط الذي يجمع شملهم في كيان متماسك، يحفظ التناسق بين الأفراد وقياداتهم، ويفتح لهم درب الطاعة والاحترام. إنها ليست لبّ النصر، لكنها أساس النظام الذي يمهد له«.

فاندفع تيانجي مرة أخرى يسأل، وقد بدا عليه بعض الغضب من حذر سونبين: «لكن أليست القيادة والتفوق والتخطيط والخداع من أهم أساسيات القتال؟» فأجاب سونبين، وقد بان فيه عمق البصيرة:

«كلّ هذه وسائل تساهم في تحقيق النصر، لكنها ليست الجوهر. القيادة تجمع القوات في وحدة، والتفوق يشحذهم بشجاعة وإقدام، والتخطيط يجعل العدو غافلاً عن خططك، أما الخداع فهو سلاح يربك ويضلل. إنها أدوات لا غنى عنها، لكنها ليست صلب الفن العسكري«.

فزاد تيانجي غضباً واندفاعاً، وقال: «إذاً، ما هو صميم هذا الفن؟» فابتسم سونبين ابتسامة الواثق وأجابه: «إنما هي البصيرة العميقة بأحوال العدو، والفهم الدقيق لأرضه وسهولها وجبالها، وأن تعرف مداها وسهامها ومواطن قوتها وضعفها. فذلك هو علم القائد المحنك، وهذا هو السلاح الحقيقي الذي يكسر دفاعات العدو الواهية ويحدد لحظات الحسم«.

ثم قال تيانجي، وقد بدا عليه التوتر والتفكير العميق: «وإذا كانت القوات على أهبة القتال تواجه بعضها دون نية الاشتباك، فما الخطة المثلى في مثل هذا الموقف؟«

فردَّ عليه سونبين بنبرة الحكيم المتأمل، قائلاً: «في مثل هذا الموقف، يكون عليك التمترس في مواقعك المنيعة، وتحصين

دفاعاتك بدقة، مع التزام الحذر التام، دون أن تكون أنت المبادر بالهجوم. ابق قواتك في مواقعها لا تغادرها مهما تكن الاستفزازات، فلا تدع مشاعرهم تتأجج للاندفاع، بل اجعلهم كالسيل المترقب، لا يتحرك إلا وفق تخطيط محكم«.

ثم سأله تيانجي قائلاً: «وكيف يتم التحرك عندما أُجبر على الاشتباك مع خصم عنيد ذي حشود غفيرة؟» فأجابه سونبين قائلاً: «هنا، يتطلب الأمر منك أن تزيد في تحصين دفاعاتك، وتحرص على تعبئة وحشد قواتك بانتظام، مع فرض انضباط صارم يوحد الصفوف ويقوي العزيمة، تجنب كل ما قد يزيد من ثقة العدو بنفسه. ستحتاج إلى إرهاقه، وإيقاعه في حالة من الإنهاك المتواصل، حتى إذا انكسرت قواه، انقضضت عليه بهجوم مباغت من حيث لم يحتسب، متبعاً خطة طويلة الأمد تضرب بمرونة وصبر«.

فاستطرد تيانجي قائلاً: «فهل لك أن تذكر لي دواعي استخدام التشكيل المخروطي، وتشكيل الإوز البري، وأهمية انتقاء الوحدات المميزة، وأدوار الرماة المهرة، والتشكيل العاصف، ووحدات الجنود العامة؟» فأجاب سونبين: «للتشكيل المخروطي ميزة في اقتحام

صفوف العدو المحصنة، حيث يحاصر عناصر قوته الضاربة. أما تشكيل الإوز البري، فدوره يكمن في تطويق جناحي العدو بإحكام كفكي كماشة. وفيما يخص الوحدات القتالية الممتازة، فدورها هو كسر دفاعات العدو واستهداف قادته، بينما يلعب الرماة المهرة دوراً حاسماً في المعارك طويلة الأمد، حيث ينالون من قوة العدو تدريجياً. أما التشكيل العاصف، فغايته هي المباغتة الشرسة، التي تقطع خطى العدو في لحظات الحسم. أما الجنود من العامة، فلهم مهام مساندة تدعم جهود الوحدات المختارة في إحراز النصر«.

ثم أردف سونبين، قائلاً: «القائد الحكيم، المدرك لأصول الحرب وفنونها، لا يُلقي عبء النصر على كاهل الجنود العاديين، فهو يدرك أن الانتصار الحاسم لا يأتي من الحشود فحسب، بل من حسن التخطيط ودقة التنفيذ«.

بعد أن أتم سونبين حديثه مع الملك وي، حاكم تشي، ومستشاره تيانجي، خرج من مجلسهما، وفي طريق خروجه التقى ببعض من تلاميذه، الذين بادروا بسؤاله: «ما رأيك في الأسئلة التي طرحها جلالة الملك وتيانجي؟» فأجابهم قائلاً: «لقد طرح عليّ الملك تسعة أسئلة،

بينما اقتصر تيانجي على سبعة. ومع ذلك، فقد اكتسب كلاهما معرفة عظيمة بجوانب من فنون الحرب. لكنني، رغم ذلك، لا أستطيع القول إنهما قد بلغا قمة الإتقان في الأصول وإحكام المبادئ«.

وأضاف سونبين، قائلاً: «وقد ورد في الحكمة الموروثة أنه حينما يكون الإخلاص والثقة أساس العمل، فإنهما يجلبان للبلاد النفع والازدهار. وعندما تستقر دعائم العدل في أركان الوطن، يعمّ الرخاء وتجد الشعوب طمأنينتها. واعلموا أن البراعة في قيادة القوات ليست كافية إن لم يتم إعدادها بشكل محكم لخوض المعارك، إذ إن الإهمال في ذلك يؤدي إلى خسائر فادحة. كما أن التهافت على شن الحروب، حبًّا في القوة والهيمنة، لا يقود الأوطان إلا إلى الخراب والزوال. [وإذا ما سلكت دولة تشي هذا السبيل]، فإن مصيرها لن يكون مطمئنًا بعد ثلاثة أجيال«.

***

[تلي هذه الفقرة عبارات متناثرة قد تكون مرتبطة بالمتن أو بجزء آخر من السياق في هذا الكتاب. لم تُترجم هذه العبارات إلى الصينية

الحديثة في النسخة التي أنقل عنها، ولم ترد كذلك في بعض النصوص المحققة. لذا، أقدّم هنا محاولة لنقلها من الصينية القديمة]:

[...فراغ]، فهذا مما يجعل العدو يضع له ألف حساب.» [فراغ]. قال سونزي: [فراغ]. قال سونزي: هناك ثماني تشكيلات قتالية، [فراغ] ... على هذا النحو، وقال سونزي: إن الحرب [فراغ] ... وقال الملك وي: [فراغ] ... هكذا «[فراغ] ... ثم إن تيانجي [فراغ«...]

مناقشات تيانجي بشأن التحصينات[4]

عندما أقبل تيانجي نحو سونبين، أطلَّت على وجهه تعابير القلق، وسأله بصوتٍ خافتٍ لكنه يحمل من الجدية ما يكفي ليجعل من السؤال جسرًا إلى عمق الموقف: «ما العمل إذا كانت قواتي قليلة،

[4] ويتناول هذا الفصل نص مناقشة بين تيانجي وسونبين بشأن الحصون الدفاعية التي كانت تقام — قديمًا — من الطوب اللَّبِن، أو من عدد كبير من العربات الحربية المتلاصقة، وقد دارت المناقشة بين الرجلين حول كثير من أنواع تلك الحصون والمنشآت الدفاعية، غير أن جزءًا كبيرًا منها تعذرت قراءته في النسخة التي عثر عليها وإن سبقت الإشارة إليه في متون نصوص أخرى. والشكل الأساسي للحصون في هذا النص عبارة عن ستائر دفاعية تتكوَّن من عربات حربية متلاصقة مع الإشارة إلى أنواع التسليح وطرق التنظيم وأساليب القتال المتعلقة بها.

وأحاطت بها العقبات، فلم يعد بالإمكان التواصل فيما بينها؟» ثم أضاف بحذر: «وإذا كنت قد أصدرت الأوامر بتناول السهام وفرد الأقواس، ولم أستطع التراجع عن هذا الأمر، فما السبيل إلى التصرف؟«

أجابه سونبين بابتسامة تعكس عمق خبرته: «إن هذا السؤال لا يطرحه إلا قائد مُحنك، فالعادة أن القادة العاديين لا يدركون عمق المخاطر التي يحملها هذا التساؤل، ولكن حذار، فإن تلك الدواعي قد تكون سيدة الموقف في اللحظات الحاسمة«.

ردَّ تيانجي بلهجة مفعمة بالإلحاح: «ألا يمكن أن تشرح لي بصورةٍ أدق؟» فقال سونبين: «هذه طريقة تُعتمد عندما يجد العدو نفسه في وضعٍ حرج، أو عندما تشتد عليه الأنواء وسط تضاريسٍ وعرة تحدُّ من حركته. ولقد كانت هذه الأساليب هي ما مكنني من دحر قوات دولة وي، حتى تمكنت من أسر قائدهم بانشيوان والأمير شن«.

وعلى الرغم من وضوح الفكرة، أضاف تيانجي: «لكن تلك أحداث قد طواها الزمن، ولا يمكن استعادتها بكل ملابساتها.» فابتسم سونبين مجددًا وقال: «يمكنني أن أُسهل لك الفهم، إذ إن شجر

الحسك الشائك، على سبيل المثال، يعد وسيلة فعالة لحماية الخنادق والمجاري المائية وأسوار المدن الدفاعية. أما العربات الحربية، فيمكن استخدامها كتحصينات تسهم في تعزيز الدفاع، في حين تؤدي الدروع دور الأسوار القصيرة. وإذا رُصَّت مقابض الأسلحة إلى جانب بعضها، فإنها ستصبح عونًا كبيرًا في المواقف الحرجة«.

وأضاف سونبين: «إن توزيع العربات الحربية الصغيرة والحراب يعد بمثابة دعم للأسلحة الكبيرة، إذ تُشكل تلك الأدوات الصغيرة عائقًا أمام تقدم العدو المُنهك، بينما يلعب الرماة دورًا حيويًا في صد الهجمات. وإذا توافرت كل تلك العناصر، تصبح الظروف مواتية لبناء حصونٍ دفاعية متينة«.

ثم استشهد بما ورد في نصوص «اللوائح العسكرية»، قائلاً: «يجب أن يتخذ الرماة مواقعهم خلف أشجار الحسك، ويطلقوا سهامهم بدقة في توقيتٍ محسوب، بينما يتوزع حاملو الحراب فوق أسطح الحصون. وقد جاء في "كتاب القواعد العسكرية" ضرورة انتظار تقارير الاستخبارات التي ترصد أحوال العدو، مع إقامة نقاط استطلاع على بُعد خمسة «لي» من مواقع تمركز القوات، بحيث تبقى

تلك النقاط قريبة الصلة بمواقعها. ويُفضل أن تُقام على مرتفعات عالية بتصميمٍ رباعي الشكل، أما إذا نُصبت في أماكن منخفضة، فلتكن دائرية. وينبغي إرسال الإنذارات ليلًا عبر قرع الطبول، وفي الصباح تُستخدم الأعلام والرايات كوسيلة للتواصل«.

***

ثم تتابعت الفقرات لتُسجل حديثًا عميقًا بين تيانجي وسونزي، المؤلف الشهير لكتاب «فن الحرب»، حيث ابتدأ تيانجي بالتساؤل عن جوهر الاستراتيجيات القتالية. فكان الحوار كأنما يدور بين الأذكياء الذين يمتلكون مفاتيح الحكمة:

قال تيانجي: «ما هي الفنون القتالية التي تُعتبر الأساس في مواجهة الأعداء وتحقيق النصر؟«

فأجابه سونزي بحكمة مستمدة من تجاربه العميقة: «إنها الفنون التي تضمن لك معرفة الطرق الموصلة إلى النصر، وتبني لك القدرة على استثمار كل فرصة قد تتاح. فقد استخدمتها في دولتَي أو ويوي، وهي فنون تعكس التوازن بين الهجوم والدفاع، وبين القوة والذكاء«.

وواصل سونزي حديثه ببلاغة: «وقد أخذها سونبين عني، ثم نشرها في دولة تشي، حيث باتت هذه المبادئ القتالية تجسد الرؤية العميقة التي تُنظم تصرفات القادة. فليس يكفي أن نملك القوة، بل ينبغي أن نتقيد بسنن الأرض والسماء، ونفهم ما تقتضيه طبيعة الأمور».

ثم استمر الحوار، مُتطرقًا إلى كيفية تطبيق تلك المبادئ في قيادة الجيوش، مُشددًا على أهمية الالتزام بمعرفة الأسس التي تُشكّل محاور الاستراتيجيات. فكما ترسم الرياح مسارات السفن، كذلك يجب أن يستلهم القادة من تلك القوانين الكونية.

ختامًا، اختُتمت تلك الفقرات بعبارة تتجلى فيها عمق الفهم وإدراك معنى الحرب: «فمن ثَمَّ ندرك معنى الحرب، وبالتالي نمسك بزمام الفطنة والفهم، لنُحقق النصر الذي يسعى إليه كل قائد حكيم».

انتقاء القوات[5]

قال سونبين: «إن النصر العسكري لا يقتصر على انتقاء القوات الأنسب للقتال فحسب، بل هو أيضًا وليد الشجاعة والإقدام، اللذين يتجليان في النظام والانضباط. فأسس المرونة القتالية ترتكز على فهم دقيق للأوضاع العامة والموقف الاستراتيجي، ولا يخفى أن قوة الجيوش تنبع من صلابة إيمانها وثقة أفرادها وإخلاصهم، مما يسهم في رفع معنوياتهم للامتثال لتوجيهات قيادتهم».

وأضاف سونبين قائلاً: «إن التدريب هو العمود الفقري الذي يرسخ كفاءة القوات، فهو مفتاح النصر السريع والحاسم الذي يعد أعظم مكسب للوطن. إن قوة الأوطان ومجدها يقاسان بمدى ما تقدمه من رفاهية وسبل لاستعادة الطاقة المهدرة، بينما تنشأ أسباب

[5] ورد عنوان هذا الفصل في خلفية الورقة الواردة بالنسخة الأصلية وهو اقتباس حرفي ممَّا جاء في الفقرة الأولى من فقراته، حيث يرد النص هكذا: «يتحدَّد عنصر النصر في المعارك على كيفية اختيار المقاتلين ... إلخ» وتدور الفكرة الأساسية لهذا الفصل حول العوامل التي تحدد أسباب النصر أو الهزيمة؛ ولهذا يعده النقاد مكملًا لما ورد في الباب الأول من كتاب «فن الحرب» لسونزي، تحت عنوان «التخطيط.«

انهيارها من الحملات العسكرية المتكررة التي تستنزف قواها وتفقدها توازنها«.

ثم ألقى سونبين ضوءًا على الأخلاق، فقال: «إن الرفعة الأخلاقية تُعد حجر الأساس الذي يتشكل بتراكم التجارب ورصيد السنين، فالإخلاص والثقة تعتمدان على مبدأ الجزاء العادل والمكافأة النزيهة. إن أعظم المبادئ العسكرية يستند إلى كراهية الحرب، إذ إن الفوز بثقة الجنود هو الضمان الحقيقي للنصر، فهذه الثقة هي التي تحثهم على التضحية والعطاء«.

وحدد سونبين خمسة شروط لتحقيق النصر الدائم، فقال: «أولًا، على القائد أن يحظى بثقة السلطة الحاكمة، لتكون له القدرة على إدارة معركته باستقلالية. ثانيًا، يجب أن يتعمق في فهم فنون الحرب وأساليبها. ثالثًا، عليه أن يكسب ثقة جنوده. رابعًا، ينبغي أن يسود التكاتف بين القائد والأفراد. خامسًا، يجب أن يكون القائد بارعًا في تقدير أحوال العدو ومعرفة تضاريس الأرض، فكل ذلك يعد ضمانًا للنصر بلا جدال«.

ثم ختم سونبين حديثه بتأكيده على أسباب الهزيمة، فقال: «تنبثق الهزيمة من خمسة أسباب رئيسة، أولها فقدان القائد لاستقلاله نتيجة خضوعه لسيطرة الحكم. ثانيًا، جهل القائد بفنون الحرب وقواعدها. ثالثًا، حدوث الشقاق بين القائد وزملائه. رابعًا، العجز عن الاستفادة من المعلومات التي يوفرها الجواسيس. خامسًا، فقدان ثقة الجنود، مما يعرض الجميع للفشل المحتوم».

قال سونبين: «إن مناط النصر الحقيقي يتجلى في إخلاص القائد لبلاده، وفي عدالته ونزاهته عند المكافأة والجزاء. كما يجب أن تتوافر لديه القدرة على استغلال نقاط ضعف عدوه، فإن ذلك يُعَدّ من العوامل الحاسمة في تحقيق الانتصار».

وأضاف سونبين قائلاً: «لا ينبغي أن يتولى قيادة القوات من تناءت عنه ثقة جلالة الإمبراطور، فإن تلك الثقة هي أساس القيادة الناجحة وسبيل الفوز في ميادين الحرب».

***

...»إن الباب الأول في مسيرة النصر هو الأمانة، والثاني هو الإخلاص، أما ثالثهما فهو الجرأة. فأي إخلاص هذا، ولمن يُوجه؟

أقول لك إن المعنى ينصب على الإخلاص لجلالة الملك. وماذا عن الأمانة؟ أجيب بأنها الأمانة في المكافأة والمجازاة. أما الجرأة، فهي ما يحتم على القائد أن يتحلى بها في ساحات القتال. إن من يحيد عن الإخلاص لمليكه، لن يجرؤ على قيادة جيشه، ومن لا يتوخَّ النزاهة في المكافأة والمجازاة، فلن ينال الاحترام من جنوده. أما من يقتحم ساحة الحرب دون كفاءة، فلن تهابه الجنود«.

مائتان وخمسة وثلاثون.

الحرب والطوالع الفلكية

قال سونبين: «ليس في الوجود أعظم من الإنسان، حيث يتجلى عظمته بين الأرض والسماء، إلا أن هذا لا يتحقق إلا إذا أُخذت في الاعتبار ثلاثة عوامل حيوية: التوقيت الزمني، وطبيعة الأرض، والتآلف بين الأفراد. فبدون هذه التناغمات، سيكون النصر مجرد وهم، بل قد ينذر بكارثة تترصد بالأرواح. لذا، لا بد من استعداد شامل لضمان توافق هذه العناصر الثلاثة عند الدخول في غمار الحرب، إذا اقتضى الأمر ذلك. إن من يتقيد بقوانين الزمان، لن يُعزى إليه التكرار

في حروبه، بينما من يغفل عن هذه العناصر قد يُفاجأ بحظوظ من النصر، لا لسبب سوى ما يظنه من مؤازرة القدر له من السماء، وفقًا لمعتقدات الأقدمين في أن الازدهار والانتصار يتجلى وفق مقادير سماوية«.

وتابع سونبين: «إن من نال النصر في ست معارك من أصل عشرة، ما كان له أن يحقق ذلك لولا الطوالع الفلكية التي وقفت إلى جانبه. وإذا حقق أحد النصر في سبع معارك، فلأن البرج الشمسي قد مهد له الطريق في الأوقات المناسبة. أما إذا كانت الانتصارات حليفته في ثماني معارك، فهذا يعني أن البرج القمري قد مدَّه بأسباب التمكين. وإن انتصر في تسع معارك من أصل عشرة، فلا بد أن تلك الانتصارات تُعزى إلى براعة القائد وقدرته الفائقة، مما يقوده إلى فوز عظيم يفوق كل مقادير السماوات والأفلاك. وفي تلك اللحظة، عندما يلتقي الإبداع بسلطان الإرادة، يتجاوز النصر كل حد«.

***

[...»فراغ]. هناك خمسة أسباب تحول دون تحقيق النصر، وكل واحد منها كفيل بذاته بإحباط أي معركة. كثيرًا ما تتجلى هذه

الحالات أثناء القتال. فثمة من يثخن في أعدائه، قاتلاً عددًا هائلًا منهم، دون أن يتمكن من أسر الضباط والمقاتلين من الطرف المناوئ. وهناك من ينجح في أسر الضباط والأفراد، لكنه يعجز عن اقتحام مواقعه وثكناته. وقد تستطيع القوات أن تقتحم مواقع عدوها، لكنها تعجز عن القبض على قائدها. وأخيرًا، هناك من يُقدم على إبادة خصمه بالكامل — جنودًا ومقاتلين — فيقضي على قادتهم أيضًا. ومن هنا، نستنتج أن من يجيد فنون الحرب، لن يترك لأعدائه فرصة للفرار من الهزيمة، بل سيجعلهم يعيشون ليشاهدوا عواقبهم بأم أعينهم... [فراغ«.]

توزيع التشكيلات[6]

قال سونبين: «لا يغتر في ساحة المعارك إلا قائدٌ يفتقر إلى البصيرة، ولا يتيه صلفًا إلا من كان جبانًا. إنَّ من لا يدرك العواقب، ويندفع إلى القتال بكل خيلاء، هو بالتأكيد من أعوزه العلم والخبرة بفنون الحرب، مما يجعله يعلّق كلَّ آمال النصر على مصادفات الأقدار.

لا بد لمن أراد أن يؤسس الأمن، ويكرس المجد، ويحمي سلام وطنه وشعبه، أن يتقن فنون الحرب ويعرف أصول القتال. ومن أراد سلوك سبيل هذه القواعد، ينبغي له أن يبدأ بدراسة علوم الفلك، ثم يتجه نحو علوم الجغرافيا وطبيعة الأرض. كما يتوجب عليه أن ينال دعم وثقة مواطنيه، ويستوعب حقائق أعدائه بعيدًا عن الحدود.

---

[6] العنوان، هنا، حرفيًّا هو: «التشكيلات الثمانية»، أو «ثماني طرق لتوزيع القوات». ويتناول القسم الأول من هذا الفصل الشروط التي يجب أن يلتزم بها القائد المظفر، مؤكدًا على أهمية المعرفة بهذه الشروط، وإدراك محتواها، أمَّا القسم الثاني، فيعرض فيه المؤلف لضرورة تنوُّع أساليب (التكتيك) استخدام وتوزيع القوات حسب الطبيعة الجغرافية لأرض المعارك وأحوال العدو، بحيث تتم المفاضلة بين أساليب توزيع وتسليح القوات، بما يمكن من إدارة القتال بمرونة.

وعند التحضير لتشكيل عسكري، يجب أن يكون ملمًا بمبادئ توزيع القوات واستخدامها، فلا يخوض معركة إلا إذا كانت كفة النصر راجحة. فإن انتفت لديه الثقة في الغلبة، فعليه أن يعدل عن خوض المعركة. إن القائد الذي يتمتع بهذه الصفات وحده هو القادر حقًّا على أن يكون عونًا للأباطرة في تعزيز أسس استقرار الأوطان وأمنها وسلامتها.

وفي الجزء الثاني من هذا الفصل، يقول سونبين: «إن أساليب توزيع القوات ونشرها يجب أن تختلف باختلاف طبيعة الأرض وظروف المعركة، مما يتطلب توزيع القوات بما يتناسب مع تلك الطبيعة. اعلم أن القوة العسكرية تُقسم إلى ثلاث قطاعات، يشتمل كلٌّ منها على طليعة تليها قوة احتياطية. وفي جميع الأحوال، ينبغي أن تتحرك القوات وفق الأوامر الصريحة.

يتم دفع ثلث القوات إلى الاشتباك، بينما يظل ثلثا القوة في الخلفية، محميين الخطوط القاعدية كقوة احتياطية. فإذا كانت قوات العدو متخبطة وضعيفة، يجب دفع أفضل العناصر لاستغلال

نقاط ضعفها ومهاجمتها. أما إذا كانت قوات العدو قوية ومنظمة ودقيقة، فيتوجب الدفع بقوات أقل قوة لاستدراجه إلى الفخ«.

عند انخراط الفرسان والعربات الحربية في تشكيلات المعارك، تُقسم هذه العناصر إلى ثلاثة أقسام: الميسرة، والميمنة، والمؤخرة. ومن الضروري استخدام العربات الحربية في الأراضي السهلة المنبسطة، بينما تُعتبر الأراضي الوعرة وغير الممهدة أكثر ملاءمة لقوات الفرسان.

ويستعين الرماة بالمرتفعات الشاهقة والمواقع التي تتميز بصعوبة الوصول، إذ تلعب هذه العوامل دورًا حيويًا في تحديد التكتيكات المناسبة. وفي مختلف الظروف، سواء كانت أرض المعارك مستوية وسهلة أو وعرة وصعبة، من الضروري التمييز بين ما هو مناسب للقتال وما هو غير ملائم؛ إذ يتعين استغلال الأراضي "الحية" القابلة للقتال لتوزيع القوات، بينما يجب مواجهة العدو في الأراضي "الميتة" التي تفتقر إلى ملاءمة المعركة.

أهمية أرض العمليات[7]

قال سونبين: «تتنوع الخصائص العامة لأرض العمليات إلى قسمين: الجانب الذي يواجه أشعة الشمس، وهو ما أعتبره فضاءً خارجيًا، والجانب الآخر المظلل، الذي أعتبره جوهر الداخل. هناك الطرق الرئيسية، التي تجسد المبادئ الأساسية، وأخرى صغرى، تمثل الخطوط الثانوية. ومن يدرك خصائص هذين النوعين من الطرق، فإن بإمكانه الإمساك بناصية فنون استخدام القوات وتوزيع التشكيلات، بكل ثقة واقتدار.

تُعد الطرق الكبرى هي الأنسب للعمليات، بينما قد تعيق الدروب الضيقة المتعرجة الحركة العسكرية. ومن الأمور التي ينبغي مراعاتها في كل خطوة، هي درجة سطوع الشمس فوق ساحة المعركة، واتجاه الرياح وقوة اندفاعها، وما يطرأ عليها من تغييرات، فهذه نقاط تستحق كل عناية، ولا ينبغي إغفالها.

[7] يتناول هذا الفصل خصائص الأرض التي تجري فوقها العمليات، من وجهة النظر العسكرية، ومن الزاوية التي تعكس مدى الملاءمة لنجاح العمليات العسكرية في أداء مهامها؛ وصولًا إلى إحراز النصر.

إن عبور نهر، أو التحرك نحو منطقة جبلية، أو الإبحار صوب أعالي النهر، أو احتلال أراضٍ غير صالحة للعمليات، أو التمركز في مواجهات غابية، كل تلك أحوال تُشكل تهديدات جسيمة للقدرات العسكرية، وقد تؤدي إلى الهزيمة؛ لذا من الضروري تجنبها بكل حذر.

أما الجبل الذي يرتفع شمال موقع تمركز القوات، فيُعتبر موطنًا ذا فائدة جليلة، فهو بمثابة "جبل الحياة"؛ لكن الخطر يكمن في وجوده إلى الغرب. بينما يُعتبر النهر الجاري نحو الشرق مناسبًا للعمليات، بعكس حالته إن كان يجري غربًا. وبالمثل، فإن المياه الراكدة لا تسهم في تعزيز القوة العسكرية.

ثم تأتي خمسة أحوال تُشكل - مع أضدادها - نقاطًا إيجابية وسلبية تتعلق بجغرافية الأرض. من الضروري أخذها بعين الاعتبار عند دراسة الأحوال الجغرافية؛ فالجبل يُفضل على التل، والتل المُشجر أفضل من الهضبة القاحلة. والهضبة القاحلة تُعتبر في مرتبة أعلى من الكثبان والمرتفعات، التي تفوق أهميتها السهول المنبسطة الخضراء.

ويمكن المفاضلة بين الأراضي ذات الغطاء النباتي، حيث تُعد المسطحات ذات الشجر الكثيف في طليعة الأفضل، تليها الأراضي التي تحتوي على شجر السنط والنباتات الشوكية. وفي المرتبة التالية تأتي الأراضي ذات الغطاء الغزير من النجيل، بينما تُصنف الأراضي ذات الحشائش العشبية القصيرة في المرتبة الأدنى.

وعند الحديث عن الألوان الغالبة على الأرض المقترحة للعمليات، يُفضل - بلا شك - اللون الأخضر، الذي يتفوق بشكل كبير على الأصفر، ثم تُفضل الأرض الصفراء على السمراء، التي تُعتبر أعلى منزلة من الحمراء. أما الأرض الحمراء فهي أفضل من البيضاء، لكن تظل الأرض البيضاء متفوقة على أي تربة ذات لون أخضر«.

تتوزع التضاريس الأرضية التي يصعب فيها القتال إلى خمسة أنواع، وهي: الوهاد الجبلية، والمجاري المائية، والمستنقعات، والأراضي الملحية، والممرات الوعرة. هذه البيئات تُعد بمثابة عقبات خطيرة أمام الجيوش.

أما بالنسبة للتضاريس التي قد تُهلك جيشًا بأسره، فتتجلى في خمسة أنواع مدمرة: أولها، المنخفض الأرضي الذي ينضح قاعه

بالماء، محاطًا بحواف جبلية شديدة الانحدار، ما يضع القوات في فخ محكم. وثانيها، سلاسل التلال المتعرجة، التي تُحيط بها الهضاب العالية من جهاتها الأربع؛ تبدو تلك التلال سهلة الاقتحام، لكنها تخفي خلفها مصاعب جمة تجعل الخروج منها أمرًا في غاية الصعوبة. وثالث هذه الأنواع، الأرض المغطاة بالأكمات والأدغال الكثيفة، التي تُشبه مصيدة للقوات أكثر مما تُعتبر موقعًا حصينًا. ورابعًا، الأخاديد والمصارف المتداخلة، التي تمثل عائقًا غير قابل للعبور. وأخيرًا، المنخفضات المليئة بالمياه الراكدة والبرك الآسنة، حيث تُعرف هذه الأنواع الخمسة بالتسمية الشهيرة "المقابر الخمس"، لما تمثله من خصائص جغرافية غير نافعة للقوات الساعية إلى المرابطة ونشر التشكيلات.

وفي هذا السياق، ينبغي على الجيش تجنب التمركز في الأغوار والمناطق المنخفضة خلال مواسم الصيف والربيع، إذ تمتلئ تلك الأغوار بالأمطار الموسمية، مما يعوق الحركة والقدرة على المناورة. وكذلك، يتوجب على القوات عدم اتخاذ مواقعها فوق رءوس الهضاب خلال الشتاء والخريف، تجنبًا لنقص المياه وجفاف الأرض. وعند نشر القوات وإقامة المواقع، يُستحسن أن تُجنّب القوات

استخدام الجبال والمرتفعات كساتر جهتي اليمين والأمام، كما يفضل أن تُوضع المرتفعات والتلال في الخلف والجانب الأيمن، بعيدًا عن الواجهة الأمامية.

القوة الضاربة[8]

قال سونبين: «إن جميع الكائنات الحية، من ذوات الأسنان الحادة والمناقير القاطعة، والقرون المشرعة الصلبة فوق الرؤوس، والمخالب الشديدة، كحال الطيور وأشباهها، تتجمع أفراد فصائلها في تناغم عندما تسود الأوضاع الهادئة. لكن عند حدوث صراع بينهم، ينتفضون غاضبين، ويغرزون مخالب الحرب في أجساد رفاقهم، مُعلنين عن أشرس قتال، فهذه طبيعتهم الأصيلة، ولا مبدل لطبائع كهذه.

أما الإنسان، الذي يفتقر إلى مخالب الحرب وأذناب القتال التي يمتلكها الحيوان، فقد أبدع أدواته الخاصة ليخوض بها غمار المعارك،

[8] يعقد هذا الفصل مقابلةً بين السيوف والسهام والرماح، والعربات وبين طرق استخدام القوات، مشددًا على أهمية عناصر أربعة، هي: التشكيل القتالي، عناصر القوة، والمرونة، والسلطة الحازمة.

مما يعد تجسيدًا للحكمة وعبقرية العقل البشري. فقد كان الإمبراطور هواندي، المعروف بالإمبراطور الأصفر، هو من ابتكر السيوف، مما يشكل رمزًا لفكرة التشكيل القتالي البدائي. أما الزعيم القبلي الملقب بـ«إي»، أحد قادة قبائل أسرة شيا الملكية (2100-1600 ق.م)، فقد اختراع القوس والسهم، مما يمثل رمز القوة القتالية الضاربة. وأخيرًا، الملك يو، الذي عاش أيضًا في زمن أسرة شيا، أضاف من خلال ابتكاره للعربات والسفن الحربية دلالة واضحة تشير إلى قوات الاحتياطي.

بل إن ما أنجزه كل من الإمبراطور طانغ، من أسرة شانغ (1600-1100 ق.م)، والملك أو، الذي يُنطق كما في «أوبرا»، من الرماح والحراب ذات المقابض، يحمل أيضًا معنى رمزيًا يعكس السلطة السيادية. وتُظهر هذه النقاط الأربع الأسس والقواعد العسكرية، ولكن يثور تساؤل حول السبب الذي دعاني لتشبيه السيوف بالتشكيل القتالي، وأجبت بأن الحقيقة تكمن في أن السيوف تبقى لصيقة بأجساد المحاربين حتى في غياب القتال، وهذا يتوافق تمامًا مع مسألة توزيع القوات والتشكيلات إلى وحدات، مما يجعل الشبه واضحًا بين الموضوع ودلالته«.

إن السيف الرديء، المنثلم النصل، لن يُسعف البطل منغ بن، فلا طائل من اعتلاء العرش دون أدوات فنية تسانده في خوض غمار المعارك. وكما أن تشكيلًا عسكريًا بلا طليعة ولا قائد جريء، مثل منغ بن الذي يُعرف بشجاعته، لا يجسر على اقتحام صفوف العدو ودحر قوته، يتضح لنا جليًّا أن القيادة السليمة تتطلب فطنة ومعرفة عميقة بفنون الحرب. كما أن السيف الذي يفتقر إلى المقبض، لن يُجدي نفعًا حتى لو كانت يد أمهر المحاربين تتقلده، وذلك لأن الأساس يكمن في وجود مؤخرة صلبة وأفراد متمرسين في القتال، حيث يُعدّ القائد الذي يقود جيشًا بلا كفاءة أو تنظيم كمن يحاول عبور بحر هائج بلا مجداف.

لذا، أرى أنه لا بدّ من وجود تشكيل عسكري يمتاز بطليعة ومؤخرة تتناغم معًا، مما يُشعر القوات بالثبات والصلابة، ويؤهلها لهزيمة العدو وتدمير فلوله، مُجبرة إياها على التراجع والخضوع. أما إذا غابت تلك الطليعة والمُؤخِّرة عن صفوف القوات، فإن ذلك يعد خرقًا صارخًا لأصول الفنون الحربية.

ولكن، كيف يُمكن فهم الارتباط بين الرماية والقوة العسكرية الضاربة؟ ألا ترى أن سهمًا مُنطلقًا من بين رأس الكتف والصدر قادرٌ على إصابة العدو بغتة، حتى من مسافة مائة قدم، مهما حاول العدو استكشاف مكان الضرب وموقع الرامي، فإنه سيظل في حيرة من أمره؟ ثم كيف يمكن إدراك الرابط بين العربات والقوارب البحرية، في حالات الطوارئ، والتكيف معها؟ وعلى أي أساس تُقام المقابلة بين الرماح المشرعة وبين سلطة الأوامر الحازمة في ساحة القتال؟ فإن هذه الرماح تُظهر قدرتها الفائقة على إلحاق الأذى بالعدو، سواء كان المقاتل جالسًا أو قائمًا، فتصيب العدو في مقتل، تطيح برؤوس الأعداء أو تنغرس في أجسادهم مباشرة، بغض النظر عن مواقع إطلاقها أو هيئة الضارب بها، وعلى أي مسافة.

لذا، فإن تلك النقاط الأربع تمثل الأسس الضرورية التي يجب الالتزام بها لفهم فنون استخدام القوات. فمن يُتقن هذا الفن، لن يُحقق سوى النصر المظفر الذي يُذيع صيت الملك في أرجاء البلاد. أما من يهمل تلك الأسس، فلن يخلد ذكراه، ولن يحقق إنجازًا يُذكر. وتتلخص أسس استخدام القوات في أربعة عناصر: تشكيل القوات، القوة الضاربة، المرونة مع الأحداث الطارئة، والسلطة الميدانية

الحازمة. فمن أدرك أهمية هذه العناصر، كانت له الغلبة على أعدائه، وأثخن في صفوفهم، ووقع في قبضته رؤوس البارزين من مهاجميه. فالقوة الضاربة، في معناها الاستراتيجي، تتجلى في مباغتة العدو ومهاجمته دون استعداد، حيث يبدو في عيني الرائي قريبًا، بينما إصابة الهدف قد تكون أبعد ما يمكن تصوره.

أما المعنى المقصود من "السلطة التي تملك زمام المبادرة في ميدان القتال"، فإنه يتجلى في كيفية قيادة القوات باستخدام الرايات في وضح النهار، والطبول في جنح الليل الحالكة. فهذه الموضوعات الأربعة تشكل التطبيق المادي الملموس لتلك الأسس الأربعة التي تم ذكرها آنفًا، ومع أن الجميع على دراية بها ويطبقونها في ميادين القتال، فإن الكثيرين لم يُحسنوا استيعاب المغزى الكامن فيها بصورة تامة ونهائية.

فمن اتبع تلك النقاط الأربع، فقد نال الفوز، ومن تغاضى عنها أو أهملها، هلك حتمًا.

قيادة القوات[9]

قال سونبين: إذا أردنا استيعاب الطريقة التي تُستخدم بها القوات وتُدار بها الجيوش، فإننا يمكن أن نشبه ذلك بالأقواس والسهام. فالجندي يشبه السهم، بينما يُعبر القوس عن قائد الجيوش، والإمبراطور الأعظم هو الرامي في هذا المشهد. إن السهم، الذي يمتاز برأسه المعدني وذيله المصنوع من ريش الطيور، يتسم بالنفاذ والسرعة، حيث تجعله وزنه الأمامي أثقل من مؤخرته، مما يمنحه القدرة على الانطلاق سريعًا حسب توجيهات الرامي.

لكن، عند إدارة الجيوش، يبدو أن مركز الثقل يُحافظ على موقعه في المؤخرة، مما يعكس منطق الأمور، وهذا قد يجعل الجنود أحيانًا عرضة لعدم الطاعة تجاه الأوامر الصادرة لهم، مما يحد من فائدة مراقبة وضع السهام ويجعل فرص التأمل في وجه الشبه غير مُستغلة.

[9] يعقد هذا الفصل مقابلة بين كلٍّ من السهم والقوس والرامي والجندي والقائد الأعلى، على التوالي، من زاوية الخصائص المميزة لأدوارهم؛ تبيانًا لأهمية تضافر هذه العناصر الثلاثة لإحراز النصر. وصياغة هذا الفصل تبدو قريبة الصلة بالفصل السابق مباشرة، سواء في الموضوع أو في التراكيب اللفظية والمفردات؛ فلعلَّه كان — في الأساس — جزءًا مكملًا أو لاحقًا تابعًا لما سبقه، والعنوان من وَضْع إحدى المجموعات القائمة على تحقيق المتن.

إن القوس يمثل القائد بصورة لافتة، فإذا كانت ذراع القوس معوجة، فإن انحناءها يؤثر سلبًا على دقة سهمها، مما يُفضي إلى تباين في مقدار القوة بين طرفيها. وعليه، إذا افتقد القادة إلى التنسيق والقدرة على التواصل، فإن النصر يصبح مستحيلاً. حتى وإن كان السهم سليمًا ومتوازنًا من حيث القوة والمتانة، فإن الرامي غير المؤهل سيضيع فرصته، وتضيع التسديدات.

لذا، إذا كان جيش ما قد تم توزيع تشكيلاته بشكل متوازن بين مقدمته ومؤخرته، ولكنه بقي في غياب قيادة مؤهلة، فلن ينال النصر. لذلك قيل إنه لا بد من توافر الشروط الأربعة المُشار إليها، حتى يُطلق السهم ويصيب المرمى. فالقائد والجندي والإمبراطور يجب أن يتوافر بينهم التنسيق والتفاهم الجيد. وهكذا، ليس هناك فرق كبير بين الطريقة المثلى لتحريك القوات نحو معركة ينتصر فيها الجيش، وبين إطلاق رمية سهم تُصيب الهدف. فهذه مسألة تعكس بشكل مباشر كيفية إدارة الجيوش واستخدام القوات.

الموازنة الذكية والاختيار الصائب[10]

قال سونبين: ما أشبه قيادة الوحدات المقاتلة وتعبئة الجماهير بعملية موازنة بين أثقال وأوزان متباينة. إن الموازنة تُجرى أساسًا لفرز الأكفاء من بين الناس، كما تسعى أساليب التنجيم والعرافة، التي تعتمد على توازن الأضداد مثل "الين" و"اليانغ"، إلى تعزيز قوة التشكيلات في مواجهة العدو. لذا، لا بد من المثابرة على هذه الموازنة في كل شؤون الحياة، حتى نصل إلى حالة من الاعتدال التام والحياد الذي يُطمئن القلوب، مما يمكّننا من الشروع في أداء الواجبات دون عوائق، ما دامت الظروف المواتية قد اجتمعت بفعل تلك الموازنة.

إن هذا الميزان العادل يُعتبر ضروريًا في جميع الأمور، سواء كانت متعلقة بالمصلحة العامة أو الملكية الخاصة. وعلينا أن نتأمل في حال من حاز الثراء والرفاه، فقد أحَبَّ الحياة وكره الممات، بينما يعيش آخرون في ضيق وضجر، حتى تبدو لهم الحياة رخيصة. وهذه مسألة

[10] يناقش هذا الفصل الأسس التي تعين الحاكم على الموازنة بين مكاسب الحرب وخسائرها، والطريقة المثلى لإدارة الموارد واستغلال كل الوسائل الممكنة لإدارة حرب طويلة الأمد، وقد جاء عنوان هذا الفصل خلف الصفحة الأولى في المتن الأصلي المكتشف في الحفائر الأثرية.

لا يفقه كُنهها إلا ملك حكيم أو مفكر قديس، فقد تمكن هؤلاء من التحلي بالتجرد، ليحولوا ساحات القتال إلى مواطن للعطاء والفداء، حيث يقصدها الجميع بإرادتهم الحرة، غير عابئين بالموت أو بهلاك النفس أو المال، مما يفتح بابًا لثروة لا تنفد.

إن استعداد الناس للبذل والتضحية يُحجم الأعداء المتربصين عن غزو الأوطان، ويبعدهم عن الطمع في الاستيلاء على الأراضي. بيد أن تزايد الثروات قد يزرع بذور الفرقة بين الأهالي، مما إذا تُرك دون معالجة، سيدفع النفوس إلى الجحود ونكران الجميل تجاه السادة الأباطرة. لكن إذا شحت الأقوات وندرت الأموال، فإن الأرض كلها ستتزين بشعار الولاء لجلالته.

لذا، فإنني أرى أن العمل على تراكُم الثروة لخدمة الأهالي، وتعزيز الموارد من أجل الوطن، يُعزز الأسباب التي قد تؤدي إلى نشوب حرب طويلة الأمد، ويوفر الشروط اللازمة لتحقيق النصر. وتلك هي الطريقة المثلى التي تُدخل البلاد ساحات قتال دامية.

التجنيد والتعبئة[11]

تعذَّر نقل نصوص المتن، هنا، لما أصاب عبارات الأصل من تلف وفقدان الكثير من خطوط الكتابة فيها، وإن كانت دلالة العنوان وبعض العبارات القليلة المتبقية تشير إلى أن الفكرة الأساسية للمحتوى العام، ربما، كانت تهدف إلى المهارات والفنون التي ينبغي على القادة اكتسابها، وذلك فيما يتعلَّق بتجنيد المقاتلين وتنمية استعدادهم على الإقدام والبذل. بينما يرى محقق النسخة، التي بين أيدينا، أن موضوع هذا الفصل يتصل بالإجراءات الواجب اتخاذها لتقليص عدد المقاتلين، مع تنمية كفاءتهم.

وفيما يلي أقدم ترجمة حرفية للمتن على صورته الوارد بها في النسخة المترجم عنها، دون حتى إقحام كلمة «فراغ» بين قوسين:

---

[11] يتناول هذا الفصل الوسائل التي تمكن القادة من تعبئة الجنود وحشد قواهم المعنوية للبذل والفداء، وهنا، فإنه يكاد يتشابه في موضوعه، مع محتوى أحد فصول كتاب «ويلياو تسي» [أحد أشهر الكتب العسكرية التراثية في فنون الحرب الصينية، ويُعَد المصدر الرئيس لأفكار وإبداع أجيال كاملة من المؤلفين في هذا المجال، أولهم سونزي صاحب كتاب «فن الحرب» المشهور على مستوى عالمي. والمؤسف أن نصوص المتن الأصلي لهذا الفصل لا تكاد تبين؛ لما أصابها من تلف أودى بمعظم عباراتها، فتعذَّر استنطاق دلالتها أو تبيان معناها.]

قال سونزي: «إن الفاضل الحكيم ... فقدان الجنود. كما أن المكافأة والجزاء ... فقدان المقاتلين، وإقامة ... حيث ينبغي إقامة البرهان ... تضاءل عدد الجنود.

...فقدان الجنود ... بينما ... رغم أنف ... أو ... أهليهم، أو مدافن الموتى ... هل ... البعض يموت ... الغذاء ... فإذا توافرت الثقة في النصر، تقرر الدخول في مواجهة مع العدو، على أن يبقى الأمر في سرية تامة ... وقد تكون الوفيات بسبب الأمراض والأوبئة، أو«...

التوجيه المعنوي[12]

قال سونبين: يجب علينا أن نسعى جاهدين لإشعال فتيل الحماسة في قلوب الجنود أثناء تجميع القوات وتنظيم الحشود. فرفع الروح المعنوية عند تقدمهم نحو ساحة المعركة، خصوصًا عندما يقتربون من حدود الوطن لملاقاة العدو، يعد أمرًا جوهريًا. وعندما يحين موعد الالتحام ويُحدد زمن الاشتباك، يصبح من الواجب تحفيز

[12] يتناول هذا الفصل موضوع الدعم المعنوي أثناء القتال، استنهاضًا للعزم وتشجيعًا للإرادة، مبيّنًا أهمية الجوانب المعنوية المتعلقة بالحماس والعزم والتصميم، وكان العنوان الأصلي لهذا الفصل مكتوبًا على ظهر المدونة المكتشفة.

المقاتلين على الاندفاع بشجاعة نحو القتال، إيمانًا منهم بواجبهم في التضحية من أجل الوطن.

فمنذ اللحظة الأولى التي يتم فيها تحديد ساعة القتال، تنطلق الجهود لدعم الروح المعنوية للجنود، إذ تُعد هذه الوسيلة أساسًا لإثارة حماسهم وإيقاظ شعورهم بالقوة والشجاعة. لذلك، يصبح من الضروري تعزيز الدعم المعنوي لهم.

إن أوامر القائد هي الأداة التي تُضفي أجواء من المعنويات القتالية المرتفعة قبيل الاشتباك. يرتدي القائد ثوبًا عسكريًا متواضعًا، تُعرف هذه الهيئة بكونها رمزًا لاستنفار إرادة المقاتلين وإيقاظ روح العزم والتصميم، وهو ما يُعرف باسم «لي تشي» (استثارة الحماس.(

يُصدر القائد أوامره بأن تتحمل القوات ما يكفيها من الحبوب والمؤن لمدة ثلاثة أيام، مُلزمًا الأهالي بتأمين ذلك، حتى يحظر وصول الرسل من القصر الحاكم، ويمنع القادة إرسال المبعوثين من ميدان المعركة إلى القصر، وهو الإجراء المعروف باسم «توان تشي» (قرار الحسم.)

ثم يجمع القائد أفراد الحراسة، مُخاطبًا إياهم بلهجة حازمة: «لا ينبغي أن تكون الإمدادات من الطعام والشراب مُبالغًا فيها، إذ يجب أن نحافظ على الروح المعنوية المرتفعة لدى المقاتلين.«

***

يظهر في بعض النسخ نص آخر يتبع المتن، لكنه يأتي ناقصًا في العبارات، كما أنه يفتقر إلى التوثيق الجازم، مما يجعل ارتباطه بالمتن الأصلي أمرًا غير مؤكد. سأبذل قصارى جهدي لترجمته إلى العربية.

إنه ليثير الحيرة والارتباك؛ فالغرض من ذلك هو تحفيزهم على استصغار شأن العدو، لكن إذا أصابهم الغرور واستصغروا أعداءهم، فإن الهزيمة ستظل قدرًا محتمًا لهم. وعندما تفقد قواتنا الحماس الضروري، ستصير تحركاتها مفعمة بالإهمال والتراخي، مما يؤدي بالضرورة إلى فقدان الفرصة الحاسمة، وهو ما يعني، في النهاية، الهزيمة الماحقة.

عندما تنهزم القوات، وتذبل إرادتها ويتراجع حماسها، سيحل الجبن في نفوسهم. وإذا ما تضاءلت قوى الجنود وترددت عزيمتهم عن الزحف، فإنهم سيتقهقرون بلا شك. وإذا لم يتداركهم القائد في

تلك اللحظات العصيبة، فسوف يُصيبهم ما لا يُحمد عقباه، ويتعرضون جميعًا لمصير مشؤوم.

في مثل هذه الأوقات الحرجة، يجب على القائد أن يأمر بإرسال الرسل إلى الجبهة، لتشجيع المقاتلين وحثهم على التقدم والهجوم، وإلا فإن الفشل سيكون هو المصير المحتوم.

مهام القادة[13]

قال سونبين: يجب على كل من يتولى توزيع القوات وتقسيم الوحدات وقيادة الجيش، أن ينتقي من ذوي الكفاءة والاقتدار لشغل الرتب العسكرية. كما ينبغي على المسؤول في هذا الشأن أن يستخدم الشارات وعلامات الرتب التي تحدد كل درجة ورتبة، إلى جانب استخدام الرايات المتنوعة فوق العربات لتمييز أنواعها وأقسامها. يجب أيضًا استخدام وسائل لتحديد المواقع والصفوف بدقة.

[13] يتناول هذا الفصل مسألة قيادة القوات، فيتطرَّق إلى تفاصيل تتعلَّق بتوزيع وتنظيم وعمل التشكيلات المقاتلة، سواء قبل المعارك أو بعدها، والعنوان الحرفي لهذا الفصل ترجمته: «الباب الأول، في القيادة»؛ مما يظن معه أن هناك تكملة له في باب ثانٍ. وعمومًا فهذا واحد من أكثر الفصول غموضًا في المعنى والْتِباسًا في التصنيف والترتيب.

تُقسم الوحدات العسكرية في البلديات والأحياء وفق توزيع المناطق الإدارية على مستوى الإقليم، ويتولى الضباط مهام عملهم تبعًا لتوزيع الهيئات البلدية الإقليمية. أما الوحدات العسكرية، فتتميز بالرايات المختلفة الألوان، وتُعلن الأوامر بواسطة دق الطبول والصنوج النحاسية. ويجب أن تتحرك الصفوف دائمًا بخطوات منتظمة، حيث يُسند إلى أفراد الشجاعة العظيمة مهمة الحراسة.

فيما يتعلق بالتشكيلات القتالية، يُستخدم تشكيل "سو جن" لاقتحام صفوف العدو، بينما يُستخدم تشكيل "تشيو ني" في محاولة لإرهاق العدو واستنفاد طاقته. كما ينبغي استخدام تشكيل "يون" عند دفع الرماة للاشتباك، في حين يُستخدم تشكيل "إينغ وي" لصد محاولات التطويق من قِبل العدو.

عند استخدام تشكيل "ها سوي"، يتم إغلاق الممرات والطرق للقضاء على وحدات العدو المتقدمة. أما تشكيل "بيفو"، فهو الأنسب عند الاستعداد لمساندة قوات صديقة، في حين يُعتبر تشكيل "تسو هانغ" الطريقة الأمثل لإعلان العزم على القتال. ويمكن دفع قوات خفيفة للقضاء على فلول العدو المتبقية.

بالإضافة إلى ذلك، يُستخدم تشكيل "شينغ تشن" لمهاجمة المدن الحصينة، وإذا تحصن العدو في مواقع مرتفعة، يمكن مهاجمته من الأجناب. في سياق القتال العام، وعند الاشتباك المباشر بين الجنود في ساحة المعركة، يجب إطلاق العنان للطليعة المقاتلة، التي تؤدي حينئذٍ دورًا فعالًا ومتميزًا. وإذا وُجد العدو محاصرًا في مواقع جبلية منيعة، ينبغي استدراجه عبر فم الوديان إلى خارج تلك المواقع، ليسهل القضاء عليه.

عند عبور القوات منطقة الأحراش والمستنقعات، يجب أن يُبادر القادة إلى شق الدروب وتمهيد الطرق منذ وقت مبكر، لتسهيل التنقلات والمناورات. وإذا ما توجّه النصر إلى القوات، فإنه ينبغي التحلي بالانضباط والالتزام بالنظام، حفاظًا على هيبة تُشرّف بلدًا وجيشًا منتصرًا، وتبعث في النفوس الخوف والاحترام.

وعند اجتياز الطرق الجبلية الملتوية، يجب أن يُعتمد تشكيل «شان تشيو» (التشكيل الدائري) ليحمي الجنود من زوايا الخطر. أما إذا كانت التحركات تتنقل عبر أحراش كثيفة، حيث تعجز الأقدام عن التقدم فوق الأشواك والحشائش البرية، فإن تشكيل «وي» (تشكيل

الطرق المتعرجة) يصبح الخيار الأمثل، لكي تبقى الوحدات في خطوط متصلة، كالنهر الجارف الذي لا ينحرف عن مساره.

وليس أدعى من استنزاف طاقة العدو عبر تشكيل «يا نشين»، أما في المواقع ذات الأهمية الاستراتيجية، فلا بد من استخدام تشكيل «تسا قوان»، الذي يعبّر عن القوة والحنكة. وفي حالة الانسحاب، يُعتمد تشكيل «بنغ تسو»، أما عند عبور الممرات الجبلية، فيكون تشكيل «تشيو تسي» هو الأنسب.

إن الهجوم على مدن العدو يجب أن يكون كالسيل الجارف، مدمرًا وعاصفًا، لا يترك خلفه شيئًا يُذكر. وفي حال الانسحاب الليلي، يجب إبلاغ الأوامر عبر رسائل مختصرة ومشفرة، واضحة كضوء القمر في ظلام الليل. من الضروري أن تكون هناك دقة متناهية في إجراءات الأمن، وأن تُسأل كلمة السر خلال نوبات الحراسة.

عند الإقدام على تشكيل هجوم مباغت، يجب اختيار العناصر المدربة ذات المهارات القتالية العالية، لضمان تنفيذ الخطط بحرفية. ويجب تفعيل دور العربات العسكرية، التي تلعب دورًا حيويًا عند الاشتباك مع صفوف العدو، حيث يمكنها إشعال الحرائق في عتاد

القوات المعادية، كالنيران التي تلتهم الحشائش الجافة في صيف قائظ.

وعند الحاجة إلى اختراقات هجومية فعالة، ينبغي استخدام التشكيل المخروطي، الذي يُعبر عن الشجاعة والتحدي. وإذا ما نقص عدد القوات عن الحد المطلوب، يجب تكثيف القوة العسكرية وتركيز الطاقة القتالية، لمنع العدو من تطويق الجنود.

إن تنظيم الصفوف وضبط توزيع الوحدات، واستخدام الشارات والأعلام والبيارق، كلها تدابير تمهد السبيل لعمل التشكيلات القتالية. والغرض من تكوين تشكيلات كثيفة، كقطرات السحاب المتراكمة، هو المبادرة بالإغارة على قوات العدو، حيث تتقدم الوحدات بسرعة البرق، فتتزعزع صفوف العدو تحت ضربات الهجوم القاتل.

أحط نفسك بسياج من التعمية، واحرص على التحرك في خفاء الليل، لتنصب كمينًا في خفاء كظلال الأشجار. اجعل من الاستكانة والتخاذل مكيدة توقع بها قوات العدو، واجذبهم إلى ساحة المعركة فوق الهضاب والمرتفعات. يمكنك أيضًا التظاهر بالوقوع في تحركات

خاطئة، لاستدراج العدو نحو عبور النهر، فتواجهه وسط الماء، حيث تضعه في شباك الفخ.

وابتعد عن تسرب خططك القتالية إلى الجنود، لكي يبقوا في حالة من المثابرة والعزم على القتال، مقدّمين أرواحهم في الاشتباك. لتقم الأودية والخنادق كفاصل بينك وبين العدو، فتتمكن بقواتك الأقل عددًا من التفوق على حشودهم الكثيفة، في مشهد يذكره التاريخ.

يمكنك أن تثير الفوضى والارتباك في صفوف العدو بتوزيع هياكل خداعية من الأسلحة والمعدات، وما ترفعه من بيارق وأعلام تتلاعب بعقله، كوسائل للتمويه والإغواء. اجعل من تشكيلات «العاصفة» والعربات الحربية الخفيفة أدواتٍ تسلّط على فلول القوات الهاربة، وإذا ما ألحقْتَ الدمار بهم حتى لا يُقوَى لهم عود، فبادر بتوجيه تحركات جيشك إلى أماكن جديدة، تحسبًا لهجوم أعداء آخرين، أعتى وأكثر بأسًا.

استخدم تشكيل «فو جيو» للانقضاض على العدو، مجبرًا إياه على الانغماس في أتون «حرب الأنفاق»، حيث تُضيق المرتفعات الجبلية المحيطة المساحات، مما يسهل القضاء على تلك القوات المشتتة.

إن الجنود الذين يرتحلون في الميادين بلا لباس الحرب، والذين يجوبون الفوضى كالأشباح، يمكن أن يكونوا سلاحك الفتاك لخداع العدو. اختر أشجع وأمهر المقاتلين لمواجهة طليعة العدو، وتشكّل تحت راية «جيان» (الصلابة والثبات)، مع تعبئة القوات بتركيز عالٍ للطاقة القتالية، لتوجيه ضربة قاضية إلى القلب النابض لعدوك.

تلك الأسوار والموانع من الحشائش والنباتات التي تزرعها، ليست سوى أدوات لإثارة الارتباك بين صفوف العدو. كما يمكنك التظاهر بالتخلي عن بعض المؤن والذخائر، وكأنها وسيلة لإغواء العدو بخداعه بأوهامٍ وهمية. أوقع بهم المزيد من العقبات، فإن ذلك لن يُستنفد طاقاتهم وحسب، بل سيزيد من حيرتهم وفوضاهم.

وفي خضم القتال الليلي، استعن بالضوء الكاشف، ووجه تحركاتك وفق الأصوات العالية التي تحمل الرسائل الواضحة. اجعل من تخزين المؤن والعتاد العسكري ضرورة في أماكن متفرقة لتسهيل الانتصارات. جهّز قواتٍ خاصة ذات كفاءة عالية، لتكون السد المنيع ضد أي هجوم مفاجئ قد يطلقه العدو.

[هنا، انتهى النص الوارد في إحدى النسخ المحققة، بينما أضافت نسخة أخرى الفقرة التالية إلى المتن: «إن تناوب القوات الخاصة على [فراغ]، ثم إن الابتعاد عن خطوط المواجهة مع العدو يرفع عن كاهلك الكثير من المشاغل ويخلصك من الأزمات]».

[ورد بعد هذا الجزء نص آخر، ملحق به، لكنه غير مكتمل العبارات، مليء بالفراغات يكاد يخلو من سياق مترابط، ومن ثم تعذر نقله إلى العربية].

طرق التدريب الخمس[14]

قال سونبين: إن الخبير بشؤون التدريب العسكري لا يمكن أن يجرؤ على المساس بالمبادئ الأساسية والقواعد العامة التي تحكم هذا الفن من فنون الحرب، سواء عند الإقامة في المعسكرات أو أثناء بناء المخيمات والمواقع. فهو يتجنب تعديل تلك المبادئ وفقًا لأهوائه، إذ إنها تتكون في مجموعها من خمس نقاط رئيسة:

النقطة الأولى :تدريب القوات في الجانب السلوكي وتنظيم التشكيلات.

[14] يتناول هذا الفصل خمس نقاط تتصل بتنظيم القوات وكيفية توزيع التشكيلات وطرق الإعاشة، وإقامة المنشآت العسكرية، بالإضافة إلى ما يتعلق بطرق وفنون الالتحام مع قوات العدو، لكن المشكلة أن جزءًا كبيرًا من المتن قد أصبح تالفًا بالدرجة التي يصعب معها الوصول إلى معنى واضح للمحتوى.

والجدير بالذكر، أن هذا الفصل لم يدخل ضمن نصوص الكتاب الذي بين أيدينا في نسخته الصادرة سنة ١٩٧٥م؛ بسبب الشكوك التي ثارت حول صحة المتن في هذا الجزء ومدى اتصاله بأفكار الكتاب الأساسية، ومن ثَمَّ، فقد تشكَّلت مجموعة من الخبراء رأت إمكانية استيعاب هذا الفصل ضمن محتوى الكتاب، وهكذا فقد صدرت نسخة مزيدة منه في ١٩٨٥م، وهي النسخة التي اعتمدتها طبعات كثيرة، من بينها تلك الطبعة التي اهتممت بترجمتها إلى العربية.

النقطة الثانية :التدرب على التحرك وإقامة المعسكرات.

النقطة الثالثة :التدريب فيما يتصل بقواعد الضبط والربط داخل الوحدات.

النقطة الرابعة :التدرب بخصوص التشكيلات القتالية.

النقطة الخامسة :التدرب على التمويه والتخفي كوسيلة لشن الهجوم المباغت.

فلنتحدث بتفصيل أكثر حول الطريقة الأولى المتعلقة بتدريب القوات في النواحي السلوكية. يشير المحققون إلى أن هذه الطريقة تتعلق بكيفية تشكيل الوحدات بالإضافة إلى المعايير السلوكية المتعارف عليها. وتتجلى هذه المعايير في خصال أخلاقية خمس؛ مثل البر بالوالدين، واحترام الأكبر سنًّا، وحسن معاشرة الزوج، والتي ينبغي أن يتصف بها كل مقاتل. فإذا لم تتوافر هذه الخصائص في أحدهم، فلا يحق له أن يطأ بقدميه ساحة المعركة أو أن يركب عربة حربية، حتى وإن كان من أمهر الرماة.

كما ينبغي أن يُخصص مكان الرماة المهرة إلى الجهة اليسرى من المركبة العسكرية، بينما من يبرز في القيادة يجلس في المنتصف، ويكون أقصى اليمين من نصيب من لا يملك أيًّا من المهارتين المذكورتين. وتجدر الإشارة إلى أن سعة كل مركبة هي ثلاثة جنود فقط.

أما عن التنظيم، فإن كل خمسة أفراد يشكلون جماعة تُعرف بـ«أو»، بينما تتشكل الصفوف العسكرية (الـ«لي») من عشرة أفراد، وكل مائة فرد يتشكلون في وحدة تُعرف بـ«تسو»، وكل ألف فرد يشكل وحدة قيادية تُسمى حرفيًا «وحدة ذات طبول حربية»، بينما يشكل عشرة آلاف فرد «رونغ» أو الجيش. وكلما اتسع النطاق لاستيعاب أعداد أكبر، أمكن تشكيل وحدات عسكرية مقاتلة.

لكن ماذا عن الطريقة الثانية في التدريب على التحرّك وإقامة المعسكرات؟ يتعين على قادة الوحدات تحمل المسؤولية الكاملة في حال تحطمت المركبات أو أُنهكت الخيول. لذا ينبغي عليهم أن يقودوا في الظروف الصعبة، إذا ما صادفوا عقبات تعيق تقدمهم. وعليهم أن

يبادروا على الفور إلى اتخاذ الإجراءات اللازمة لمواجهة تلك العقبات، فذلك هو جوهر الطريقة المتعلقة بالتحرك وإقامة المعسكرات.

أما بالنسبة لقواعد الانضباط داخل الوحدات، فإنها تشكل الأساس المتين الذي لا غنى عنه في تنظيم القوات. وكيفية التدرب عليها تتطلب الالتزام الدقيق والانضباط الصارم، فما هي طريقة التدريب بشأن التشكيلات القتالية؟

يتطلب ذلك دراسة دقيقة للخطط الاستراتيجية، والانتباه إلى كيفية تحرك القوات في ساحات القتال، مما يضمن استجابة سريعة ومنسقة في مواجهة أي تهديدات.

إن الإمداد والتسليح يعدان أهم ركن في التشكيل القتالي، وهما جزء لا يتجزأ منه، إذ يُعتبران العمود الفقري الذي يسند جميع جوانب العمليات العسكرية. فبهما يمكن تفعيل كل العناصر المتاحة وتحقيق التوازن بين القوة والمرونة في ساحة المعركة. وعليه، يمكن استخدام أساليب متعددة لتنظيم القوات، بالإضافة إلى تنويع الأشكال المختلفة لتوزيع الوحدات، وذلك في سياق الحديث عن طرائق التشكيلات القتالية.

لكن، ماذا عن أساليب التخفي كوسيلة من وسائل (أو تكتيك) القتال؟ إن التخفي يمثل فنًا في حد ذاته، يتمثل في القدرة على الاختباء عن أعين العدو، والإفلات من مراقبته. فالبراعة في استخدام التضاريس الطبيعية، والاعتماد على الظلام، والتكيف مع عناصر البيئة، كلها أدوات أساسية تساهم في تعزيز فرص النجاح في المعارك.

تتطلب هذه الأساليب تدريبًا دقيقًا، حيث يجب على المقاتلين إتقان فنون التمويه وتخطيط التحركات بحيث تظل سرية وغير مكشوفة، مما يمنحهم أفضلية في الهجوم المباغت أو الانسحاب عند الضرورة. إن الاستفادة القصوى من عناصر التخفي يمكن أن تقلب موازين المعركة، فتضع الخصم في موقف حرج، لا يدري من أين تأتيه الضربة.

وفي ختام هذا الفصل، تظهر عبارات قصيرة بالصينية الكلاسيكية، تحمل دلالات عميقة، غير أنه يصعب فهمها لندرتها وغموض تركيبها وكثرة الفراغات البينية التي تنقصها.

تقوية الجيش[15]

تحدث الملك وي، حاكم دولة تشي، إلى سونبين، فوجه إليه سؤالًا مُباشرًا قائلاً: «لقد أوصاني الكثير من العلماء في بلادي بضرورة تقوية جيشنا، وقد طُرحت عليَّ أفكارٌ عديدة، واكتشفت أن كل فريق منهم يقدم لي نصيحة تختلف عن سابقتها. فبعضهم يوصيني بالتركيز على تعزيز الجوانب السياسية والأخلاقية، بينما يُشدد آخرون على أهمية كسب رضا الناس من خلال إغداقهم بموارد العيش الوفير. في حين يذهب آخرون إلى أن الطريق الأنجع هو أن أدع الأمور تسير وفق مسارها الطبيعي، مُتبعًا مبدأ «أو وي» الذي يدعو إلى الانسيابية

[15] يرى محقِّقو إحدى النسخ المترجم عنها الكتاب، أنه وبالرغم مما جرت به العادة في نسبة هذا الفصل القصير إلى ما قيل إنه حوار جرى بين سونبين والملك شيوان، حاكم دولة تشي، بخصوص المسائل ذات الصلة بتقوية الجيش ودعم أمن واستقرار البلاد، فإن الفحص الدقيق لعباراته وألفاظه يبرز اختلافًا واضحًا عمَّا هو مألوف في صياغات سونبين التقليدية، ومن ثَمَّ ينشأ الظن بأن إضافات أو تعديلات قد جرت في صياغة النص الأصلي للكتاب على يد المتأخِّرين من الدارسين الذين أعقبوا سونبين في تحصيل علوم الحرب عَبْر مؤلفاته، بل أكبر الظن أن هذا النص أقرب بمصطلحاته وصياغته إلى فصل بعنوان: «أسئلة الملك وي»، وتجدر الإشارة، هنا، أيضًا أن عنوان هذا الفصل من اختيار المحقِّقين.

والتدفق دون تدخل بشري. لكن، سيدي، ما الذي يجب عليَّ التركيز عليه لتقوية جيشنا في هذه اللحظة؟«

أجاب سونبين: «إن ما ذُكر ليس ضروريًا في الوقت الراهن. الأهم هو أن نبدأ بتنمية البلاد وزيادة ثروتها«.

عقب الملك: «إن تنمية البلاد تُعتبر حجر الزاوية لذلك، فقد كانت هذه الاستراتيجيات هي ما استخدمه كل من الملك وي والملك شيوان، مما مكَّنهما من التغلب على أمراء الدويلات وإخضاعهم«.

***

وفي نهاية هذا الفصل، وُجدت فقرات غير مكتملة، لم يقم المحققون بشرحها. سأحاول، بناءً على المعنى الظاهر من السياق، ترجمتها إلى العربية رغم افتقارها للكثير من العناصر.

»كانت دولة تشي تقترب من الانتصار، وكان هذا السبب وراء نجاحها في التغلب على مملكة يان. وعندما انتشر الخبر، أدرك الجميع معناه، واهتدوا إلى أن ذلك هو ما أفضى إلى انتصار دولة تشي على دولة تشو، مما ساهم أيضًا في هزيمة دولة جاو. وبعد ذلك، وقع

القائد العسكري المعروف «فان قاو» في الأسر، كذلك وقع القائد «طانغ» في فخ الهزيمة، حيث«...

الفصل الثاني

شن الحرب

(يؤكد المعلقون على الكتاب أنه يجب على من يريد خوض حرب أن يحسب تكلفتها أولاً،وهو ما يعطينا نبذة عن محتوى هذا الفصل لثاني)

1. قال سون تزو: في مجريات الحرب، حيث هناك في الميدان ألف مركبة حربية خفيفة وسريعة (للهجوم)، ومثلها من المركبات الثقيلة (للدفاع)، ومئة ألف جندي مشاة مدرع، يحملون إمدادات تكفيهم للسير ألف لي (لي هي وحدة قياس مسافة صينية تعادل الميل تقريباً)، وقتها ستبلغ النفقات العامة – في الداخل وعلى الجبهة المتضمنة ترفيه ضيوف الدولة والنثريات مثل نفقات الغراء والدهان، ونفقات صيانة العربات الحربية والدروع، تبلغ هذه النفقات ما يعادل ألف أونصة فضة في اليوم، وهذه هي تكلفة تجيش جيشا قوامه 100 ألف رجل

2. عندما تلتحم في قتال فعلي، فتتأخر بشائر النصر، فستبدأ أسلحة الجنود تفقد دقتها، وستنطفئ حماسة أولئك الجنود. إذا حاصرت مدينة، فسترهق قواك

3. مرة أخرى، إذا طال أمد حملتك العسكرية، فموارد الدولة لن تواكب نزيف النفقات العسكرية

4. الآن، وبعدما فقدت أسلحتك دقتها، وانهارت الروح المعنوية العامة، وخارت قواك واستنفدت مواردك، فسيبدأ بقية الحكام المجاورين لك في التطلع لانتهاز فرصة تهورك وانهيارك. وقتها لن يستطيع أحد – مهما كان حكيما – أن يحول دون حدوث العواقب الوخيمة التي ستحدث نتيجة لذلك.

5. هكذا، ورغم أننا سمعنا الكثير عن التسرع الأحمق لخوض الحرب، فالمهارة لم تقترن أبدا بأي فترات تأخر طويلة. (القائد الغبي بطبيعته لن ينتصر أبدأ باستخدام القوة الغاشمة في سرعة كبيرة. نعم، التحرك بسرعة كبيرة قد يكون من الغباء، لكنه رغم ذلك يقلل النفقات اليومية وتدهور المعنويات واستهلاك الطاقات. قد يكون التأني من الحكمة، لكنه يجلب معه الهدوء والسكون. إذا كان النصر

يمكن إحرازه، فالتسرع الأحمق أفضل من التأني الماهر. إذا كانت السرعة تعتبر أحيانا عملا طائشا (لا حكمة منه) فالتباطؤ يعتبر عملاً أحمقا (سخيفا) بسبب ما يسببه الأخير من استنزاف لموارد الأمة.

6. لا توجد سابقة تاريخية تذكر أن بلداً ما قد استفاد من دخوله حروباً طويلة.

7. إن المخضرم _ العالم بويلات إطالة الحروب_ هو فقط القادر على فهم أهمية وجوب إنهاء الحروب بسرعة .

8. الجندي الماهر لن ينتظر ليحصل على راتبه مرة أخرى، ولن يتم تزويده بالإمدادات أكثر من مرتين (أي عليه أن يسرع فيدخل في قلب المعركة دون تباطؤ أو انتظار – فيسبق بذلك خصمه)

9. اجلب العتاد الحربي معك من خطوطك الخلفية، وأما المشرب والمطعم (المئونة) فمن أرض العدو. هكذا سيكون لدى الجيش ما يكفيه من طعام وشراب.

10. نضوب معين الخزانة العامة للدولة ينتج عنه الحاجة لإمداد الجيش عن طريق التبرعات من أماكن بعيدة، وذلك يتسبب في إفقار موارد الشعب.

11. من ناحية أخرى، اقتراب الجيش (تلاحمه مع العدو) يتسبب في ارتفاع الأسعار الداخلية، ما يؤدي لاستنزاف ثروات الشعب

12. عند نفاد ثروات الشعب، سيعانون بشدة من الضرائب المفروضة عليهم.

13. مع ضياع الثروات وخوار القوى، تصبح بيوت الشعب شبه خاوية، وسيتبخر ثلاثة أعشار دخلهم، بينما النفقات الحكومية لإصلاح العربات الحربية والدروع والخوذات والأقواس والأسهم والرماح والتروس واستبدال الجياد المنهكة والثيران المحملة، ستبتلع كل هذه النفقات أربعة أعشار الدخل العام

14. هكذا فالقائد الحكيم سيعتمد على العدو كمصدر للطعام والمئونة. عربة واحدة محملة بمئونة العدو تعادل عشرين عربة من خطوط الإمداد (لأن وصول عربة واحدة للجبهة يستهلك محتويات

20 عربة) وبالمثل فإن ما وزنه بيكل (وحدة وزن تعادل 65.5 كيلوجراما) من طعام العدو يعادل عشرين من مخازن الدولة.

15. الآن ولقتال العدو فلا بد من إثارة غضب الجنود، ولا بد من توضيح مزايا الانتصار على العدو، فلا بد وأن يحصلوا على مكافآتهم (نصيبهم من غنائم الحرب)

16. لذا عند الاستيلاء على عشرة عربات حربية أو أكثر، يجب مكافأة أول من استولى على العربة الأولى. يجب استبدال أعلام العدو المشرعة على تلك العربات بأعلامنا، ويجب خلط تلك العربات المستولى عليها بعرباتنا واستعمالها في القتال. يجب معاملة الأسرى من الجنود بطيبة والإبقاء عليهم

17. هذا ما يطلق عليه استخدام غنائم العدو المقهور لزيادة قوتنا الذاتية

18. إذا ليكن همك الأول والأكبر في الحرب هو تحقيق النصر، لا إطالة أمد الحملات العسكرية

19. هكذا يمكن القول أن قائد الجيوش هو المتحكم في أقدار الشعب، فهو الرجل الذي يعتمد عليه ما إذا كانت الأمة ستعيش في سلام أم في خطر

الهجوم بالخداع Attack By Stratagem

(التخطيط للهجوم)

1. قال سون تزو : التطبيق الأفضل لإجادة فن الحرب هو أن تغنم مدينة العدو كاملة وسالمة، وأما تقسيمها وتدميرها فليس بأفضل شيء. أيضا، من الأفضل أن تأسر جيش العدو كاملا عوضا عن أبادته، وأن تأسر فرقة، فصيلة، أو سرية سالمين أفضل من القضاء عليهم

2. هكذا فإن القتال والانتصار في جميع المعارك ليس هو قمة المهارة، التفوق الأعظم هو كسر مقاومة العدو دون أي قتال

3. أعلى درجات البراعة العسكرية هي إعاقة خطط العدو بالهجوم المضاد، يليها منع قوات العدو من الالتحام ببعضها البعض (عزلها وقطع خطوط الاتصال والإمدادات) يليها الهجوم على جيش

العدو في الميدان، وأما أسوأ السياسات وفهو حصار المدن ذات الأسوار العالية (المنيعة)

4. القاعدة هي ألا تحاصر المدن ذات الأسوار إذا كان يمكن تجنب ذلك. إن تجهيز الأبراج القابلة للتحريك، والحصون النقالة، والعديد من التطبيقات الحربية اللازمة، سيستغرق ثلاثة أشهر كاملة، وإهالة التراب أمام تلك الأسوار سيستغرق ثلاثة أشهر إضافية

5. القائد غير القادر على التحكم في ضجره من مرور الوقت دون أي مردود سيأمر رجاله بالهجوم مثل قطعان النمل كثيرة العدد، قبل حلول الوقت المناسب لذلك، والنتيجة تعرض ثلث جيشه للذبح، بينما تقف المدينة عصية. هذه بعض الآثار الكارثية للحصار.

6. القائد البارع يقهر قوات العدو دون أي قتال، وهو سيفتح مدن العدو دون حصارها، وسيسقط نظامها الحاكم دون عمليات عسكرية طويلة في الميدان. (يسقط الحكومة دون المساس بالمواطنين). هذه الحكمة لو اتبعها الساسة الأمريكان في غزو العراق لوفروا الكثير من المآسي المحزنة، علينا وعلى أنفسهم.

7. إبقاء القائد البارع قواته سالمة سيشكك بقوة في نفوذ العدو وحكمه، وهكذا- دون فقدان جندي واحد- يكون الانتصار قد بلغ حد الكمال. هذه هي طريقة الهجوم بالخداع.

8. القاعدة في الحرب أنه إذا كانت نسبة قواتنا إلى العدو 10 إلى واحد، فحاصر العدو، وإذا كانت خمسة إلى واحد فهاجمه فورا، وإذا كانت الضعف فيجب تقسيم جيشنا إلى نصفين (النصف الأول قد يستخدم في القتال، بينما الثاني في الخداع، أو نصف يهاجم من المقدمة بينما الثاني يهاجم المؤخرة).

9. إذا كانت النسبة متكافئة (1:1) فيمكن أن نقاتل (حينها سيفوز القائد الأقدر) وإذا كان الفرق ضئيلا في غير صالحنا، فيمكننا تجنب العدو، وإذا كان الفرق كبيرا في أكثر من وجه مقارنة، فيجب أن نفر من العدو

10. هكذا، رغم أن الفرقة قليلة العدد يمكنها أن تقاتل بضراوة، لكنها في النهايةسيتم أسرها من قبل القوات المعادية الأكثر عددا

11. الآن وبينما القائد هو حصن الدولة، فإذا كان هذا الحصن كاملا من جميع الجهات، فالدولة ستكون قوية، أما إذا كان هذا الحصن به عيوب، فالدولة ستكون ضعيفة.

12. هناك طرق ثلاث يجلب بها الحاكم المحن إلى جيشه :

13. إصدار الأوامر للجيش بالتحرك أو التقهقر، جاهلا بحقيقة أن الجيش غير قادر على إطاعة الأمر. هذا ما يسمى إعاقة الجيش. (استخدام كلمة حاكم يقصد بها صاحب الأمر في الخطوط الخلفية، فإدارة الجيوش يجب أن تتم عن بعد، وليس على خط المواجهة)

14. قيادة الجيش بذات الطريقة التي يحكم بها الدولة، جاهلا بالظروف التي يواجهها الجيش. ذلك يسبب الضيق والقلق في نفوس الجنود

15. تعيين الضباط في جيشه دون تفرقة (لا يضع الرجل المناسب في المكان المناسب) بسبب جهله بالأعراف العسكرية المتعلقة بالتكيف حسب الظروف المحيطة. ذلك يهز ثقة الجنود في الحاكم.

16. لأنه عندما يصبح أفراد الجيش قلقين وغير واثقين في الحاكم، فالمشاكل حتماستأتي من بقية زعماء العشائر. ذلك ببساطة هو إلحاق الفوضى بالجيش، ورمي النصر بعيداً.

17. هكذا نعرف أن هناك خمس أساسيات للنصر من ينتصر يعرف جيدا متى يقاتل ومتى لا يقاتل. من ينتصر يعرف كيف يتعامل مع مختلف أشكال القوة: كثيرها وقليلها من ينتصر هو من تحرك جيشه روح معنوية واحدة على جميع مستويات القادة والجند. من ينتصر هو من جهز نفسه جيداً، ثم انتظر ليأخذ عدوه على غفلة منه. من ينتصر هو قائد لديه صلاحيات كاملة ولا يتدخل الحاكم معه في حيثيات عمله. (الحاكم يصدر أوامر عامة، بينما القائد هو من ينفذ تلك الأوامر بالطرق التي تتراءى له)

18. إذا إذا كنت تعرف العدو وتعرف نفسك – فلا حاجة بك للخوف من نتائج مئة معركة. إذا عرفت نفسك لا العدو، فكل نصر تحرزه سيقابله هزيمة تلقاها. إذا كنت لا تعرف نفسك أو العدو – ستنهزم في كل معركة .علمك بعدوك يعرفك كيف تدافع، علمك

بنفسك يعرفك كيف تهاجم – الهجوم هو سر الدفاع، والدفاع هو التخطيط للهجوم)

المناورات التكتيكية Tactical Dispositions

(يرمز اسم هذا الفصل إلى تحركات الجيوش المتحاربة ذهاباً وإياباً جنباً إلى جنب من أجل اكتساب معلومات عن الطرف الآخر)

1. قال سون تزو نأى المقاتلون القدامى الماهرون بأنفسهم بعيدا عن قابلية تعرضهم للهزيمة، وهم انتظروا فلم يبادروا بالهجوم حتى تلوح الفرصة لهزيمة العدو.

2. مسؤولية حماية أنفسنا من تلقي الهزيمة تقع على عاتقنا نحن، لكن فرصة هزيمة العدو يوفرها لنا العدو نفسه (عبر خطأ يقع فيه)

3. المقاتل الجيد يحصن نفسه ضد الهزيمة (عبر إخفاء تحركاته وأثره، واتخاذ إجراءات أمنية احترازية دائمة ومشددة) لكنه لا يستطيع تأكيد إمكانية هزيمة العدو (فالعدو هو من يهزم نفسه)

4. قد تعرف السبيل إلى قهر عدوك، دون أن تكون قادراً بالضرورة على تحقيق ذلك.

5. التحصن ضد الهزيمة يستلزم إتباع التكتيكات الدفاعية، وأما القدرة على هزيمة العدو فتعني انتهاز الفرصة. (من لا يستطيع قهر عدوه عليه اتخاذ الوضع الدفاعي)

6. اتخاذك الوضع الدفاعي يشير إلى قوة غير كافية، بينما الهجوم يستلزم توفر القوة الزائدة.

7. القائد العسكري الماهر في الدفاع يختبئ في سابع أرض (النص الصيني يذكر تاسع أرض – وهي كناية عن أكثر الأماكن سرية وكتمانا)، القائد العسكري الماهر في الهجوم ينقض كالبرق من أعالي السماء (السماء التاسعة – كناية عن السرعة الكبيرة، والقدوم من أماكن غير متوقعة، بما لا يدع أي فرصة للعدو للاستعداد). من الناحية الأولى، فنحن بأيدينا حماية أنفسنا، ومن الناحية الأخرى، فبإمكاننا إحراز النصر الكامل.

8. رؤية النصر حين يستطيع الرجل العادي رؤيته قادما ليست هي قمة التميز(.بل أن ترى النبتة قبل أن تنبت، وأن تتوقع ما سيحدث قبل حدوثه.)

9. كما أن قمة التميز ليست هي أن تحارب وتقهر ثم تقول لك الدولة كلها "حسنا فعلت _ سلمت يداك :. (قمة التميز هي التخطيط بسرية كاملة، وأن تتحرك بحذر شديد، وأن تحبط نوايا العدو وتفسد مخططاته، وأن تنتصر عليه دون إراقة قطرة دم واحدة)

10. أن ترفع شعرة رفيعة من فراء أرنب بري في موسم الخريف لا يعني القوة العظيمة (مثل شائع في اللغة الصينية ويعني أدق شيء)، رؤية الشمس والقمر ليست علامة البصر الحاد، سماع الرعد ليس علامة السمع الحاد

11. ما أطلق عليه القدامى المقاتل الماهر هو من لا ينتصر وحسب، بل يبرع في الانتصار بكل سهولة ويسر. (من يقصير نظره على ما هو واضح جلي ينتصر بصعوبة، من يتخطى ببصره حدود المعتاد – ينتصر بكل سهولة)

12. وبالتالي تجلب انتصاراته له السمعة الطيبة نتيجة حكمته الواسعة، وتجلب له التقدير على شجاعته.

13. هو إنه ينتصر في معاركه بعدم ارتكابه لأي خطأ. عدم الوقوع في أي خطأ ما يؤسس لتأكيد النصر، وهو ما يعني هزيمة عدو قد انهزم بالفعل.

14. المقاتل الماهر يقف في مكان يستحيل هزيمته فيه، وهو لا يضيع الفرصة السانحة لهزيمة العدو

15. في الحرب، القائد الاستراتيجي المنتصر هو من يذهب للقتال بعدما ضمن النصر، حيث هو المقدر له أن ينتصر في أولى معاركه وبعدها ينتظر النصر المظفر. (في الحرب، ابدأ بوضع الخطط التي تضمن النصر، ثم قد جيشك إلى المعركة؛ إذا لم تبدأ بالخداع واعتمدت عوضا عنه على القوة الغاشمة فقط، فالنصر بذلك يصبح غير مؤكد)

16. القائد شديد البراعة يراعي القانون الأخلاقي، ويلتزم بشدة بالنظام العام، وهكذا يصبح بإمكانه التحكم في النصر.

17. من وجهة النظر العسكرية، عناصر فن الحرب هي قياس المسافات ومسح الأرض (لتقدير قوة العدو) تقدير الكميات (حساب حالة العدو) حسابات الأرقام (وضع قيمة رقمية لقوة العدو) المقارنة (المعرفة العلمية لبيان قوتنا مقارنة بقوة العدو) احتمالات النصر (نتيجة المقارنة)

18. الجيش المنتصر مقارنة بالمنهزم هو كثقل وضع على كفة ميزان مقابل حبة صغيرة

19. اندفاع القوات المنتصرة يعادل تدفق المياه المتفجرة من فجوة عالية إلى الأعماق السحيقة.

الطاقة energy

(القوة العسكرية الإستراتيجية)

1. قال سون تزو : طريقة تنظيم وإدارة قوة كبيرة هي ذاتها طريقة تنظيم وإدارة فرقة صغيرة مكونة من بضعة رجال: إنها مسألة تقسيم العدد الكبير إلى مجمو. صغيرة. (تقسيم قوات الجيش إلى فرق وسرايا وفصائل ومجمو ووحدات، مع تعيين قائد لكل وحدة)

2. القتال وتحت إمرتك جيش كبير لا يختلف عن القتال مع وحدة صغيرة، فهي مسألة وضع أسس استعمال العلامات والإشارات والرموز في التواصل

3. للتأكد من أن جيشك يستطيع تحمل وطأة هجوم العدو ويبقى متماسكا غير مهزوز - يتحقق ذلك من خلال القيام بمزيج من المناورات المباشرة ("شينج" الإيجابية) والمناورات غير المباشرة ("تشي" – السلبية)، من أجل إرباك العدو. (هدف المناورات العسكرية وقت الحرب هو تضليل العدو فلا يعرف نوايانا الحقيقية)

4. تأثير جيشك يجب أن يكون مثل تأثير الحجر الصلب المندفع بقوة جبارة ضد بيضة – يتحقق ذلك عبر تعلم ومعرفة نقاط الضعف والقوة (في كلا الطرفين: أنت والعدو)

5. في جميع أوجه القتال، يمكن انتهاج الطريقة المباشرة من أجل الانضمام إلى المعارك، أما الطرق غير المباشرة فيتم اللجوء إليها من أجل تأمين النصر.

6. معين التكتيكات غير المباشرة –في حالة تم تطبيقها بكفاءة- لا ينضب أبدأ، تماما مثل السماء والأرض، لا نهاية لها، مثل جريان

الأنهار وفيضان العيون، مثل الشمس والقمر اللذان يغيبان فقط ليشرقا من جديد، مثل الفصول الأربعة، التي تمر فقط لتعود من جديد.

7. ليس هناك أكثر من خمس علامات موسيقية، ورغم ذلك فإن مزج هذه الخمسة ساعد على تأليف ما لا يمكن عده من القطع الموسيقية والألحان، وبأكثر مما يمكن سماعه على الإطلاق.

8. ليس هناك أكثر من خمسة ألوان أساسية (أزرق، أصفر، أحمر، أبيض، أسود) ورغم ذلك فإن مزج هذه الألوان معا يخرج لنا تدرجات لونية بأكثر مما يمكن رؤيته.

9. ليس هناك أكثر من خمسة نكهات أساسية: حامض، حريف، مالح، حلو، مر، ورغم ذلك فإن مزجها معا يخرج لنا نكهات بأكثر مما يمكننا تذوقه.

10. في المعركة، هناك أكثر من طريقتين للهجوم: مباشرة وغير مباشرة، ورغم ذلك فإن مزج هاتين الطريقتين ينتج عنه سلسلة لا نهائية من المناورات الممكنة

11. تؤدي كل من الطريقة المباشرة وغير المباشرة بدورها إلى الأخرى، تماماً مثل التحرك في دائرة، حيث لا تصل أبدا إلى نهاية. وبالتالي، فمن ذا الذي يمكنه الوصول لحد نهاية الاحتمالات الممكنة نتيجة لمزج هاتين الطريقتين معا؟

12. يشبه هجوم الجنود السيل الجارف الذي يحمل معه في مجراه حتي الضخور الرواسي.

13. تشبه دقه توقيت اتخاذ القرار الصائب من القائد تلك الدقة التي ينتهجها الصقر عندما يهجم كالبرق على فريسته، في دقة فائقة، تمكنه من الإمساك بها وتدميرها. (هذه الدقة ناتجة من حسن قياس وتقدير المسافات وخط سير الفريسة وتوقع رد فعلها للهجوم عليها)

14. لذا فالمقاتل الباسل سيكون رهيبا في هجومه، متأنيا عند اتخاذه لقراراته

15. .يمكن تشبيه الطاقة (القوة) بشد القوس من أجل إطلاق السهم، وتشبيه القرار بلحظة ترك القوس لينطلق في اتجاهه الذي حددته له.

16. وسط اضطراب وجلبة المعركة، قد يكون هناك فوضى ظاهرية، لكنها ليست فوضى على الإطلاق. وسط حالات الارتباك والعشوائية، قد تكون قواتك بلا مقدمة أو مؤخرة، لكنها رغم ذلك محصنة ضد الهزيمة. (بفضل حسن التنظيم والتدريب والتفكير)

17. التظاهر بحدوث حالة من الفوضى (لإغراء العدو بالهجوم) يتطلب مقدماً كشرط أساس حالة انضباط تام (للخروج بسرعة من حالة الفوضى الزائفة إلى حالة الانضباط من أجل الانقضاض السريع على العدو المهاجم(، والتظاهر بالجبن يستلزم الشجاعة، والتظاهر بالضعف (لإعطاء العدوالشعور بالغلبة) يستلزم القوة والمقدرة.

18. إخفاء الانضباط تحت عباءة الفوضى هو ببساطة مسألة حسن تقسيم لوحدات الجيش، وإخفاء الشجاعة تحت ستار من الجبن يتطلب قدرا كبيرا من الطاقة الكامنة، وإخفاء القوة خلف الضعف الظاهري يتحقق عبر المناورات التكتيكية.

19. وبالتالي فمن يظن أنه ماهر في التلاعب بالعدو (بإعطائه إشارات خادعة) يجب عليه الحفاظ على مظهره المخادع، والذي بناء عليه سيتصرف العدو .إذا كنت قويا فأظهر الضعف للعدو كي يهجم

عليك، وإذا كنت ضعيفاً فاحرص على إظهار نقاط القوة لديك، فيحترس منك العدو ويبتعد يجب أن تكون تحركات العدو بناء على إشارات نرسلها نحن إليه، وبذلك نبقيه في الموقع الذي نريده له)

20. امتلاك شرك/طعم يغري العدو، ستبقيه دائما زاحفا، ثم تنتظره بأفضل رجالك المنتقين بعناية. (ربما قصد بذلك القوات الرئيسية)

21. المقاتل البارع يبحث في آثار اتحاد القوات، ولا يتوقع الكثير من الأفراد يقدر مدى قوة جيشه ككل، ثم يأخذ المهارات والمواهب الفردية في الحسبان، ثم يستعمل كل فرد في الجيش حسب قدراته، ولا يطلب بلوغ الكمال من غير الموهوبين) وبذلك يصبح قادراً على اختيار الرجال المناسبين والاستفادة من اتحاد القوات.

22. عندما يستفيد من اتحاد القوات، يصبح مقاتلوه مثل الصخور المنقضة، لأن طبيعة الصخور البقاء في أماكنها ما دامت فوق سطح مستو، وطبيعتها أن تخر من عل إذا وضعتها فوق منحدر. إذا كانت الصخرة على شكل مربع، فستتوقف سريعا، وأما إذا كانت ذات شكل دائري، فستنقض بسرعة متزايدة في نزولها.

23. وبالتالي، فإن الطاقة التي تنجلي من خلال الرجال المقاتلين البواسل، هي مثل القوة الدافعة التي يكتسبها الحجر الدائري الصغير المتدحرج من قمة جبل يرتفع آلاف الأمتار. هذا هو موضوع الطاقة. (أي أنه يمكن تحقيق نتائج عظيمة عن طريق قوات قليلة العدد).

نقاط الضعف والقوة weak points And Strong

(الجوهر والفراغ)

1. قال سون تزو: الطرف الذي يصل إلى ميدان القتال أولا، وينتظر قدوم عدوه إليه، سيكون أكثر استعدادا للقتال، بينما من يصل ثانيا سيجب عليه التعجل للقتال وسيصل منهكا مرهقا

2. يفرض المقاتل الماهر رغباته على العدو، لكنه لا يدع العدو يفرضرغباته عليه (الجندي الماهر يحارب وفقاً لشروطه، أو لا يحارب على الاطلاق)

3. فعن طريق تحقيقه [القائد الماهر للأسبقية، يمكنه إجبار العدو على الاقترابمنه كما يريد له، أو – عن طريق إلحاق الخسائر به - يمكنه جعل الأمر مستحيلا على العدو أن يقترب منه (في الشق الأول

سيقدم للعدو طعما، وفي الثاني سيضرب العدو في أماكن مؤلمة تجبر العدو على التخندق للدفاع)

4. إذا كان عدوه يستريح، فسيقوم [القائد الماهر] بمضايقته، وإذا كان عند العدو خطوط إمداد جيدة توفر له مؤونة الطعام، فسيقوم بتجويع العدو، وإذا كان العدو يعسكر بشكل هادئ، فسيقوم بإجباره على التحرك

5. احرص على الظهور في نقاط يجب على العدو الإسراع لكي يدافع عنها، وسر بأقصى سرعة إلى الأماكن التي لا يفترض بك التواجد فيها.

6. يمكن لأي جيش قطع المسافات الطويلة دون أي قلق نفسي أو كرب، هذا إذاسار خلال طرق لا يتواجد فيها العدو.

7. يمكنك الوثوق في نجاح هجومك فقط إذا هاجمت الأماكن غير المحروسة (النقاط الضعيفة)، يمكنك كذلك ضمان دفاعاتك إذا تمسكت بالنقاط التي لا يمكن الهجوم عليها هذه جملة مبهمة، شرحها المعلقون بطريقة أخرى: لكي تجعل دفاعاتك قوية يجب عليك الدفاع عن وتحصين كل الأماكن – حتى تلك التي لا تتوقع

الهجوم عليها، مع زيادة تحصينك لتلك النقاط التي تتوقع الهجوم عليها

8. القائد الماهر في الهجوم لا يعرف خصمه ما الذي يجب عليه الدفاع عنه، وأما القائد الماهر في الدفاع فلا يعرف خصمه أين وكيف يهاجمه.

9. مثل خطى القدر، تلك التي تأتي في رقة رقيقة وسرية تامة، تعلم أن تختفيعن العيون مثلها، وألا يصدر عنك أي صوت أو ضوضاء (الهدوء التام)، وبذلك تتحكم في مصير العدو بيديك

10. يمكنك التقدم بطريقة تجعل مقاومتك مستحيلة إذا قصدت نقاط ضعف العدو. يمكنك التراجع والنجاة من مخاطر مطاردة العدو لك إذا كانت تحركاتك سريعة، أسرع من تلك للعدو

11. ذا كنت تريد القتال، يمكنك دفع العدو للالتحام حتى ولو كان يحتمي خلف متاريس عالية وخنادق عميقة. كل ما علينا فعله هو الهجوم على الأماكن والمناطق التي تجبره على الخروج من مكمنه ليدافع عنها (إذا كان العدو هو الغازي، فيمكنك قطع خطوط اتصالاته واحتلال الطرق التي يعتمد عليها في العودة، ما يضطره

للعودة لتأمينها. إذا كنت أنت الغازي، ركز هجومك على حاكم بلاد العدو نفسه)

12. إذا كنت لا ترغب في القتال، اخدع العدو. يمكننا منع العدو من الالتحام معنا من خلال ترك آثار لمعسكراتنا بالكاد يمكن تتبعها على الأرض. كل ما نحتاجه هو أن نرمي بشيء غريب غير مفهوم وغير متوقع منا في طريق العدو.

13. عبر اكتشاف مناورات العدو وأماكن تجمعه، مع بقائنا مختفين عن الأنظار، يمكننا إبقاء قواتنا مركزة ومكثفة، بينما يجب تفريق وتقسيم العدو. (إظهار العدو نفسه لنا يمكننا من تركيز القوات، بينما بقاءنا مختفين عنه يضطره لتقسيم قواته تحسبا لأي خطوة يمكن لنا أن نتخذها.)

14. بإمكاننا تجميع جيش ذي جسد وقوام واحد، بينما يجب تقسيم العدو إلى فرق وكسور، بذلك نكون جمعا واحداً متوحدين ضد عدو متفرق متشتت، ما يجعلنا كثرة متحدة ضد قلة متفرقة

15. وإذا كنا قادرين على الهجوم على قوة أقل شأنا بقوة أعظم منها، فغريمنا سيكون في كرب لا يحسد عليه.

16. المكان التي سنهاجم عنده يجب ألا يكون معروفاً لأحد، حيث يجب على العدو أن يستعد لهجومنا في أكثر من مكان مختلف، فتكون قواته متفرقةمشتتة في اتجاهات مختلفة، وبذلك تكون القوات التي سنقابلها قليلة العدد مقارنة بنا

17. بذلك إذا قام العدو بتقوية طليعة الجيش، فسيضعف من قوة المؤخرة، وإذا قام بتقوية المؤخرة جاء ذلك على حساب الميمنة، وإذا قام بتقوية الميمنة جاء ذلك على حساب الميسرة. إذا أرسل العدو التعزيزات إلى جميع الأماكن، فهو يصبح بذلك ضعيفا في كل الأماكن (الحرب الدفاعية تخون صاحبها بسبب كثرة التعزيزات المطلوبة)

18. الضعف العددي ينبع من الاستعداد لصد هجمات محتملة في أماكن متعددة، بينما القوة العددية تأتي من إجبار العدو على اتخاذ مثل هذه الاستعدادات لمقابلتنا (أن تضطر العدو لتقسيم وتجزئة قواته، ثم تهجم على كل جزء منها بكامل قوتك)

19. علمنا بمكان وموعد المعركة القادمة يمكننا من تركيز قوانا من مسافات بعيدة من أجل القتال (حسابات المسافات والأزمان وتطبيق

المناسب من الاستراتيجيات بما يسمح للقائد بتقسيم جيشه من أجل السير لمسافات طويلة وسريعة، بما يمكنه من الوصول للمكان المناسب في الوقت المناسب وبالقوةالمناسبة)

20. أما إذا كان المكان والزمان غير معروفين، فالميسرة تعجز عن مساعدة الميمنة، وتعجز الميمنة عن إسعاف الميسرة، والمقدمة عاجزة عن التخفيف عن المؤخرة، وتعجز المؤخرة عن دعم المقدمة، حتى ولو كانت المسافة الفاصلة بعض مترات من الامتار هذه الجملة في الأصل الصيني ينقصها دقة التوضيح، على أنه باستطاعتنا أن نرسم صورة لجيش تتقدم وحداته (مقدمة/ مؤخرة/ ميمنة/ ميسرة) بشكل عشوائي وبدون أوامر محددة وقاطعة للمكان والزمان اللازم التواجد فيهما. إذا سمح قائد جيش لذلك الأمر بأن يحدث (التحرك العشوائي غير المنظم) فسيمكن القضاء التام على جيشه بكل سهولة.

21. حتى إذا كان جيش العدو يفوق جيشنا في العدد، فلن يعطي ذلك لهم أي أفضلية علينا، فأنا أستطيع القول أن النصر يمكن تحقيقه وقتها بدون التعارض مع المبدأ الذي يقول أنه في حالة

استعداد العدو التام، فالنصر وقتها يكون غير مؤكد، على أن المقصود هنا هو جيش العدو الذي ظل في جهل تام بمكان وزمان المعركة المقبلة، فوقتها يمكن تحقيق النصر عليه)

22. رغم تفوق العدو في العدد، فبإمكاننا منعه من القتال. ضع نوايا العدو، وادرس إمكانيات نجاح ما يخطط له العدو.

23. أزعج العدو وعكر صفو يومه، ثم لاحظ نشاطاته وسكناته، وأجبره على أن يكشف عن نفسه، لكي تكتشف نقاط ضعفه المحتملة (إذا أزعجت العدو فستعرف من ردة فعله نواياه: هل يريد البقاء مختفيا عن الأنظار أو العكس)

24. قارن بحرص جيش العدو بجيشك، لتقف على نقاط القوة المفرطة، وتلك الناقصة

25. عند القيام بالمناورات والتحركات التكتيكية، فإن ضل شيء تقوم به هو أن تحجب تماما وتخفي ما تنوي أن تفعله، وبذلك تكون بمأمن من عيون الجواسيس التي تراقبك، ومن دسائس أحكم العقول.

26. كيف يمكن تحقيق النصر لهم اعتماداً على تكتيك العدو، هذا ما لا يستطيع العوام فهمه

27. يمكن للجميع أن يروا التكتيك الذي به أقهر العدو، لكن لا يستطيع أحد رؤية الاستراتيجية التي يأتي النصر من خلالها (الجميع يرى كيف يتم الفوز بالمعركة، لكن ما لا يروه هو القائمة الطويلة من الخطط التي سبقت المعركة وأدت لهذا النصر)

28. لا تكرر التكتيك الذي اتبعته من قبل وجلب لك النصر، لكن اجعل تحديد الطرق التي تتبعها يتم وفقا للظروف المتغيرة (النصر واحد، لكن الطرق المؤدية إليه لا يمكن حصرها)

29. التكتيكات العسكرية تشبه الماء كثيرا، فالماء في حالته الطبيعية ينساب بسر من الأماكن العالية إلى المنخفضة.

30. لذا في الحرب، الطريق السديد هو أن تتجنب نقاط القوة وأن تضرب ما هو ضعيف (مثل الماء المنساب، الذي يختار في طريقه المسار الأقل مقاومة لهذا الانسياب).

31. تحدد المياه مسارها وفقا لطبيعة الأرض التي تنساب فوقها، والجندي يعمد إلى توفير أسباب النصر وفقا للعدو الذي يواجه .

32. إذن، تماماً مثلما الماء الذي لا يتخذ شكلاً ثابتاً مستديماً، فالحرب لا تعرف شروطاً أو أحوالاً ثابتة.

33. من يستطيع تعديل تكتيكاته بناء على خصمه، محققا بذلك النصر، فهذا القائد هو هدية السماء.

34. العناصر الخمسة (الماء، النار، الخشب، المعدن، الأرض) لا تهيمن أو تسود بشكل منتظم، كما أن الفصول الأربعة تعطي المجال لبعضها البعض في التعاقب، كما توجد أيام قصيرة وتلك الطويلة، والقمر له منازله التي ينير فيها وتلك التي يختفي فيها تماما (أراد سون تزو ضرب المثل في أن الحرب مثلها مثل كل شيء في الطبيعة- لا تعتمد على عوامل ثابتة جامدة، بل عوامل متغيرة بطبيعتها.)

المناورة Maneuvering

(القتال العسكري)

سيقهر من تعلم براعة ومهارة الخداع بالمظاهر، فهذا هو فن المناورة.

* تعريف المناورة: التحرك والتصرف بطريقة تسلب الغريم من أي ميزة اكتسبها. قتال الجيش العرمرم بالعدد القليل أمر مستهجن، لكن الهجوم على قطاع/جزء/فصيل منه لك عليه ميزة فهذه هي المناورة.

**وحدة قياس المسافة في اللغة الصينية تسمى لي مثلما نستخدم نحن المتر والميل.

1. قال سون تزو في الحرب، يتلقى القائد العسكري أوامره من الحاكم المدني. نلاحظ هنا اختلاف النموذج غير العربي في الحكم، إذ على التاريخ العربي دائماً ما نجد[الحاكم العسكري هو الحاكم المدني (الفعلي) وهو القائد الأعلى وهو الأمير كبير العائلة وهو الملك السلطان وهو كل شيء، ولربما مرد ذلك كثرة الخيانات والثورات

والاغتيالات التي جاءت من أفراد عسكريين كان يفترض بهم حماية دولهم لا أن يدمروها بأنفسهم تحت مسميات أخرى -المترجم.]

2. ان يجتمع الجيش ويبدأ في تعزيز قواته، فعلى القائد مزج كل هذه العناصر المختلفة معا والعمل على انسجامها مع بعضها قبل أن يضرب معسكره (الانسجام ما بين الرتب العليا والدنيا أمر محتوم وحيوي قبل دخول ميدان القتال – ويذكر التاريخ الصيني أن سون تزو أكد قائلا: "كقاعدة عامة، على من يشن الحرب التخلص من أي اضطرابات داخلية قبل أن يهم بمهاجمة عدو خارجي").

3. بعد ذلك يأتي دور المناورة التكتيكية، التي لا يوجد ما أصعب منها، وسبب صعوبتها أنها تتطلب تحويل المخادع المراوغ غير المباشر إلى مباشر، وتحويل ما هو ضدك لكي يعمل لصالحك (أي أن تسبق العدو في اقتناص الفرص لصالحك) هذه الجملة أكثر كلام سون تزو غموضاً، وهو أمر يهواه بلا شك في كتاباته، ويحاول[المعلقون توضيح الأمور فيقولون: حاول أن تبدو وكأنك على بعد مسيرة طويلة، ثم اقطع المسافات الطويلة بسرعة واحضر إلى ميدان المعركة قبل العدو، اخدع العدو بمظهرك المتكاسل الخامل، حتى

يخبو حماسه وتفتر همته فيكثر إهماله ويتروى طويلاً بينما أنت تقطع المسافات جرياً تسابق الريح العاصف.]

4. بالتالي فإن أخذ الطريق الدائري الطويل، بعدما تكون قد أغريت العدو وأغويته فحاد عن طريقك، ورغم أنك بدأت المسير متأخرا عنه إلا أنك تبلغ هدفك قبله، ما يدل على معرفة وإلمام ببراعة التحييد

5. المناورة بالجيش أمر له مزاياه، لكن المناورة بالأعداد الغفيرة غير المنظمة أمر له مخاطره الشديدة. (المردود الناتج من القيام بالمناورات يعتمد في الدرجة الأولى على القائد العسكري وكفاءته الإدارية التنظيمية).

6. إذا قمت بتحريك جيش بأكمله بعدته وعتاده كاملين من أجل انتهاز فرصة ما، فالاحتمال الأكبر أنك ستصل متأخرا جدا. من الجهة الأخرى، إذا فصلت رتلا عسكريا خفيف الحركة لذات الغرض فالأمر سيتضمن التضحية بعتاد ومئونة هذا الرتل الذي سيتركها خلفه. (لا يشجع سون تزو السير لمسافات طويلة بدون مؤن كافية).

7. بالتالي، إذا أمرت رجالك بالتشمير عن سواعدهم وأجبرتهم على السير المتواصل ليلا ونهارا بدون أي راحة، قاطعين ضعف المسافة

المعتادة التي كانوا ليقطعونها في السير السريع (100 وحدة مسافة ** لي) فإن قادة فرق جيشك الثلاثة سيقعون في يد العدو.

8. سيكون الرجال الأقوياء في المقدمة، ومنهكو القوة خلفهم، وبذلك سيبلغ عشر جيشك مقصده. (المقصود هو ألا تدفع بجنودك مسافة مائتي وحدة مسافة من أجل اكتساب ميزة استراتيجية، سواء كانوا يحملون أمتعتهم ومئونتهم أم لا، فمثل هذه المناورات يجب تقييدها بالمسافات القصيرة، فلا تضحي بكل شيء من أجل السرعة – ما لم تكن تنسحب).

9. إذا سرت 50 وحدة مسافة لي من أجل أن تناور العدو، فستخسر قائد فرقتك الأولى (من شدة التعب) وسيبلغ نصف رجال الفرقة المكان المطلوب منهم الوصول إليه.

10. إذا سرت 30 وحدة مسافة لي للسبب ذاته، فسيبلغ ثلثي رجال الفرقة المكان المطلوب منهم الوصول إليه. (هذا المثال للدلالة على مدى صعوبة المناورة بالجيش).

11. يمكننا أن نأخذه كأمر مسلم به أن الجيش يضيع بدون قطار الأمتعة، ويضيع إذا حُرم من المؤن، ويضيع إذا حُرم من قاعدة

التموين. (يرى المعلقون أن المقصود هو كل شيء من ذخيرة وسلاح وطعام وشراب ووقود وعلف خيل ودواء ...).

12. لا يمكننا الدخول في تحالفات قبل أن نكتسب خبرة بطبيعة تضاريس جيراننا من الدول والمقاطعات المجاورة.

13. لسنا في حالة تؤهلنا لقيادة الجيش في مسيرة حتى نألف وجه الأرض: جبالها وغاباتها، أجرافها ومخاطرها، مستنقعاتها وأحراشها

14. لن نصبح قادرين على أن نحول المزايا الطبيعية لمصلحتنا ما لم نستفد من المرشدين المحليين.

15.في الحرب، تدرب على الخداع والاختفاء تحت مظاهر وأشكال خادعة وسوف تنجح.

16. قرار تركيز أو تقسيم القوات يجب اتخاذه وفقا لظروف المعركة.

17. كن مثل الريح، سريعا ولا تترك أي أثر، وكن محكما (وحدة واحدة متشابكة)مثل الغابة. (يرى المعلقون أن المقصود هو أن تبقى

الرتب والصفوف منتظمة عند المسير ببطء، تحسبا لأي هجوم مباغت).

18. عند الإغارة والسلب، كن مثل النار الملتهبة، راسخا مثل الجبل الشامخ. (الأخيرة المقصود منها عندما تتمسك بموقع يحاول العدو إخراجك منه، أو حينما يحاول العدو جرك إلى فخ نصبه لك).

19. اجعل خططك مبهمة مثل قطع الليل المظلم لا سبيل لفهمها (من الغير لا من رجالك)، وعندما تتحرك، كن خاطفا مثل صاعقة السماء.

20. عندما تسلب الأرياف، اجعل الغنائم توزع وتقسم بين رجالك (يكرر سون تزو المرة بعد المرة ضرورة تقسيم الغنائم بين الجنود بالعدل)، وعندما تحتل أراض جديدة، قسمها إلى قطع يستفيد منها الجنود. (يزرعونها ويحصدون غلتها).

21. فكر مليا وبتمعن، وتأن قبل أن تخطو خطوة واحدة.

تنوع التكتيكات الحربيةVariation In Tactics

حمل هذا الفصل اسم المتغيرات التسعة (The Nine variables) أيضاً، على أن سون تزو لم يكن يهتم كثيراً بالترقيم، لأنه يري أنه بناء على تطور الأمور في المعركة يأتي التكتيك الأمثل. وفق المعتقدات الصينية، يعتبر الرقم تسعة هو أفضل الأعداد لأنه يحمل سمات كل الأعداد الأخرى، فهو آخر عدد، (إذ أن الرقم عشرة ما هو إلا تكرار لرقم واحد ورقم صفر) وهو رقم كامل لا يحتاج إلى أرقام أخرى ليكتمل، كونه المرحلة الأخيرة لكل شيء. بالنسبة للقدماء الصينيين، كانت التسعة أكثر الأعداد المرتبطة بشئون الإنسان، باعتبار أن العشرة وما فوقها تنتمي إلى السماء. من هنا كان العدد 9 لاستخدام الإمبراطور وحده، وكان إذا وجد أي مسئول بالبلاط يرتدي ملبسا مطرزا بتسعة تنانين يحكم عليه بالإعدام فورا، هو وعائلته. أخيرا الأعداد الفردية ترمز للذكورة المتألقة: يانج، وأما الأرقام الزوجية فترمز للأنوثة غير المحددة والمظلمة، ين.

1. قال سون تزو: في الحرب، يتلقى القائد التعليمات من الحاكم، ثم يجمع جيشه ويركز قواته. (نلاحظ تكرارها من الفصل السابق،

ولربما سبب ذلك استخدامها لبدء هذا الفصل – نلاحظ هذا الفصل، وغموض بعض أجزائه، ما يشجع فرضية فقدان بعض أجزاء من هذا الفصل)

2. عندما تخوض في بلد صعب (ليس فيه مصادر مياه أو طعام، ذي تضاريس منخفضة)، لا تنصب معسكرك فيه. اتحد مع حلفائك في بلد تتقاطع فيه الطرق الواسعة (كناية عن سهولة التنقل). لا تتسكع في أماكن خطيرة ومعزولة. إذا كنت في أراض محاطة ومحاصرة – الجأ للخداع، إذا كنت في موقف يائس (أرض الموت) – فيتحتم عليك القتال.

١ _ توجد طرق عليك ألا تسلكها (تلك التي تخشى أن ينصب لك عدوك فيها فخا أو مكيدة)

٢ _ توجد جيوش يجب ألا تهاجمها (إذا وجدت فرصة للهجوم، لكنك أضعف من أن تحقق النصر، فلا تهاجم)

٣ _توجد مدن يجب ألا تحاصرها (لا تحاصر مدئا لا تستطيع إدارتها، أو إذا كان تركها لا ضرر فيه عليك)

٤ _توجد مواقف لا يجب أن تقاتل فيها بضراوة

٥_توجد أوامر للحاكم يجب ألا تطيعها (عندما ترى الطريق الصحيح، اسلكه ولا تنتظر الأوامر).

3. القائد الضليع بالمزايا التي تنتج عن تنويع التكتيكات الحربية حسب المتغيرات التسعة (راجع الفصل السابع) يعرف كيف يتعامل مع قواته ويوظفها بأحسن طريقة.

4. القائد غير الملم بهذه المزايا، قد يكون عالما بتضاريس البلاد، لكنه لن يتمكن من تحويل هذه المعرفة إلى فائدة عملية.

5. طالب الحرب غير المتمرس في فنونها الخاصة بتغيير الخطط وفقا للمتغيرات الحربية، حتى ولو كان عالما بالمزايا الخمس (سابقة الذكر)، سيفشل في تحقيق أقصى استفادة من جنوده. (إذا كان الطريق قصيراً خاليا من المخاطر اسلكه. إذا كان جيش العدو معزولا – هاجمه. إذا كانت مدينة العدو في ظروف محفوفة بالمخاطرة حاصرها. إذا كان الموقف يسمح بالهجوم الكاسح - يجب أن تحاول الهجوم. إذا توافقت مع الأعراف العسكرية – فيجب طاعة أوامر الحاكم).

6. في خطط القائد الحكيم، ستنصهر معا اعتبارات المزايا والعيوب. (يجب انتهاز الفرص السانحة، وتجنب المخاطر المهلكة، دون تهور أو إهدار فرص).

7. باتخاذ العناصر المواتية في الحسبان: تصبح الخطة الحربية قابلة التنفيذ. باتخاذ العناصر غير المواتية في الحسبان: يتم تذليل الصعاب والمخاطر والبحث عن حلول. (إذا أردت أن استغل نقطة ضعف للعدو، يجب أن أحسب كذلك رد فعل العدو الانتقامي جراء ذلك، ثم أحسب المزايا والعيوب الإجمالية). بذلك قد ننجح في تحقيق الجزء الأساس من مخططنا العام.

8. من الناحية الأخرى، إذا كنا _في خضم مشاكلنا _ مستعدين لانتهاز أي فرصة قد تتاح لنا، فيمكننا أن تُخرج أنفسنا من مأزقنا.

9. لتقلل من عدد الأعداء – الحق بهم الدمار وسبب لهم الكثير من المشاكل، اجعلهم دائما مشغولين بمشاكلهم الداخلية، قدم لهم الإغراءات الخادعة حسنة المظهر، واجعلهم يسرعون في الخروج إلى أي مكان وراءها. (يعلق شيا لن موضحاً: إلحاق الدمار ليس مقصوراً على الأذى البدني. ابذل الإغراءات الكثيرة لأفضل وأحكم رجال العدو

فيصبح بدون مستشارين. املأ بلده بالخونة الذين يقيضون نظام حكمه. قم بترتيب المؤامرات والخدع، وازرع الشك بين الحاكم وبين وزرائه. مستخدماً كل حيلة ذكية ممكنة، تسبب له في حدوث التلف والتدهور في ثروات شعبه وخزانته. افسد أخلاقه عبر هدايا ماكرة تؤدي به إلى الجشع وطلب المزيد والمغالاة. أزعج باله ولا ترحه بتقديم امرأة لعوب فاتنة الجمال له. غرر به فاجعله يخرج بجنوده إلى مكان تلحق به شديد الأذى، مناورات الجند كبيرة العدد تسترف من موارد الدولة. أرهق خزينته العامة وبدد موارده وأصوله المالية . احرص على بث روح الفرقة بين صفوفه ولا تسمح له بالوحدة الداخلية).

10. يعلمنا فن الحرب ألا نعتمد على فرضية عدم هجوم العدو، بل أن نجهز أنفسنا لملاقاته، ليس اعتماداً على فرضية عدم قيامه بالهجوم، بل على حقيقة أننا جعلنا موقفنا العسكري صلباً لا شك في قوته.

11. توجد خمسة أخطاء خطيرة تؤثر على القائد العسكري:

1- الطيش والتهور المؤدي إلى الهلاك (شجاعة ينقصها التروي مثل الثور الهائج) – مثل هذا العدو لا تقابله بالقوة الغاشمة، بل غرر به إلى كمين ثم اذبحه. (الشجاعة وحدها لا تكفي لتحقيق النصر، إذ يلزمها العقل والتدبروالتروي وحساب العواقب).

2- الجبن المؤدي إلى الوقوع في الأسر (التخلي عن انتهاز الفرص السانحه _ الهرب من مواجهة الخطر – الحرص على العودة حيا من المعركه _ عدم الاستعداد للمخاطرة.

3- حدة طبع متسرعة، يمكن استثارتها بسهولة عبر الإهانات.

4- حساسية مفرطة تجاه الشرف والسمعة تسبب الخوف الشديد من الخزي والعار. (لا يجب فهم هذا المقطع على أنه ذم في مبادئ الشرف، بل الذم هنا موجه للحساسية المفرطة، فمن يذود عن شرفه لن يهتم بأشياء أخرى ثيرة، ويمكن وضعه في المكان الذي تريده فيه بسهولة). القلق المفرط على حياة الجنود وعدم الرغبة في المخاطرة بحياتهم. (مرة أخرى، ليس القصد عدم الاكتراث بحياة الجنود، بل المقصود أن الخوف من تقديم أي تضحيات عسكرية حفاظا على حياة الجنود هو سياسة قصيرة النظر، لأنه على المدى

الطويل سيعاني أولئك الجنود من الهزيمة (الأسر – القتل) أو في أفضل الأحوال إطالة زمن الحرب. الشعور بالأسى على الجنود سيدفع القائد لعدم الالتزام بالقواعد وارتكاب الأخطاء الحربية).

12. هذه هي الخطايا الخمس المغرية للقائد العسكري، ذات الأثر المدمر على طريقة إدارة الحرب .

13. عند هزيمة الجيش ومقتل قائده، فحتما السبب لن يخرج عن هذه الأخطاء الخمس. اجعل هذه الأخطاء محل تأمل وتفكر وتدبر.

التحرك بالجيشThe Army On The march

1. قال سون تزو: الآن نأتي إلى موضوع أماكن ضرب معسكرات الجيش، ومراقبة العلامات التي تصدر عن جيش العدو. بداية، عليك أن تمر سريعا فوق الجبال، وتلتزم بمجاورة الوديان. المراد هنا هو ألا تتسكع فوق مرتفعات جدباء، ولكن أن تبقى بالقرب من موارد المياه والطعام]

2. اضرب معسكرك في الأماكن العالية (ليس المقصود قمم الجبال، بل قمم التلال والهضاب الصغيرة، المرتفعة قليلا فوق

مستوى أراضي العدو) المواجهة للشمس. لا تتسلق المرتفعات من أجل أن تقاتل. هذا يكفي فيما يخص حروب الجبال.

3. بعدما تعبر النهر، يجب عليك أن تبتعد عنه. [كي تغري العدو ليعبر خلفك].

4. عندما تعبر قوات غازية نهرا ما سيرا بطريقتها المعتادة، لا تتقدم لتقابلها في منتصف المعبر المائي، فالأفضل دائما هو أن تترك نصف القوات تعبر، ثم تقوم بالهجوم.

5. إذا كنت متحمسا للقتال، فيجب عليك ألا تقابل عدوا بالقرب من نهر يريد عبوره [خوفا ألا يعبره بسبب قربك منه].

6. أرس سفنك في مكان أعلى من العدو (فلا يغمره المد حين يأتي)، وواجه الشمس دائما، ولا تبحر بسفنك عكس التيار لتواجه العدو (لا تعط عدوك ميزة استغلال التيار ضدك)، هذا يكفي فيما يخص الحرب النهرية.

7. عندما تقطع أراض/مستنقعات مالحة (أي تكاد تنخفض تحت مستوى مياه البحر فترشح منها المياه المالحة)، فجل اهتمامك

يجب أن ينصب على اجتيازها سريعا، بدون أي تلكؤ أو مماطلة. [الأرض المالحة لا ماء صالح للشرب فيها، كما أنها عادة ما تتميز بأنها مفتوحة منبسطة، تناسب من يريد أن ينقض عليك].

8. إذا اضطررت للقتال على أراض/مستنقعات مالحة، فيجب أن تفعل ذلك بالقرب من مصدر للماء الصالح للشرب، وبالقرب من مصدر العشب، وأن تجعل مؤخرتك محمية بمنطقة تنمو فيها الأشجار، هذا يكفي فيما يخص الحرب على الأراضي المالحة.

9. على الأرض الجافة المستوية، احتل موقعا سهلا تجاورك فيه المرتفعات من اليمين ومن الخلف، وبهذا يواجه الخطر المقدمة دائما، وتقبع السلامة في الخلف، هذا يكفي فيما يخص العسكرة فوق أرض منبسطة. يرى المعلقون أن على الجيش أن يقاتل وعلى يساره مجرى مائي أو مستنقع، وعلى يمينه تل أو مرتفع].

10. هذه الفروع الأربعة للمعرفة العسكرية (الجبال، الأنهار، المستنقعات، الأراضي المنبسطة) هي التي مكنت الإمبراطور الأصفر من قهر الحكام الأربعة.

11. تفضل جميع الجيوش الأماكن المرتفعة عن تلك المنخفضة، وتلك المشمسة عن تلك المظلمة الداكنة.

12. إذا كنت تهتم لشؤون جنودك، فستعسكر فوق أرض صلبة، وبذلك لن تنهك الأمراض الجيش، وهذه هي بداية النصر. [الأرض الصلبة غير رطبة، جيدة التهوية، لا تسمح للأمراض بالانتشار فيها].

13. عندما تبلغ تلا أو ضفة نهر، احرص على احتلال الجانب الأكثر إضاءة، وأن تكون المنحدرات على يمين المؤخرة. بذلك يمكنك التصرف على الفور لمصلحة الجنود وتستغل المزايا الطبيعية لعنصر الأرض.

14. عندما تتسبب الأمطار الغزيرة المنهمرة في فيضان النهر الذي تريد عبوره، وأن يعم الزبد والرغاء صفحة الماء، ساعتها يجب عليك أن تنتظر حتى يهدأ الماء ويقر.

15. الأراضي التي تنتشر فيها الأجراف والمنحدرات الحادة، وتكثر فيها مجاري السيول والفيضانات، والتجويفات الطبيعية الغائرة، والأماكن المحاطة من جميع الجهات (سهلة الدخول فيها، صعبة الخروج منها)، الأدغال المتشابكة، المستنقعات الطمية، الممرات

والشعب الضيقة المتقاطعة، كل هذه الأماكن يجب تركها بأقصى سرعة ممكنة وألا تقترب منها.

16. بينما نتجنب نحن مثل هذه الأماكن سابقة الذكر، يجب علينا جعل العدو يقترب منها، وبينما نواجه مثل هذه الأماكن، يجب أن نجعل هذه الأماكن في مؤخرة العدو.

17. إذا كان هناك أي تلال أو مرتفعات، أو برك مياه يكسو سطحها النباتات العائمة، أو أحواض مائية يعلوها العشب المتكسر، أو غابات ذات زروع كثيفة، هذه الأماكن يجب استطلاعها جيدا وعمل دوريات عسكرية تحرسها، فهذه الأماكن من أفضل الطرق والوسائل لنصب الأكمنة ودس الجواسيس وعناصر الاستطلاع. (يرى المعلقون كذلك أن مثل هذه الأماكن تساعد الخونة على الدخول إلى المعسكر ثم العودة بالأخبار).

18. عندما يكون العدو على مقربة وهادئا، فهو يعتمد على المزايا الطبيعية لموقعه والتي تعطيه قوة إضافية.

19. عندما يكون بعيدا ومتحفظا ثم يحاول استفزاز من أمامه لبدء المعركة، فهو متشوق لكي يبدأ الطرف الآخر القتال. (ربما لأننا في الموقف الأفضل ولذا يريدنا أن نتخلى عنه ونخرج منه).

20. إذا كان الموقع الذي عسكر فيه سهل الوصول إليه، فهو يعرض طعما وينصب شركا.

21. إذا مالت الأشجار وتحركت في الغابة، فهذا معناه أن العدو يتقدم. ظهور عدد من الحواجز وسط العشب الأخضر الكثيف يعني أن العدو يريدنا أن نتشكك ونرتاب.

22. ارتفاع الطيور في طيرانها علامة على كمين. جفول الحيوانات دليل على اقتراب الهجوم الوشيك.

23. ارتفاع التراب في عنان السماء على شكل عامودي علامة اقتراب العربات الحربية. عند انخفاض مستوى ارتفاع التراب وانتشاره بشكل عرضي، علامة على اقتراب جنود المشاة. عند انتشار التراب في أشكال عشوائية ومن أماكن مختلفة، فهذا يعني إرسال الفرق من أجل التموين والمئونة. سحب التراب المتحركة ذهابا وإيابا تعني أن العدو ينصب معسكره

24. الكلمات المتواضعة والتجهيزات المتزايدة علامة استعداد العدو للتقدم. الكلمات العنيفة والتقدم للأمام كما لو كان ينوي الهجوم علامة نية الانسحاب والتقهقر.

25. عندما تتقدم العربات الحربية أولا وتأخذ مواقعها على الأجنحة، فهذه علامة أن العدو يأخذ وضعية الهجوم.

26. رسل السلام بدون عهود مختومة موثقة علامة مؤامرة ومكيدة. (زاد المعلقون وثيقة مختومة مع رهائن كضمان لالتزام الطرفين).

27. عند كثرة الهرج والجري، وعندما يتجمع الجنود ضمن فرقهم تحت راياتهم في أماكنهم المفروضة، فهذا علامة اقتراب اللحظة الحرجة.

28. عندما ترى البعض يتقدم والبعض يتأخر، فهذه علامة الإغراء للوقوع في شرك.

29. عندما يقف الجنود منحنين على رماحهم، فهذه علامة الجوع الشديد.

30. عندما يبدأ السقاة بأنفسهم فيشربون أولا، فهذه علامة معاناة الجيش من العطش الشديد.

31. عندما يعثر العدو على ثغرة تتيح له تحقيق المكاسب فلا يتحرك لاستغلالها، فهذه علامة إرهاق الجنود الشديد.

32. عندما تتجمع الطيور في أي مكان تريده، فهذه علامة خلو هذه الأماكن.الجلبة الصاخبة ليلاً علامة العصبية والهلع.

33. ظهور القلاقل والشغب في المعسكر علامة ضعف سلطة القائد. تنقل الرايات والأعلام من مكان لآخر علامة التحريض على العصيان. إذا كان الضباط غاضبون من جنودهم، فهذه علامة أن الرجال متعبون مرهقون مضجرون.

34. عندما يطعم الجيش الجياد حبوبا، ويذبح ماشيته من أجل الطعام (الوضع الطبيعي يقتضي أن يعتمد الرجال على الحبوب في طعامهم، والجياد على العشب) وعندما لا يعود الرجال إلى خيامهم، فهذه علامة الاستعداد للقتال حتى الموت.

35. مشهد همس المجموعات الصغيرة من الجنود وصدور النغمات المقهورة من أصواتهم تشير إلى انتشار السخط بين الرتب والأفراد.

36. المكافآت المتكررة في وقت قصير تعني قرب نفاد موارد العدو (عندما يكون الجيش محاصرا، يزداد الخوف من حدوث التمرد والعصيان، ولذا يتم اللجوء للمكافآت السخية لإبقاء الرجال في مزاج معتدل)، بينما العقوبات الكثيرة تفضح حالة اليأس الشديد (بسبب غياب النظام يتم اللجوء للعقوبات المغلظة التي لم تكن معهودة من قبل).

37. القائد الذي يعمد للتهديد والوعيد والطغيان في البداية، ثم تحت وطأة الخوف من أعداد العدو يحسن معاملة رجاله خوفا من تمردهم، لهو دليل على انعدام الحد الأدنى من الفهم والإدراك لديه.

38. عند قدوم وفود العدو حاملة للهدايا مكيلة للمديح، فهذه علامة رغبة العدو في عقد هدنة (ربما بسبب خوار قوته أو لسبب آخر، على أن هذه النقطة بديهية لا تحتاج كاتبا مثل سون تزو ليوضحها لنا).

39. عندما تسير قوات العدو في حالة من الغضب، وتبقى واقفة في مواجهة قواتنا لفترة طويلة، دون أن تأخذ راحة أو تأتي قوات بديلة لها، فالموقف ساعتها يحتاج لحذر شديد واحتراس كبير.

40. إذا كانت قواتنا لا تزيد في العدد عن العدو، فهذا يكفي إذ أنه وقتها لا يمكن اللجوء للهجوم المباشر. جل ما يمكننا عمله وقتها هو تركيز قوانا الحالية، وأن نبقي أعيننا مركزة على العدو، وأن نجد في طلب الإمدادات. [هذه الجملة غريبة مقارنة بسياق النص، ولعل أفضل تفسير من المعلقين التالي: عند تساوي أرقام الطرفين، وغياب أي ميزة تصب في صالح أي من الطرفين، ورغم أننا لسنا من القوة بحيث نشن هجوما نستطيع الحفاظ عليه، فبإمكاننا دائما البحث عمن يتطوع في صفوفنا ويقاتل معنا. الغرض هو تركيز الرجال الأشداء للقتال، والمتطوعين والملتحقين الجدد للأعمال الأقل درجة من حيث القوة والأهمية، لكن دون اللجوء للمرتزقة).

41. من لا يفكر في كل صغيرة وكبيرة قبل الهجوم، ومن يستهين بعدوه ويقلل من شأنه، سيقع في أسر هذا العدو حتما. (الثعابين

والعقارب الصغيرة تحمل سموما قاتلة، فلا يمكن الاستهانة بها، فما بالك بجيش خرج للقتال).

42. إذا عاقبت الجنود قبل أن يصبحوا مرتبطين بك، فلن يصبحوا مطيعين، وبدون كونهم مطيعين، فهم غير ذوي نفع أو جدوى. إذا أصبح الجنود مرتبطين بك، ولم توقع عليهم أي عقاب، فهم أيضا وقتها غير ذوي نفع أو جدوى.

43. لذا يجب معاملة الجنود في المقام الأول بإنسانية، لكن مع إبقائهم تحت السيطرة باستخدام النظام الصارم، فهذا هو السبيل للانتصار.

44. إذا تم تدريب الجنود على طاعة الأوامر حتى صارت عادة عندهم، فالجيش سيكون وقتها منظما بشكل جيد، وإذا لم يحدث ذلك فالنظام سيكون سيئا.

45. إذا أظهر القائد الثقة في رجاله، لكن يصر دائما على أن تتم طاعة أوامره، فالمكسب سيكون متبادلا (طاعة الجنود لأوامر القائد، وثقة الجنود في القائد).

التضاريسTerrain

يتعامل هذا الفصل مع موضوع التضاريس في النقاط من 1 إلى 13، إلا أن هذا الموضوع قد تمت معالجته باستفاضة في الفصل السادس. المهالك الست للجيوش يتم شرحها في النقاط من 14 إلى ٢٠، وأما بقية نقاط هذا الفصل فهي نصائح متنوعة متفرقة .

1 . قال سون تزو: يمكننا تقسيم التضاريس إلى ستة أنواع،

1. الأراضي سهلة المنال (ذات طرق معبدة وطرق اتصال متعددة)

2. الأراضي المحفوفة بالمخاطر (التي إن دخلتها وقعت في فخ يسهل نصبه لك)

3. الأراضي المعوقة (الأراضي التي تؤخرك وتؤخر من يأتي على أثرك)

4. الممرات الضيقة

5. المرتفعات الخطرة

6. المواقع شديدة البعد عن العدو (قد لا يتفق واقعنا المعاصر مع هذا التقسيم، إلا أنه يظل يخبرنا عن طريقة التفكير العسكرية الصينية القديمة).

2 . الأراضي التي يمكن عبورها بسهولة من كلا طرفي القتال، نسميها سهلة المنال.

3 . مع أراض هذه طبيعتها، يتعين عليك أن تحتلها قبل العدو، وخاصة المناطق المرتفعة المشمسة (ذات مستوى الرؤية الأكبر)، واحرص على حماية خطوط إمداداتك فيها. وقتها يمكنك القتال ومعك الأفضلية. (سر الانتصار في الحرب يكمن في متانة خطوط الإمداد والاتصالات - نابليون بونابرت)

1. الأراضي التي يمكن الانسحاب منها، لكن يصعب احتلالها مرة أخرى، نسميها المحفوفة بالمخاطر.

2. في موقف مثل هذا، وإذا كان العدو غير مستعد، فيمكنك أن تباغته بهجوم مفاجئ وتهزمه. لكن إذا كان العدو مستعدا لمجيئك، وفشلت في هزيمته، وكانت الرجعة مستحيلة، فستحل بك الكوارث.

3. إذا كانت الأرض يستحيل على كلا الطرفين إحكام السيطرة عليها من خلال اتخاذ الخطوة الأولى، فهذه نسميها المعوقة. (كلا الطرفين يعرف أن اتخاذ الخطوة الأولى في غير صالحه، فيبقى الطرفان في حالة جمود تنتهي بالوقوع في مأزق كبير).

4. في موقف مثل هذا، وحتى لو كان العدو يقدم لنا طعما جذابا، (بإدارة ظهره لنا والتظاهر بالانسحاب – ما يغرينا بترك موقعنا الحالي) فمن الأفضل أن لا نشتت قوانا، بل ننسحب، بطريقة تغري العدو بنا، وما أن يتحرك قسما من جيشه ويخرج للقائنا، حتى يمكننا ساعتها الهجوم عليه وبذلك تكون لنا الأفضلية.

5. بالنسبة إلى الممرات الضيقة، فإذا استطعت احتلالها مقدما، وقتها احرص على تحصينها جيداً وانتظر قدوم العدو. (بذلك تكون المبادرة في أيدينا، إذ عبر التحرك المباغت والمفاجئ نضع العدو تحت رحمتنا).

6. رغم قدرة العدو على إحباط خططك لاحتلال ممر ما، لكن عليك ألا تذهب خلفه إذا قام هو بتحصين ممر ما جيدا، وأما إذا كان التحصين ضعيفا فاذهب خلفه.

7. في حالة المرتفعات الخطيرة، وإذا كنت تسبق الخصم، فعليك احتلال النقاط المرتفعة والمشمسة، ثم المكوث في انتظار العدو. (ميزة احتلال المرتفعات تكمن في صعوبة معرفة العدو لما تخطط له، وبذلك لا يستطيع أن يملي عليك قراراتك. يحكي التاريخ عن جيوش عسكرت في سهول وتركت مرتفعات، فجاءت الأمطار والسيول فاجتاحت سهول معسكراتهم، ولذا فالمرتفعات ذات مزايا كثيرة).

8. إذا سبقك العدو لاحتلال المرتفعات، لا تتبعه، لكن انسحب وأغره بالنزول ورائك.

9. إذا كنت في موقع يبعد بمسافة طويلة جدا عن العدو، وكانت قوى كلا الطرفين متساوية، فلن يكون سهلا استثارته لبدء القتال بينكما، بل وسيكون القتال في غير مصلحتنا. (لا ينبغي أن نفكر في خوض مسيرات طويلة منهكة، بينما العدو ينتظرنا بكامل قواه).

10. هذه هي المبادئ الست المرتبطة بالأرض. القائد العسكري الذي بلغ موقع المسؤولية عليه أن يدرس هذه المبادئ جيدا.

11. تتعرض الجيوش لست أنواع من المهالك (المخاطر)، لا تنشأ من الأسباب الطبيعية، لكن من أخطاء قيادية، يتحمل مسؤوليتها القائد العسكري، وهي:

1 - الاندفاع/الانهيار/الفرار

2 - التمرد وعصيان الأوامر

3 - الانهيار الداخلي وفقدان الشجاعة

4 – الخراب

5- انهيار التنظيم

6 - الهزيمة المنكرة

12. عند تساوي بقية المؤثرات وحيادها، وتم الزج بقوة عسكرية ما، ضد قوة عسكرية أخرى أقوى منها بعشرة مرات أو تزيد، فالنتيجة هي حدوث حالة من الاندفاع غير المحسوب للفرقة الأولى.

13. إذا كان الجنود العاديون أقوياء، بينما ضباطهم ضعفاء، فالنتيجة الحتمية هي حدوث حالة من التمرد والعصيان الجماعي

للأوامر بين الجنود. أما عند حدوث العكس، فستنشأ حالة من الانهيار الداخلي وفقدان الشجاعة والضعف العام. (الضباط الأقوياء يريدون التقدم فيضغطون على الجنود الضعفاء، فينهار الجنود بشكل جماعي وتعم الفوضى).

14. عندما تغضب الرتب العليا من الضباط، ويبدؤون هم في عصيان الأوامر (بعدم انتظار الأوامر الصادرة لهم والتصرف حسبما يرونه في مصلحتهم)، فتجدهم عند لقاء العدو يقاتلون وفقا لأهوائهم وانطلاقا من شعورهم بالاستياء، من قبل أن يصدر القائد العام الأمر لهم ببدء القتال، فالنتيجة الحتمية هي حلول الخراب والدمار.

15. عند ضعف القائد العام وتجريده من أي صلاحيات لتنفيذ أوامره، وعندما تكون أوامره غير واضحة أو جلية، وعند عدم وجود واجبات روتينية محددة وواضحة منوطة بالضباط والجنود، وعند تنظيم الرتب العسكرية بشكل فاسد عشوائي، فالنتيجة هي حدوث حالة متقدمة من الانهيار في الكيان التنظيمي العسكري.

16. عندما يعجز القائد عن تقدير قوة العدو، فيسمح لقوة صغيرة بقتال قوة أكبر منها، أو يدفع بفصيلة ضعيفة بسر- عة تجاه أخرى

أقوى منها، ويهمل وضع أفضل الجنود في الصفوف الأمامية، فالنتيجة هي الهزيمة المنكرة (وضع أفضل الرجال في الصفوف الأمامية يرفع معنويات الجنود، ويقلل من معنويات جنود العدو).

17. هذه هي الحالات الستة من الهزائم المحتمة في ميدان القتال، والتي يجب دراستها بعناية من قبل القائد الذي تم تعيينه في موقع المسؤولية.

18. التنظيم السوي للدولة هو أفضل حليف للجندي، وأما القدرة على حسن تقدير قوة الخصم، والتحكم في الأسباب المؤدية إلى النصر، وحسن حساب الصعاب والمتاعب والعقبات، والمخاطر والمسافات، فتلك التي تضع قدرات القائد العظيم تحت الاختبار.

19. من يعرف كل هذه النقاط جيداً، ويضع تلك المعرفة عند الحرب قيد التنفيذ، فسينتصر في معاركه. من لا يعرفها، أو لا يضعها قيد التنفيذ، فبكل تأكيد سيعاني ويلات الهزيمة.

20. إذا كانت نتيجة القتال هي النصر حتما، فعندها يجب أن تقاتل، حتى ولو منعك الحاكم العام من ذلك. إذا لم يكن القتال ليؤدي إلى النصر، فعندها يجب ألا تقاتل، حتى ولو أمر الحاكم العام

بذلك. (إذا حكم القصر مجريات القتال (بالهجوم والانسحاب)- بدلا من القائد العسكري العام، فلن تتحقق أي نتائج ملموسة فوق أرض المعركة). (تروي لنا مذكرات لواءات الجيش المصري المنسحبين بجنودهم ومعداتهم في الحرب التي انتهت بهزيمة القوات المصرية في 6 يونيو من العام 1967 كيف صدرت لهم الأوامر بالعودة لقتال الجيش الإسرائيلي المنتشي بنصره المظفر وفرار القوات العربية من أمامه بفضل استعداده الجيد لهذه الحرب الخاطفة، ما أدى لإبادة فرق عسكرية بأكملها، وترك غيرها ليموت عطشاً في صحراء سيناء، بسبب ضعف الاستعدادات الحربية المصرية، ولو عصوا الأوامر الصادرة إليهم بقتال جدوى منه، لكانوا أنقذوا أنفسهم وأنقذوا جنودهم، حتى ولو كانوا قد تعرضوا لمحاكمة عسكرية بسبب عصيان الأوامر، فقدان حياتهم أفضل من إبادة من يقودونهم).

21. القائد العسكري الذي يتقدم دون أن يكون غرضه الشهرة، وينسحب دون الخوف من لحاق الخزي والعار باسمه، والذي تسيطر عليه فكرة واحدة هي حماية وطنه وخدمة الملك، فهذا القائد هو ذرة تاج الدولة.

22. انظر إلى جنودك كما لو كانوا أطفالك، وهم سيتبعونك وقتها إلى مهالك الوديان العميقة، وانظر إليهم كما لو كانوا أحب أبنائك إليك، وهم سيقفون معك حتى يلقوا حتفهم. (أن ترتدي أقل ملابسهم التي يرتدونها قدراً، وأن تأكل أدنى طعام يحصلون عليه، وأن تسير كما يسيرون، وأن تركب ما يركبون، وأن تحمل على ظهرك مثل ما يحملون، ...).

23. إذا كنت -على أية حال- طيبا متساهلا، لكن غير قادر على جعل جنودك يعرفون حدود سلطاتك عليهم، وإذا كنت طيب القلب غير قادر على فرض أوامرك بالقوة، وغير قادر –فوق كل ذلك- على قمع مظاهر الفوضى والشغب، فوقتها يصبح جنودك مثل الأطفال المدللين – لا نفع يرتجى منهم أو فائدة. (إذا خافك الجنود وخشوك – لم يخشوا العدو).

24. إذا علمنا أن الجنود في وضع يسمح لهم بالهجوم، ولم ندري بأن العدو في وضع لا يسمح له بالهجوم، فنحن وقتها نكون قد قطعنا نصف الطريق فقط إلى النصر.

25. إذا علمنا أن العدو في وضع يسمح له بالهجوم، ولم ندري بأن الجنود في وضع يسمح لهم بالهجوم، فنحن وقتها نكون قد قطعنا نصف الطريق فقط إلى النصر.

26. إذا علمنا أن العدو في وضع يسمح له بالهجوم، وعلمنا كذلك بأن الجنود في وضع يسمح لهم بالهجوم، ولم ندري بأن طبيعة تضاريس أرض المعركة تجعل القتال غير مجدي، فنحن وقتها نكون لا زلنا قد قطعنا نصف الطريق فقط إلى النصر.

27. بناء على ذلك، فالجندي المحنك الخبير، ما أن يصبح في وضع الحركة، لا تصيبه الحيرة أو الارتباك، وما أن يعسكر، فهو لا يخسر أي شيء. (لأنه يحسب كل شيء قبل أن يتحرك، ويتحرى أسباب النصر جيدا، ويعمد على جعلها تعمل لصالحه، ولذا فهو عندما يتحرك، فهو لا يرتكب أي خطأ).

28. وهكذا تصح المقولة: إذا عرفت عدوك وعرفت نفسك، فالنصر لن يصبح محل شك. إذا عرفت طبيعة سماء وطبيعة أرض المعركة، فأنت تجعل انتصارك كاملاً.

المو اقف/الحالات/الأوضاع التسع The nine Situations

(يتعامل هذا الفصل مع تسع حالات يجد الواحد منا نفسه فيها، هذه الحالات التسعة يتم تشبيهها بالأنواع التسع لتضاريس الأرض).

1 . قال سون تزو: فن الحرب يعرف تسعة أنواع من الأراضي:

1. الأرض المشتتة (التي تشتت)
2. الأرض السهلة.
3. الأرض التي تستحق مشقة الاستيلاء عليها
4. الأرض المفتوحة
5. أرض تقاطعات الطرق
6. الأرض الخطيرة/الحرجة
7. الأرض الصعبة
8. الأرض المحاطة
9. الأرض الميئوس منها/المهلكة

2 . عندما يقاتل القائد على أرضه، فهو يقف على أرض مشتتة. (سميت كذلك لأن الجنود يعلمون قربهم من أرضهم وبيوتهم، وهم حتما في حالة شوق للعودة إلى زوجاتهم وأبنائهم، ولذا سينتهزون الفرصة التي تسنح أثناء القتال، لينتشروا في الأرض متشتتين في كل الاتجاهات فارين إلى وطنهم).

3 . وعندما يتغلغل القائد داخل أرض معادية لمسافة قصيرة، فهو يقف على أرض سهلة (بسبب سهولة الانسحاب منها والعودة إلى أرضه).

4 . الأرض التي يجلب الاستيلاء عليها، المنفعة لكلا طرفي الصراع، هي أرض تستحق مشقة وعناء الاستيلاء عليها. (تشمل الأرض التي يستطيع القلة والضعفاء الدفاع عنها بل والانتصار فيها على الأقوياء، مثل الممرات الضيقة).

5 . الأرض المفتوحة هي تلك التي يستطيع كلا الطرفين التحرك فيها بحرية كاملة، تدعمها شبكة طرق متصلة ومتقاطعة.

6 . الأرض التي تشكل مفتاح الوصول لثلاث دول متجاورة (أرضنا، أرض العدو، أرض الدول المجاورة) بطريقة تجعل من يحتلها

أولا قادراً على إخضاع الإمبراطورية بأكملها لسيطرته (يحصل وقتها على ولاء الباقين) والأرض التي تحتوي على الكثير من طرق المواصلات المتقاطعة والمتقابلة هي أرض تقاطعات الطرق.

7 . عندما يتغلغل الجيش عميقا داخل قلب أرض العدو، تاركا عدداً من المدن الحصينة وراءه لم يفتحها، فهذه الأرض تكون خطرة (عندما يبلغ جيش ما هذه النقطة، فهو في موضع خطير).

8 . الغابات والأجراف الوعرة والمستنقعات العميقة والضحلة، وجميع الأراضي التي يصعب عبورها إلا بشق الأنفس، هذه الأرض تسمى الأرض الصعبة.

9 . الأرض التي لا يمكن الوصول إليها إلا عبر مداخل وممرات ضيقة، والتي لايمكن الانسحاب منها إلا عبر ممرات غير مأمونة، مما يجعل فصيلة صغيرة للعدو قادرة على سحق عدد كبير من قواتنا، هذه الأرض تسمى الأرض المحاطة (محفوفة بالمخاطر).

10 . الأرض التي يمكننا النجاة عليها من الهلاك -فقط القتال الشامل المستبسل دون أي تأخير، تسمى الأرض اليائسة (تشبه

سابقتها، عدا أنها بلا سبيل نجاة واضح، كحال قارب يغرق أو بيت يحترق).

11. لذا لا تقاتل أبدأ على الأرض المشتتة، ولا تقف على الأرض السهلة، ولا تهاجم على الأرض التي تستحق مشقة الاستيلاء عليها. إذا حصل العدو بالفعل على الوضع الأفضل، وأصبح لديه مزايا تفرض علينا ألا نهاجمه، بل نغريه (بتصنع الفرار) للخروج إلى الأرض التي يكون لنا نحن عليها المزايا والأفضلية].

12. لا تحاول سد طريق العدو فوق الأرض المفتوحة [لأن ذلك سيقلب الأمور عليك وسيضع القوة المهاجمة في وضع صعب للغاية وفوق أرض تقاطعات الطرق تحالف مع جيرا انك.

13. انهب واسرق بأقصى قوتك فوق الأرض الخطرة (هذه النصيحة تعارض المبادئ الاستراتيجية المتعارف عليها، من عدم معاداة أهل أرض العدو، والإحسان إليهم لكسبهم في صفك، فلا يكونوا مسمارا في ظهرك، ولعله قصد نفي ذلك لا الحث عليه، لكن كتابات المعلقين تمضي مؤيدة لعكس ظننا هذا).

14. فوق الأرض المحاطة، عليك بالخدعة والحيلة [ابتكر الجديد المناسب للموقف بما يضلل العدو]، وفوق الأرض الميئوس منها: قاتل [حيث أن القتال حين لا تلوح في الأفق فرصة للهرب يدفع الجندي لأن يعطي كل ما عنده أملا في النجاة بالانتصار].

15. قدامى القادة المهرة المحنكين عرفوا كيف يدقون إسفينا بين مقدمة ومؤخرة جيش العدو (يفصلون تماما بينهما) مانعين الاتصال والتعاون بين وحدات الجيش الكبيرة والصغيرة، مانعين إنقاذ وحدات العدو القوية لتلك الضعيفة المصابة، ومانعين قادة العدو من لم شمل فلول جنودهم والعودة بهم للمعركة.

16. عندما كان جنود العدو متحدين، تمكن القادة القدامى من نشر الفوضى بين أفراد العدو [لا تسمح لهم بالتجمع].

17. عندما كان ذلك في مصلحتهم، أصدر قدامى القادة الأوامر بالتحرك للأمام، وعندما لم يكن كذلك، أصدروا الأمر بالتوقف [التقدم بغرض بث الفوضى بين العدو، والتوقف إذا لم يكن التحرك ليأتي بفائدة. إذا تجمعت قوات العدو، فلا تسمح له بأن ينتظم].

18. إذا سألتني ما العمل مع عدو كثير العدد، ضخم الحجم، منظم الصفوف والخطوط، على أهبة الاستعداد للسير إليك؟ أجيبك التالي: ابدأ بالاستيلاء على شيء له قيمة كبيرة عند العدو، عندها سيطيع العدو رغباتك.

19. السرعة هي جوهر الحرب، واحرص على الاستفادة من عدم استعداد العدو، وشق طريقك مستخدماً سبلاً غير متوقعة، وهاجم النقاط غير المحروسة.

20. فيما يلي المبادئ التي يجب مراعاتها من قبل القوات المهاجمة، فكلما تعمقت قواتك في قلب حدود العدو، كلما زاد تماسك جنودك، وهكذا لن يتمكن المدافعون من النيل منك.

21. أغز البلاد الخصيبة من أجل إمداد جيشك بالطعام

22. ادرس بعناية أسباب وعوامل راحة جنودك [رفه عنهم، عالجهم، تبسط معهم، أعطهم ما يفيض عن حاجتهم من الطعام والشراب]، ولا تقم بفرض الضرائب الزائدة عليهم. ركز طاقتك وادخر قواك. ابق جيشك مترابطاً ومتحركا على الدوام [بحيث لا

يعرف العدو مكانا محدداً لك] واخترع خططاً مبهمة غير مفهومة من قبل العدو].

23. اقذف بجنودك في مواقف لا مهرب منها، وهم ساعتها سيفضلون الموت على الفرار. إذا واجه جنودك الموت، فلا يوجد شيء يعجزون عن تحقيقه. وقتها سيبذل الجنود والضباط معاً أقصى ما لديهم من طاقات.

24. يفقد الجنود في المواقف اليائسة الإحساس بالخوف، فإذا لم يكن هناك أي مهرب فسيقفون ثابتين، إذا كانوا فوق أرض العدو، فستكون مقدمتهم عنيدة، إذا لم يكن هناك أية مساعدات تُرتجي، فسيقاتلون بشدة وصلابة.

25. بذلك وبدون إصدار أوامر لهم، سيكون الجنود حينها في حالة عطاء دون سؤال، ينفذون ما تريده قبل أن تطلبه منهم، بدون أي تحفظات أو حدود، في حالة قصوى من العطاء، حيث يمكنك الثقة بهم.

26. امنع التعاطي في أفكار نذر الخير والتشاؤم، واقض على أي خرافات أو شكوك، وحتى يأتي الموت ذاته، فلا يجب الخوف

من أي فترات هدوء. الخرافات تجلب الخوف واليأس، وتقتل الرجال مئات المرات قبل أن يلقوا[حتفهم فعلا. يجب القضاء على التعاطي بالسحر والتنجيم واستطلاع النجوم بين الجنود، فذلك يدخل الخوف إلى عقولهم.]

27. إذا لم يعد جنودك مهتمين بالحصول على الأموال، فلا تظن ذلك مرده زهدهم في الغنى، وإذا لم تعد حياتهم طويلة مديدة، فلا تظن ذلك سببه عدم رغبتهم في العيش. [يريد سون تزو القول أن الجنود ما هم إلا بشر، تراودهم أطماع الاغتناء والعمر المديد، لذا فلا تقذف في طريقهم أي مغريات تشجع لديهم هذه الرغبات "الطبيعية" التي تجعلهم يتركون القتال ويقبلون على الدنيا].

28. في اليوم الذي تصدر فيه الأوامر للجنود بالقتال، سيذرف الجنود الدموع، وتسيل على خدودهم حتى تبلل ملابسهم. [ليس ذلك مرده الخوف، بل لأنهم عاقدو النية على تنفيذ الأوامر أو الموت دونها] لكن دع هؤلاء يطؤون أرض المعركة، وستجدهم يظهرون شجاعة شو أو كيو. البطل شو رجل عاصر سون تزو، وقد تم تكليفه باغتيال الحاكم وانج لي-او بخنجر خبأه في[أحشاء سمكة

قدمت على الطاولة، لكنه ما أن فعل فعلته حتى تحول إلى أشلاء صغيرة بفعل سيوف حراس الملك – على أنه نجح في تحقيق ما ذهب من أجله. البطل الثاني سبقت شهرته الأول، حيث كانت مملكة لوو قد انهزمت ثلاث مرات من مملكة تشي، وكانت على وشك الاستسلام مقابل التنازل عن قطعة كبيرة من أراضيها، فما كان من البطل كيو إلا أن وقف بخنجر مصوب إلى صدر هوان كنج، دوق مملكة تشي، وطالبه بتصحيح أوضاع معاهدة الاستسلام، إذ أن مملكة لوو صغيرة وضعيفة، فما كان من الدوق، الذي عجز حراسه عن الاقتراب منه خوفاً على حياته، إلا أن وافق على مطالب كيو. وقتها سحب كيو خنجره وذهب ليقف وسط الجموع المرعوبة دون أن يتغير لونه أو يرجف له جفن. أراد الدوق بعدها الرجوع في كلمته التي أعطاها، لكن مستشاره كوان شونج أوضح له توابع عودته في كلمته التي أعطاها، وهكذا حفظت شجاعة كيو المملكة من فقدان نسبة كبيرة من أراضيها التي خسرتها في ثلاث هزائم.]

29. يمكن تشبيه التكتيك الماهر بالثعبان شواي-جان، الذي تجده في جبال شانج، فما أن تضرب هذا الثعبان عند رأسه حتى تجده يهاجمك بذيله، وما أن تضرب ذيله حتى يهاجمك برأسه، وما أن

تضربه في منتصف جسمه حتى عليك برأسه وذيله. كلمة شواي-جان تعني السرعة المفاجئة في اللغة الصينية، وهي مأخوذة من عدم تردد هذا[الثعبان في الهجوم الصاعق، وهي تطورت اليوم لتصبح مرادفاً عسكرياً للمناورات الحربية .]

30. إذا سألتني هل يمكن جعل الجيش يقلد ثعبان شواي-جان، أجيبك نعم. [اجعل مقدمة ومؤخرة الجيش سريعة الرد عند الهجوم على أحدهما، كما لو كانتا عضوين في جسد واحد]. فإذا كان رجال وو ورجال يوو ألد الأعداء، فهما إذا عبرا النهر في قارب واحد وأحاطت عاصفة بهم هوجاء فسيهبون لمساعدة بعضهما البعض تماما مثلما تساعد اليد اليمنى اليسرى. المعنى أنه إذا كان العدوان سيساعدان بعضهما في وقت الخطر المحدق، فكيف سيساعد جزءان[من الجيش بعضهما البعض، وهما يربطهما معاً رابط الاهتمام والمصلحة المشتركة، على أن ذلك أمر يجب التعامل معه بحذر، فكم من الجيوش دمرتها قلة الاتصالات فيما بينها، خاصة في حالة الجيوش المتحالفة.]

31. لا يكفي ربط الخيول حتى لا تهرب، أو غرس عجلات العربات في الرمال حتى لا يفر الجنود. هذه كانت وسائل الهروب على وقت سون تزو، وهي كناية عن الوسائل التي تظن بما أنك[ستمنع الجنود من الهرب من أرض المعركة. وفقاً لوجهة نظر سون تزو، ما سيمنع الجنود فعلاً من الهرب هو تماسكهم معاً ووحدة هدفهم .]

32. المبدأ الذي على أساسه تُدار وتنظم شؤون الجيش هو عن طريق وضع معيار شجاعة يجب على الجميع بلوغه. [أن يكون الجنود جميعاً على قلب رجل واحد، أو على الأقل على مستويات متقاربة من الشجاعة.]

33. كيف تحقق أقصى استفادة من القوي والضعيف؟ هذا السؤال يتضمن الاستعمال الصحيح (الأفضل) للأرض. [أن تستفيد من القوي والضعيف معاً هو عن طريق جعل كلاهما مفيدين باستخدام المزايا المختلفة للأرض، فمثلاً القوات الضعيفة المتحصنة في مواقع قوية، سيمكنها القتال لذات الفترة الزمنية التي كانت لتمكثها القوات القوية في أراض أقل تحصنا وأكثر انفتاحا].

34. القائد الماهر يقود جيشه كما لو كان يقود رجلاً واحداً، بسلاسة ويسر.

35. عمل القائد هو أن يبقى هادئاً فيضمن السرية، وأن يكون مستقيماً وعادلاً، فيضمن استقرار النظام العام.

36. ويجب عليه أن يثير حيرة ضباطه وجنوده (يخدع عيونهم وآذانهم) عن طريق المظاهر والتقارير الخادعة، وبذلك يبقيهم في حالة جهل تام. لا يجب على جنودك مشاركتك خططك في البداية، بل فقط عليهم أن يبتهجوا معك بالنتائج الإيجابية المترتبة على تخطيطك هذا. أول أهم مبادئ الحرب أن تضلل وتحير وتفاجئ العدو، لكن ماذا عن تضليل قواتك ورجالك؟ السرية التامة الكاملة تكون أحيانا من مفاتيح تحقيق النصر، حتى مع قواتك، والذين سيتصرفون وقتها بشكل طبيعي، ما يزيد من درجة تضليل العدو المراقب لك.

37. عبر تعديل ترتيباته وتغيير خططه [لا يستعمل خطة ما أكثر من مرة] سيبقي القائد الحكيم عدوه غير واثق في نواياه، غير واثق في المعلومات التي لديه عنه. عبر نقل معسكرات الجنود وإتباع

طرق ملتوية غير مباشرة، سيمنع العدو من توقع الهدف وراء مثل هذه التحركات. لدى شانج يوو تعليق على قدر كبير من الأهمية: حقيقة أن الحرب خدعة[لا تتوقف عند حدود العدو وحسب، بل تتسع فتشمل رجالك وجنودك].

38. عند اللحظة الحرجة/الحاسمة، يسلك القائد سلوك من تسلق قمة مرتفع عال ثم دفع السلم الذي تسلق عليه، فيحمل رجاله إلى أرض العدو دون أن يظهر يده. أي يأخذ خطوات مصيرية تجعل من المستحيل على الجيش أن يتراجع، مثل[حرق سفن نقل الجنود التي أقدم عليها طارق بن زياد وقت فتح الأندلس حين قال لجنوده العدو من أمامكم والبحر من وراءكم.]

39. سيحرق قواربه ويحطم قدور الطعام، مثل راع يسوق قطيعاً من الغنم، فيقود جنوده عبر هذا الطريق وذاك، دون أن يعلم أحد منهم إلى أين هو ذاهب.

40. حشد الجنود والدفع بهم نحو الخطر هذا هو عمل القائد. [ما يقصده سون تزو هو أنه بعد الانتهاء من التحركات

والمناورات ولقاء العدو، هنا يجب عدم التأخر/التردد في إطلاق السهام نحو قلب العدو].

4 1 . المقاييس المختلفة المناسبة للحالات التسعة للأرض هي: مدى ملائمة التكتيكات الهجومية أو الدفاعية، والقوانين الأساسية للطبيعة البشرية؛ هذه هي الأشياء التي يجب دراستها حتما بعناية.

4 2 . عند احتلال أرض العدو، يكون المبدأ العام هو أن التغلغل في أعماق بلاد العدو يجلب التماسك والتلاحم لجيشك، بينما التغلغل لمسافة قصيرة يعني التشتت والتشرذم.

4 3 . عندما تترك بلادك وراءك، وتجتاز بجيشك أراض مجاورة تفصلك عن بلادك، فأنت وقتها فوق أرض حرجة. يجب عليك أن تقضي حاجتك منها سريعا وتمضي في طريقك – على أن هذه حالة نادرة الحدوث. عند توفر خطوط اتصالات في الاتجاهات الأربعة، فالأرض تكون ذات طرق عامة متقاطعة

4 4 . عندما تتوغل في أعماق بلد ما، فهي ستصبح أرضا خطرة، و عندما تتوغل لمسافة قصيرة، فهي أرض سهلة الانقياد.

45. عندما تصبح حصون العدو خلفك، والممرات الضيقة أمامك، فالأرض تطبق عليك. عند انعدام الملاذ الآمن أو الملاجئ، فأنت تقف على أرض تدعو إلى اليأس.

46. ٤٦. لذلك وعند الوقوف فوق أرض يائسة، سوف ألهم رجالي وأبعث فيهم الأمل عبر وحدة الهدف. [اتبع منحى دفاعيا وتجنب المعركة. عند الوقوف فوق أرض سهلة الانقياد، فسأتأكد وقتها من توفر صلات قريبة بين جميع وحدات جيشي.

47. فوق الأرض المتصلة سأستعجل مؤخرة الجيش [فلا تطول المسافة بينها وبين مقدمة الجيش، وحتى يصل الاثنان معا إلى الهدف المطلوب في وقت واحد، لكن بما لا يتعارض مع مبدأ عدم الوصول إلى أرض المعركة ونحن في حالة إرهاق من التحركات والمناورات].

48. فوق الأرض المفتوحة، سأبقي عينا حذرة بشدة على دفاعاتي. وفوق الأرض ذات الطرق العامة المتقاطعة، سأقوي تحالفاتي.

49. فوق الأرض الخطرة، سأعمل على توفير خطوط إمداد متواصلة. [والعهدة على المعلقين: عبر السرقة والنهب وجمع المئونة، وليس –كما سيتراءى للكثير منكم- عبر خطوط اتصال غير مقطوعة مع قواعدنا الأساسية. فوق الأرض الصعبة، سأستمر في المشي السريع فوق الطريق.

50. فوق الأرض المطبقة، سأسد أي طريق محتمل للهرب. [تفسير ذلك قد يكون لحماية موقعنا الحالي، لكن الغرض الفعلي والحقيقي هو أن تطبق كالصاعقة على خطوط العدو فنفصلها ونفتح فرجة نمر منها إلى بر الأمان]. فوق الأرض اليائسة، سأعلن للجنود عن انعدام الأمل في إنقاذ أرواحهم. [اردم آبارك واكسر قدورك واحرق أمتعتك، واجعل حقيقة كون القتال السبيل الأوحد للنجاة واضحة تماما في عيون الجنود]. ملحوظة من الترجمة الإنجليزية، من الواضح أن النص الأصلي الذي كتبه سون تزو لم يصل إلينا كما كتبه هو، بل تعرضت أجزاء منه للضياع، وعابه عدم الترتيب على الوجه الذي أراده سون تزو، ونلاحظ ذلك من الطول المضاعف لهذا الفصل، ومن القصر غير المبرر للفصل الثامن – وعدم تناغم عنوانه مع محتوياته، ومن تكرار التحدث عن الحالات التسعة، ثم ذكر بعضاً

منها لا كلها، وتكرار ذكرها في الفصل الحادي عشر، ولذا وجب أخذ ذلك كله في الحسبان عند القراءة وملاحظة تعارض بعض النقاط مع بعضها البعض.

5 1. ذلك لأن من طبيعة الجندي إبداء أقصى درجات المقاومة عند حصاره، وأن يقاتل بشراسة الأسد الجريح عند عجزه عن مساعدة نفسه، وأن يطيع طاعة عمياء عندما تحيق المخاطر به.

5 2. لا يمكن لنا الدخول في تحالفات مع جيراننا من الأمراء حتى نلم جيداً بمخططاتهم وأهدافهم. لسنا مهيئين لقيادة مسيرة الجيش ما لم نكن على دراية ومعرفة تامة بطبيعة تضاريس الأرض التي سيسير عليها الجيش؛ جبالها وغاباتها، أخطارها وأجرافها، مستنقعاتها وأخوارها. لن نتمكن من استغلال المزايا الطبيعية لصالحنا ما لم نستفد من المرشدين المحليين. [هذه الجمل الثلاثة مكررة من الفصل السابع ١٢-١٤ لأهميتها ولتشكل مدخلا لما سيلي].

5 3. الجهل بأي من المبادئ التالية لا يتناسب مع أمير حرب.

54. عندما يهجم أمير حرب على ولاية قوية، تتجلى قدراته القيادية في صورة منع تركيز العدو لقواته، وهو يلقي الرعب في قلوب خصومه، ويمنع حلفاء الخصوم من الاشتراك في المعركة ضده. [تشتيت صفوف العدو يمنحك تفوقاً في جانب القوة، هذا التفوق يرهب العدو، هذه الرهبة هي التي ستمنع جيران العدو من أن يهبوا لمساندته، وإذا خاف الجيران فذلك سيلقي الخوف في قلوب الحلفاء المحتملين فيمنعهم من الانضمام للعدو].

55. أمير الحرب لا يكافح من أجل التحالف مع كل ومختلف الناس، وهو لا يزيد من قوة الولايات الأخرى. أمير الحرب يقوم بتنفيذ مخططاته، مع إرهاب خصومه. بذلك يتمكن الأمير من الاستيلاء على مدن الخصوم وتدمير مملكاتهم.

56. امنح المكافآت دون الاعتداد بالقواعد المنظمة لذلك [كافئ الشجاعة بسخاء، وعاقب الجبن والفرار]، أصدر الأوامر دون الاعتداد بالترتيبات السابقة [لمنع تفشي الخيانة، يجب عليك إصدار مثل هذه النوعية من الأوامر عند رؤية العدو، وكافئ بسخاء عندما

تجد أمارات الشجاعة على الجنود] وبذلك ستتمكن من التعامل مع الجيش بأكمله كما لو كنت تتعامل مع جندي واحد.

57. واجه جنودك بالأوامر، ولا تجعلهم يعرفون مخططك [لا تبرر أو تفسر للجنود قراراتك]. عندما تتضح النتائج الإيجابية لقراراتك، اجعلها واضحة جدا أمام أعين الجنود وأنظارهم، ولا تخبرهم أي شيء عندما تتأخر مثل هذه النتائج الإيجابية.

58. سر بجيشك إلى قلب الخطر، وهو سينجو منها، ادفع به إلى الأماكن الضيقة والمواقف العصيبة اليائسة، وهو سيخرج منها سالما.

59. لأنه بالتحديد عندما تقف قوة ما في طريق الخطر، فهي قادرة على تحقيق النصر [الخطر له تأثير مقوي يظهر شجاعة الرجال.]

60. الانتصار في الحرب يتحقق عن طريق استعدادنا التام لتوفيق أوضاعنا بدقة حسب غرض العدو. [تظاهر بالغباء، بالانصياع لرغبات العدو وتحقيقها. إذا أظهر العدو رغبته في التقدم، اظهر له ما يغريه ويشجعه على ذلك؛ إذا كان العدو متلهفا

للانسحاب، تأخر وتلكأ عن عمد كي تشجع العدو على تراجعه. الغرض في النهاية هو دخول العدو حالة من التكاسل والتراخي حتى يكون في وضع مزري قبل أن نهجم عليه].

6 1. من خلال إصرارنا المستمر على تطويق العدو [ملازمته من اتجاه واحد] فسننجح على المدى الطويل [حرفيا ألف وحدة مسافة لي في قتل قائد العدو.

6 2. هذا ما يسمى القدرة على تحقيق أي شيء ببراعة ومكر تامين.

6 3. في ذلك اليوم الذي تتولى أنت فيه القيادة (بعد هزيمة العدو ومقتل قائده) قم بسد جميع الممرات على الجبهة، ودمر نقاط المرور (الجوازات في يومنا هذا) وأوقف مرور جميع البعثات [من وإلى داخل بلد العدو].

6 4. كن شديد الصرامة في مجلس الشورى كن شديد الإصرار على أن يقر الحاكم ويصدق على خططك حتى تكون دائما سيد الموقف متحكما في مجريات الأمور.

6 5 . إذا ترك العدو بابا مفتوحا، فيجب عليك أن تهرع داخلا فيه.

6 6 . أحبط مخططات عدوك عبر الاستيلاء على ما هو غال وثمين في نظر العدو، ثم احتل برقة وخبث حتى تتحكم في الوقت الذي سيصل فيه العدو إلى أرض المعركة. [إذا تمكنت من احتلال نقطة هامة في نظر العدو – لكن العدو لم يظهر بعدها في ساحة المعركة ليستعيدها، فالأفضلية التي حصلت عليها لم تستفد منها بشكل عملي. ولذا، فعلى من ينوي احتلال موقع ذي أهمية للعدو، عليه أن يبدأ بتدبير موعد بارع وخبيث للقاء العدو، ثم يبدأ في تملقه ومداهنته حتى يحضر العدو في الموعد الذي تحدده [هذا الموعد تعبّر عنه من خلال جواسيس العدو، الذين سيعودون ومعهم من المعلومات ما تريده لهم، وبذلك نكون أظهرنا نوايانا بطريقة بارعة وماكرة. يجب علينا التحرك بعد تحرك العدو، لكن علينا الوصول لأرض المعركة قبل وصول العدو فنحتل هذه النقطة الثمينة.]

6 7 . سير في الطريق الذي تحدده القاعدة، وقم بتوفيق أوضاعك حسب العدو حتى يمكنك الدخول في معركة حاسمة

مصيرية. [النصر هو الشيء الوحيد الذي يهم، ولا يمكن تحقيقه بإتباع الطرق التقليدية المعتادة. لم ينتصر نابليون في حروبه إلا بعدما كسر كل قاعدة حربية قديمة تمسك بها المهزومون على يديه. تكيف مع تكتيكات العدو حتى تلوح الفرصة السانحة، ثم تقدم واشتبك معه في معركة تحدد مصير القتال].

68. في البداية، أظهر خجل العذراء اليافعة، حتى يكشف العدو عن ثغرة في صفوفه، بعدها نافس الأرنب البري في سرعته الشديدة وأنت تهجم على العدو، فيكون الوقت متأخرا عليه كي يقاومك أو يصد هجومك.

الهجوم بالنارThe Attack TBy Fire

1. قال سون تزو: هناك خمسة طرق للهجوم بالنار:

الأولى أن تحرق جنود العدو في معسكراتهم

الثانية أن تحرق مخازن العدو (مخازن الذخيرة والمؤونة والوقود)

الثالثة أن تحرق وسائل النقل والإمدادات

الرابعة أن تحرق أسلحة العدو وذخيرته

الخامسة أن تقذف النار بين صفوف العدو (مثل كرات اللهب والأسهم المشتعلة)

2 . لكي نقوم بالهجوم، يجب أن يكون لدينا طرقا ملائمة لذلك، ويجب أن تكون المكونات والأدوات اللازمة للهجوم في حالة استعداد تام على الدوام.

3 . يوجد هناك موسم ملائم للهجوم بالنار، ويوجد هناك أيام بعينها تناسب إشعال الحرائق الواسعة.

4 . الموسم الملائم هو عند جفاف الطقس بشدة، والأيام المناسبة هي القمر هلالا (سابع يوم في الشهر القمري) و بدرأ (يوم ١٤) ومحاقا (يومي27 و ٢٨) إذ أن هذه الأيام الأربعة تشهد رياحا نشطة.

5 . عند الهجوم بالنار، يجب الاستعداد لتطورات خمسة يمكن حدوثها

1- عندما تمتد النيران من قلب معسكر العدو إلى خارجه، عندها الهجوم على الفور من الخارج.

2- إذا امتدت النيران لكن جنود الأعداء التزموا الهدوء ورباطة الجأش، فانتظر حلول الوقت الملائم ولا تهاجم. (الغرض من الهجوم بالنار بث الفوضى في صفوف العدو – فإذا لم يصب العدو بالذعر فهذا معناه أنه مستعد لك ينتظرك فيجب الحذر).

3- عندما تبلغ ألسنة اللهب أقصى ارتفاع لها، أتبعها بالهجوم إذا كان ممكنا، فإن لم يكن ممكنا فابق مكانك. (إذا وجدت فرجة فاستغلها وتقدم، وإذا كانت المصاعب جسام فالزم مكانك).

4- إذا لاحت الفرصة للهجوم بالنار من خارج معسكر العدو، فلا تنتظر حتى يحترق المعسكر من داخله، لكن اختر الوقت المناسب للهجوم (قد لا يكون في معسكر العدو أي شيء تشتعل فيه النار فيطول انتظارك وقتها لاشتعال النار).

5- عندما تشعل نارا، أشعلها في الجهة التي تهب منها الريح. لا تهاجم باتجاه الريح. (إذا حاصرت العدو بين جيشك وبين النار

المشتعلة التي تهب باتجاهه فسيستبسل في القتال، كما ستتضرر أنت من النار أيضا).

6- الريح التي تهب في وقت النهار تستمر لفترة طويلة، لكن نسمات الليل تهدأ بسرعة.

7- في كل جيش، يجب أن تكون التطورات الخمسة المتصلة بالنار معلومة جيدا، ويجب حساب حركة النجوم، ومعرفة الوقت لحساب الأيام بدقة. (لمعرفة أوقات هبوب الرياح، وللاستعداد أيضا للعدو إذا كان بدوره ينتظر موسم الرياح).

8- إذن أولئك الذين يستعملون النار لتساعدهم في الهجوم يتحلون بالذكاء، وأولئك الذين يستخدمون المياه لتساعدهم في الهجوم يحصلون على قوة إضافية.

9- عن طريق المياه يمكن اعتراض العدو، لكن لا يمكن سرقة جميع ممتلكاته (للمياه مفعول كبير، لكنه لا يعادل تأثير النار التدميري، كما أن المياه يمكنها إطفاء النار وإفقادها تأثيرها إذا كان معسكر العدو بالقرب من مصدر مياه).

10- شقي مصيره – من يحاول الانتصار في معاركه والنجاح في هجومه دون تنمية روح المغامرة لدى جنوده، وتكون النتيجة ضياع الوقت والمجهود. (يجب مكافأة المجيدين وتوزيع الغنائم، كما يجب تحين الفرص واستغلالها على الفور).

11- الحاكم المستنير يضع خططه مقدما، والقائد الناجح يرعى مصادره وجنوده (عن طريق الثواب والعقاب والمكافآت)

12- لا تتحرك حتى ترى فرصة تنتهزها، ولا تستعمل قواتك ما لم تكن هناك فائدة ترجوها، ولا تقاتل ما لم يكن موقفك حرجاً.

13- لا يجب على الحاكم أن يضع قواته في الميدان استجابة لثورة غضب، ولا جب على القائد أن يخوض معركة فقط بسبب جرح طال كبريائه.

14- تحرك للأمام إذا كان ذلك في مصلحتك، وإلا فالزم مكانك.

15- الغضب مع مرور الوقت قد يتحول إلى بهجة، وسبب الغيظ يمكن التغلب عليه بالقناعة ورضا النفس.

16- لكن عندما يتم تدمير مملكة بأكملها فلا يمكن إعادتها كما كانت من جديد (الموتى لا يعودون للحياة).

17- إذا الحاكم المستنير يحترس، والقائد العام يكون شديد الحذر. هذه هي السبيل لإبقاء الدولة في حالة سلام (داخلي وخارجي) مع إبقاء الجيش كاملاً وسليماً ومستعداً.

استعمال الجواسيس Using Spies

1 . قال سون تزو:

إن تجميع مئة ألف من الجنود الرجال، والسير بهم لمسافات طويلة في مناورات حربية، كفيل بأن يوقع خسائر ثقيلة على أفراد الشعب ويستنزف موارد الدولة، إذ سيبلغ معدل الإنفاق الحكومي اليومي آلاف الأونصات من الفضة، وسينتشر الهرج والمرج وتعم الفوضى داخل البلاد وخارجها، وسيسقط الجنود من الإرهاق جراء سيرهم المسافات الطويلة على الطرق، وستزيد معاناتهم كلما أوغلوا في الأراضي المعادية، وسيتضرر الآلاف من الأسر في أعمالهم وأرزاقهم.

2 . قد تقابل الجيوش المتحاربة بعضها البعض في حروب استنزاف تستمر سنين، يصارع خلالها كل طرف لاقتناص النصر المظفر، والذي قد يتحدد في يوم واحد. أن تبقى جاهلا بحالة العدو لأنك ترفض إنفاق حفنة أونصات من الفضة لشراء ذمم ورواتب الجواسيس لهو عمل يمثل قمة اللاإنسانية.

3 . من يتصرف بهذه الطريقة ليس بقائد كفء للأفراد، ولا يقدم يد المساعدة لحاكمه، وليس بجالب للنصر.

4 . وهكذا – فإن العنصر الذي يعين الحاكم الحكيم والقائد العسكري المحنك على تنفيذ الضربات القوية وتحقيق النصر، التي لا يمكن للرجال التقليديين تحقيقها، هذا العنصر هو المعرفة المسبقة بأمور العدو. لا يمكن الحصول على هذه المعرفة المسبقة عن طريق استحضار الأرواح أو استجداء الآلهة، أو بناء على سنوات الخبرة والتوقعات المدروسة، أو من الحسابات الفلكية أو النجوم.

5 . تحركات ونوايا العدو الفعلية يمكن معرفتها فقط من خلال رجال آخرين. (رغم التقدم التقني الكبير الذي حققه الأمريكيون، لكن

باعترافهم هم شخصيا، لا شيء يعدل معلومة سربها جاسوس من أرض العدو، خاصة إذا كان هذا الجاسوس من رجال العدو).

6. هكذا تبرز الحاجة الماسة لاستعمال الجواسيس، الذين ينقسمون إلى خمس فئات:

1- المحليون (المواطنون)

٢- الداخليون

3-المنشقون (المزدوجون)

4-الهالكون (المضللون)

5-الاستراتيجيون (الباقون أحياء)

7. عندما تعمل جميع فئات الجواسيس معا في وقت واحد وفي انسجام تام، فلا يستطيع أحد وقتها اكتشاف هذا التنظيم السري. ذلك هو أكثر التنظيمات الاستخباراتية أهمية عند الحاكم.

8. استعمال جواسيس محليين يعني توظيف خدمات أولئك القاطنين في الأحياء السكنية. (يشرح تو مو هذه النقطة بقوله: تودد إلى سكان أحياء العدو وأكسبهم إلى صفك ليكونوا جواسيس لك).

9. استعمال جواسيس داخليين يعني الاستفادة من ضباط جيش العدو. (يستطرد تو مو: عليك الاقتراب بحذر من ضباط وعسكر العدو المتذمرين، الذين تعرضوا لتخطيهم في الترقيات أو الطماعين أو غير الراضين عن أحوالهم العامة، أو المتمردين المحكوم عليهم بعقوبات، أو القيادات العسكرية المهمشة التي تريد إلحاق الفشل بصفوفها لتثبت أنها على حق فيما ذهبت إليه من رأي).

10. استعمال جواسيس منشقين يعني بسط السيطرة على جواسيس العدو وجعلهم يعملون لصالحك. (لا زلنا مع تو مو الذي يعقب قائلاً إن المنشقين يعملون على إعطاء معلومات غير صحيحة للعدو عنا، ولا يقتصر الأمر على استمالة أفراد ليعملوا جواسيس لنا، إذ يمكن التستر على جواسيس العدو لدينا وعدم إشعارهم بأن أمرهم قد اكتشف، مقابل الحرص على تزويدهم بما نريده من معلومات، لينقلوها بدورهم إلى العدو، دون فطنتهم للأمر).

11. استعمال جواسيس مضللين هالكين، لا ينفذون سوى أعمال محددة في وضح النهار بغرض الخداع، لكي يعرفهم جواسيس العدو ويبلغون عنهم العدو، وتزويدهم بمعلومات زائفة، حتى إذا تم اكتشافهم والقبض عليهم واعترفوا تحت ضغط تعيب العدو، كانت المعلومات التي باحوا بها للعدو مضللة غير حقيقية.

12. الجواسيس الباقون على قيد الحياة هم من يعودون أحياء ومعهم الأخبار من معسكر العدو.

13. لا تجد شيئا في أمور الجيش كله يفوق أهمية الحفاظ على علاقات قريبة وحميمة مع الجواسيس، كما لا يجب أن يفوق أي شيء مكافأة هؤلاء الجواسيس بسخاء، ولا يجب أن يفوق أي شيء السرية التامة للتعامل مع الجواسيس. يجب أن يتمكن الجواسيس من الوصول للقائد بكل سهولة وفي كل وأي وقت. الجواسيس – بحكم طبيعتهم- دائما ما يتعاونون مع من يدفع أكثر ، لذا لا يجب أن يعرفوا أي شيء أكثر مما ينبغي، ويجب الحرص منهم دائما، إذ يمكن أن يكونوا مزدوجين أو ينشقوا عليك فيما بعد.

14. لا يمكن توظيف الجواسيس بدون مبادئ عامة حكيمة ومفهومة وواضحه. يجب أن يكون القائد عالما بحقائق الأمور، فيعرف الصدق من الكذب، ويعرف الأمين من المخادع.

15. لا يمكن إدارة شئون الجواسيس بنج من دون إظهار النوايا الطيبة والوضوح التام والصدق الكامل في التعامل. يجب أن تكسب ثقة الجاسوس تماما.

16. بدون إعمال العقل والتفكير في تقارير المعلومات الواردة من الجواسيس، لا يمكن لأحد أن يكون واثقا تمام الثقة من صحة هذه المعلومات الاستخبارية.

17. كن دقيقا بارعا، واستعمل الجواسيس في شتى الأمور والمجالات.

18. إذا تم تسريب معلومات سرية إلى أي جاسوس قبل حلول الوقت المناسب لذلك، فاقتل هذا الجاسوس وكل من نقل إليه هذا السر. قتل مثل الجاسوس الشارد إنما هو عقاب له، وقتل المسرب هو للقضاء تماما على هذا التسريب.

19. بغض النظر عما إذا كان الهدف هو قهر عدو أو غزو مدينة أو اغتيال فرد ما، فيجب أن تبدأ بمعرفة قائمة أسماء الجميع، من مساعدين وعاملين وحراس، ويجب توجيه الجواسيس ليؤكدوا صحة هذه الأسماء. يجب بحث إمكانية استمالة أي من هؤلاء بالرشوة بالمال.

20. يجب البحث عن جواسيس الأعداء الذين قدموا إلينا من أجل التجسس، وأن يتم إغرائهم بالرشاوى، وأن يتم إبعادهم وتسكينهم في أماكن بعيدة ومريحة. بذلك سينشقون ويصبحون جواسيسا لنا مستعدين لخدمتنا.

21. من خلال المعلومات التي يمدنا بها الجواسيس المنشقون، يصبح بإمكاننا الحصول على وتوظيف جواسيس محليين وداخليين.

22. بناء على هذه المعلومات أيضا، يمكننا تزويد الجواسيس الهالكين (المضللين) بمعلومات زائفة يمررونها للعدو.

23. أخيرا، وبناء على كل هذه المعلومات، يمكن استخدام الجواسيس الاستراتيجيين في مهمات محددة.

24. الغرض والغاية من التجسس بكل صوره الخمسة السابقة هو معرفة أخبار العدو، تلك المعرفة التي يتم الحصول عليها في البداية من الجواسيس المنشقين (المزدوجين)، ولذا يجب معاملة أولئك الجواسيس بكل سخاء وكرم.

25. وكأمثلة على ذلك، فإن التاريخ القديم يخبرنا عن بزوغ نجم سلالة ين بسبب آي تشي الذي خدم تحت هسيا، وكذلك صعود سلالة تشو بسبب لو يا الذي خدم تحت ين.

26. الحاكم المتنور والقائد الحكيم هما من يستخدمان أفضل المعلومات الاستخبارية العسكرية لأغراض التجسس وبذلك يحققان النتائج العظيمة. الجواسيس هم أكثر العناصر أهمية، لأن قدرة الجيش على رؤية العدو وفهمه ومن ثم الاستعداد له تعتمد عليهم، على أن الإفراط في الاعتماد على الجواسيس قد يؤدي لأثر عكسي، لذا فيجب الموازنة بين جميع العناصر الاستخباراتية والمعلوماتية.

ملحق قيادة الجيوش

عند نهاية الفصل السابع من كتابات سون تزو، تأتي بعده ما يمكن تسميتها بعض الملاحق والملاحظات، والتي تبدو وكأنها مستقاة من

كتاب حربي آخر يسبق كتابنا هذا، ولا نجد اختلافاً واضحاً في أسلوب كتابته عن أسلوب سون تزو، على أن المعلقين على فن الحرب لم

يطرحوا أي تساؤلات عن مدى مصداقية هذه الملحق، كما لم يخبرونا أيضاً الكثير عن الملحق، فمنهم من وصفه بأنه كتاب عسكري قديم، ومنهم من قال أنه كتاب قديم عن الحرب. سعياً منا لتوضيح المعنى، رأينا عرض ملحق الفصل السابع منفردا في نهاية الكتاب، لتوضيح

هذا المعنى وتسهيل الوصول إلى المعلومة.

1 . في ميدان المعركة، لا تذهب الكلمة المنطوقة بعيداً بما يكفي، لذا يجب التأسيس لاستخدام الطبول والأجراس، كما يصعب رؤية الأهداف التقليدية كاف، لذا وجب التأسيس لاستخدام الأعلام والرايات. بوضوح

2 . الطبول والأجراس والأعلام والرايات هي وسائل تساعد آذان وعيون الجيش على التركيز على نقطة واحدة.

3 . يشكل بذلك الجيش وحدة واحدة متآلفة، تجعل من المستحيل على الجندي الشجاع أن يتقدم بمفرده، وعلى الجبان أن ينسحب بمفرده، وهذا هو فن التعامل مع أعداد كبيرة من الرجال. (يرى المعلقون أن جرم من يتقدم وحده يعادل جرم من يلوذ بالفرار من المعركة).

4 . القتال الليلي، استعمل بكثرة النيران والطبول، وفي القتال النهاري ركز على الرايات والأعلام، كوسيلة للتأثير على آذان وعيون جيشك.

5 . يمكن سرقة الروح المعنوية من الجيش الكبير، ويمكن سرقة حضور القائد الكبير في عقول تابعيه. (يقول المعلقون أن روح الغضب –إذا سادت في وقت واحد كل الرتب الكبيرة والصغيرة في الجيش- فلا يمكن مقاومة تأثيرها الكبير. عندما يصل جنود الأعداء إلى أرض المعركة فستكون روحهم المعنوية مرتفعة وهممهم عالية كالجبال الشوامخ، وعليه فدورنا هو ألا نقاتلهم على الفور، بل ننتظر حتى تفتر عزيمتهم وتذهب همتهم، ساعتها نضرب بيد من حديد، وبذلك نسرق روحهم المعنوية منهم).

6 . الروح المعنوية للجندي تكون في أقصى درجاتها في الصباح (بشرط حصوله على إفطار مقبول -تذكر حينما انهزم الرومانيون بجنود صائمين أمام رجال هانيبل الذين كانوا قد حصلوا على وجبة إفطار شهية) وتبدأ في وقت الظهيرة في الفتور، وفي المساء يكون تفكيره منصبا على العودة إلى المعسكر.

7 . لذلك، القائد الماهر يتفادى مهاجمة جيش روحه المعنوية مرتفعة، ويهاجمه عندما يكون عدوه كسولا بليدا يميل إلى العودة من حيث أتى. هذا هو فن دراسة الحالات النفسية.

8 . أن تبقى منظما هادئا، تترقب ظهور الفوضى والصخب والهرج والمرج في صفوف العدو - هذا هو فن رباطة الجأش والتحكم في النفس.

9 . أن تكون بالقرب من الهدف بينما لا زال العدو بعيداً عنه، وأن تنتظر بكل راحة ويسر بينما العدو يعاني الأمرين، وأن تكون تغذيتك سليمة بينما العدو يعاني الجوع وقلة التغذية – هذا هو فن توفير الطاقة الذاتية. أن تحجم عن اعتراض عدو أعلامه منظمة بشكل

مثالي، وأن تحجم عن مهاجمة جيش يمشي في هدوء وبشكل ينم عن ثقة كبيرة في النفس – هذا هو فن دراسة الحالات والظروف.

10. من البديهيات العسكرية ألا تصعد مرتفعا لتقابل عدواً، وألا تعترض طريقه عندما يهبط منه.

11. لا تطارد عدوا سريعا يكاد يطير، ولا تهاجم جنوداً طبعهم حاد عنيف.

12. لا تبتلع طعما قدمه العدو لك، ولا تعترض طريق جيش عائد إلى وطنه.

13. عندما تحاصر جيشا، اترك له منفذا ليهرب منه (ولا يعني هذا ترك العدو ليهرب، بل توحي له بوجود مخرج لبر الأمان، فتحرمه من شجاعة قتال اليائس من النجاة، بعد ذلك اطحنه بقواتك) ولا تضغط بشدة على عدو يائس.

الفصل الثالث

التشكيلات القتالية[16]

هناك عشرة أنواع من التشكيلات القتالية، تتوزع على النحو التالي: التشكيل المربع، والدائري، والمتفرّق، والمكثف، والتشكيل ذو الانتشار المخروطي، وتشكيل جماعة الإوز البرّي، والتشكيل المعقوف، والتضليلي، والناري، والمائي. ولكل من هذه التشكيلات خصائصه الفريدة ومزاياه التي تميزه عن غيره.

فالتشكيل المربع يُعتبر من أبرز الأساليب التي تؤدي إلى تحطيم القوات المعادية بشكل حاسم، إذ يجمع كل طاقات التوجيه تحت قيادة القائد الأعلى، مما يعزز من كفاءة الهجوم. بينما يهدف التشكيل الدائري إلى صد هجوم العدو، محافظًا على توازن القوات في مواجهة

[16] يتناول هذا الفصل خصائص وطبيعة ودور عشر تشكيلات قتالية، وتُنطق بالصينية «شي تشن» («تشن» بمعنى تشكيل قتالي، حرفيًا) بمعنى القواعد والمبادئ الأساسية التي تحكم توزيع التشكيل القتالي.

الضغط. في حين يتميز التشكيل المتفرق بإحداث الفزع في قلوب العدو وإثارة هواجسه، مما يجعله في حالة من الارتباك.

أما التشكيل المكثف، فيستخدم كحائط دفاعي منيِع يقي القوات من هجوم العدو، بينما يمنح التشكيل المخروطي صلابة فائقة تساعد على اختراق صفوف العدو بشكل يُفضي إلى تفتيت تماسكه وقطع أوصاله.

تُعتبر تشكيلات جماعة الإوز البرّي من الوسائل المثلى في حروب الرماية، إذ تتيح مرونة كبيرة في استهداف الأعداء بدقة. كما أن التشكيل المعقوف يتسم بالاستعداد الدائم للتعامل مع جميع الاحتمالات الطارئة، مما يُمكّن القوات من الرد السريع والحاسم.

ويهدف التشكيل التضليلي إلى إيقاع العدو في دوامة من الحيرة، مما يؤدي إلى اضطرابه وانغلاق مسالك الفهم والتقدير لديه. في حين يُستخدم التشكيل الناري لإشعال الحرائق في تحصينات العدو وتدمير أماكن تجمعاته ووحداته المرابطة.

أما التشكيل القتالي المائي، فهو يتناول هدفين رئيسيين: الأول هو تقوية التحصينات الخاصة بقواتنا، والثاني يتمثل في إغراق منشآت

العدو الدفاعية ومواقعه، مما يُسهم في تعزيز موقفنا في ساحة المعركة.

في خضم الاستعدادات العسكرية، يتخذ التشكيل المربع هيكله الفريد، حيث يتم تقليل أعداد القوات المتواجدة في قلب المربع، بينما يزدهر العدد في زواياه الأربع. في هذا السياق، تُركَّز القوة الاحتياطية في المؤخرة، لتظل بمثابة السند الحصين، استعدادًا لدعم الصفوف وقت الحاجة. ومن الجدير بالذكر أن تقليص العدد في المنتصف ينسجم مع طبيعة مهامها السامية، التي تهدف إلى تعزيز الروح المعنوية للمحاربين من خلال النداءات الحماسية، وإمدادهم بالجرعة المعنوية اللازمة لمواجهة العدو. بينما تُعزَّز الكثافة العددية في الأطراف الأربعة، لتشكل حائطًا قويًا، يُعَدُّ السلاح الفتاك لمواجهة الغزاة.

أما في التشكيل الدائري، فتتجلى الأبعاد التنظيمية بصورة مبهرة، حيث تُبرز القوة في توازنها واستعدادها لمواجهة الأعداء. وعندما ننتقل إلى التشكيل المتفرق، نجد أنه يتميز بحشد عدد قليل من الجنود، إلا أن تلك الأعداد القليلة تتحلى بميزات خاصة. فيتوجب

على هؤلاء الأفراد أن يرفعوا الأعلام والشارات بكل فخر، مما يعكس عظمة القوة وشموخها.

ويُضفي الفضاء بين الصفوف سحرًا خاصًا، إذ تتخللها أعلام وبيارق تتناغم في شاراتها وألوانها، بينما تبرز على حوافها صفوف من الرماح والسيوف المشرعة، التي تُعبر عن العزم والثبات.

ويُعتبر من الحتمي أن تمتلك القوات المتفرقة القدرة على التجمع السريع، لتفادي الانقضاض عليها من قبل الأعداء. كما يتوجب على القوات المحتشدة أن تُظهر القدرة على التمدد والانتشار بمرونة فائقة، لتجنب محاولات تطويق العدو لها. وإذا ما عجزت القوات عن تحقيق هذه الأهداف، يصبح من الضروري البحث في الأسباب الكامنة وراء ذلك، واتخاذ التدابير اللازمة للحفاظ على تماسك الصفوف وضمان استمرارية الدفاع.

ينبغي للمركبات أن تلتزم بسرعة متوسطة، وأن يتأنى المشاة في خطواتهم؛ إذ إن جوهر التشكيل المتفرق يقوم على تقسيم القوة القتالية إلى جماعات مقاتلة تتمتع بالمرونة اللازمة للتقدم أو الانسحاب، سواء في الهجوم لانتزاع مواقع العدو أو في التصدي

لوحداته المتهاوية. هذا هو السبيل الذي يمكن هذه التشكيلات من تحقيق الانتصار على قوات معادية تتفوق في التسليح والبأس.

تتجلى طريقة توزيع التشكيل المكثف من خلال تقليص الفواصل بين القوات، ما يؤدي إلى تلاحمها بكثافة ملحوظة. وفي هذه الحالة، يجب على القوات الأمامية أن ترفع سيوفها المجردة، مع توجيه نصالها نحو العدو، مع الحفاظ على تنسيق مستمر بينها وبين القوات المؤخرة. فإذا انتاب الجنود الخوف، وجب عليهم التمسك بأرضهم بصلابة، وترديد العبارات التحفيزية بشكل شفوي، مع ضرورة تجنب مطاردة قوات العدو المنسحبة أو مواجهة تلك التي تهاجمهم. بل ينبغي أن تُركَّز الجهود على استهداف قوات العدو الملتفة من الجوانب، أو توجيه ضربات ساحقة لطلائعه، مما يضعف إرادته وينال من كبريائه.

ويجب أن تحتشد القوات بكثافة ودرجة عالية من التماسك، بحيث يصعب على العدو إيجاد ثغرة للنفاذ منها، فيُصدّ إلى الوراء كما لو واجه جبلاً منيعًا. هذا هو التشكيل الذي لا يُقهر، حيث يفقد العدو الأمل في تحقيق أي هجوم.

أما التشكيل المخروطي، فهو يشبه السيف القاطع، إذ إن قوة الطليعة يجب أن تكون حازمة كحد السيف، لتتمكن من التغلغل بين صفوف العدو، في حين يجب أن تكون الأجناب قوية وقاطعة لضرب كتلة العدو وتقسيمها. لا يمكن للقوات تنظيم هذا التشكيل ما لم تكن على درجة عالية من القوة، مما يتطلب أن تتسم طليعة التشكيل بصلابة واستعداد دائم، بينما يتوجب على الأجناب أن تكون جاهزة وقادرة على الانقضاض، بحيث يتوفر لكل عناصر التشكيل طاقة قتالية هائلة، وهذا هو السبيل الذي يتيح للتشكيل المخروطي اختراق صفوف العدو.

أما التشكيل الذي يشبه جماعة الإوز البري، فهو يتطلب استحضار صورة مجموعة من الإوز الطائر، حيث تكون طليعة التشكيل أشبه بجناحي نسر مهيب، مفرودين في اتساعهما، لينقضّا على أجناب العدو. ثم تبادر المؤخرة بالوثوب نحو قوات العدو، كوثبة قطة مفترسة، لتتجاوزها بسرعة، محاصرة إياها من ثلاث جهات، فتضيق الدائرة حولها، مما يجعل الهرب مستحيلاً. فتأمل في هذه الصورة المعبرة.

إن تشكيل المشجب المعقوف يُظهر تنسيقًا فنيًا بديعًا، حيث تتخذ الطليعة وضع التشكيل المربع، بينما تنحني الأجناب لتشكل هيئة مشجب معقوف. وتُسخِّر القيادة مجموعة من الوسائط لإبلاغ الأوامر، مثل الصنوج، والطبول، والأجراس، مما يضفي على الساحة جلالًا وإيقاعًا. وينبغي أن تتوافر أعداد هائلة من البيارق والأعلام، بألوان وأشكال متنوعة، لتزيد من هيبة التشكيل. ويتوجب على كل فرد في هذا التشكيل أن يكون على دراية تامة بالموسيقى المميزة لوحدته، مما يمكّن القائد، مهما كان موقعه، من إصدار أوامره بوضوح وفاعلية، لتُسمع إلى آذان صاغية.

أما نمط التشكيل التضليلي، فيتسم بعرض كثيف من الأعلام والبيارق، مما يخلق هالة من الضجيج والارتباك. تتعالى أصوات الطبول والأبواق حتى تكاد تملأ الأفق، فيبدو للعين وكأن الجنود في فوضى عارمة، بينما هم في حقيقة الأمر يتبعون خطة محكمة من الانضباط والجديّة. وتظهر العربات كأنها تتخبط في عشوائية، لكنها تسير وفق نظام صارم يخفى خلف الظاهرة.

من المتفق عليه أن مظاهر الفوضى هذه متعمدة، بما في ذلك الأصوات الصاخبة للعربات في الزحام، ووقع الأقدام، واحتكاك العجلات، وصهيل الخيل، وثرثرة الجنود، مما يخلق جوًا من الصخب وكأن الرعود قد نزلت من السماء. وفي خضم هذا المشهد، يشعر المشاهد بأن هذه الضجة لن تتوقف أبدًا، كأنها ستدوم إلى الأبد، فتتزايد حيرة العدو وارتباكه، وهو الهدف المنشود من التشكيل التضليلي، الذي يجسد فن الحرب بأبهى صوره.

في عالم الحروب وتكتيكات الهجوم الناري، تتجلى فنون التنظيم العسكري بأسمى صورها، حيث تتناغم العناصر في تنسيق متقن. تُحفر الخنادق بعد شق الوديان، وتُقام الحصون الشامخة على المرتفعات كأبراج تحرس جبهات القتال. وفي طيات الخنادق، تُركَّب أكوام من الحشائش الجافة، موزعة بفواصل دقيقة تبلغ خمسة أقدام، مع الحرص على الحفاظ على توازن متقن في كثافة التغطية، فلا تزداد عن حدها، ولا تنقص عن المطلوب.

ويُقلَّص عدد الجنود الموكلين بإشعال الحرائق، فحين يُؤمرون بالبدء، تبدأ النيران في الرقص كالأشباح على الأرض، حزمةً تلو الأخرى،

دون أن يفقدوا خفة الحركة التي تميزهم. لكنهم يُوصَون بوجوب الانتباه إلى اتجاه الرياح، حيث يتوجب عليهم الابتعاد عن وجه اللهب، لئلا تتعرض أرواحهم للخطر. فإن أصابتهم النيران، سيقعون في فخ الفشل والخزي، ليبتلعهم عار الهزيمة.

وتكون مواقع العدو، تلك الجبهات التي تُهَبّ عليها الرياح، في تفضيل ساحات مستوية وغنية بالحشائش، فحين تشتعل النيران، تحاصر العدو من كل جانب، وتُضيق عليه منافذ الهرب. إنها طريقة مُحكمة تُعزز قدرة الهجوم بالنيران، حيث تتحول الفوضى إلى نظام يُخفي بين طياته دقة التنفيذ.

وفي أوج القتال، تأتي اللحظة الفاصلة، حيث تستثمر الظروف المثالية في انتهاز التراخي والاهتمام الضعيف من قبل العدو. تنفجر النيران في قواعده، لتبدأ دوامة الارتباك، بينما تتساقط عليه قذائف الرماة، وتتردد في الأرجاء أصوات طبل الحرب. يجتمع حوله زخم المهاجمين، وتشتعل حوله قوى النيران، مُشكِّلة صورة قاتمة تُظهر مشهد الفوضى التي تُخفي في داخلها نظامًا عسكريًا راسخًا.

أما في البحر، فإن تشكيل المعركة ينفذ بمهارة، إذ يُفضَّل أن يفوق عدد المشاة عدد المركبات. يُعطى الأمر بالتأهب والاستعداد بكامل العتاد، من الطوافات البحرية إلى المجاذيف، لتكتمل صورة الحرب البحرية، حيث تتداخل أصوات الأمواج مع أصداء الأوامر، مُعلنةً بداية صراع يتجاوز حدود الزمان والمكان.

يجب على القوات أن تتقدم في صفوف متتابعة، محاذرةً الفوضى والارتباك، سواء في مسار التقدم أو في حالة الانسحاب. تسير السفن، كل اثنتين معًا، كأنهما توأمان، الواحدة تلاحق الأخرى، بحيث يتركز هدف الهجوم على قوات العدو.

تتم عملية الهجوم البحري وفق نظام دقيق، حيث يصعد القائد إلى طراد بحري، متخذه طليعة متقدمة، بينما يُعين ضابط اتصال في قارب سريع، يتعقب العدو في حال حاول الفرار، ويواجهه بكامل العتاد إذا بدأ بمبادرته. في كل الأحوال، سواء كان الحديث عن التقدم أو التقهقر، يتعين مراجعة أحوال القوات بدقة متناهية، واستقصاء شؤونها وترتيبها ومدى استعدادها، مما يعكس مدى انضباط الجيش وكفاءته.

تُعطى الأولوية لإعاقة أي محاولة تقدم من جانب العدو، وإذا ما اندلعت المعركة، فإنه يجب تجنب الاشتباك إذا كان العدو متمتعًا بتنظيم جيد وضبط عسكري محكم. لذا، تُعطى أهمية بالغة لاستقصاء مستوى تسليح العدو وعدد عرباته وجنوده، إذ إن العناصر الأساسية في قتال التشكيل البحري تتمحور حول مهاجمة بوارج العدو، وإغلاق المرافئ والمعابر، وشن الغارات من القواعد البرية حيث يتمركز المشاة.

وفي ختام النص، يظهر الرقم "سبعمائة وثمانون وسبعة" دون دلالة واضحة، مما يترك مساحة للتساؤل عن ارتباطه بالنص ودلالته المحتملة، كأنه غموض يعكس طبيعة الحرب وتعقيداتها.

الأسئلة العشرة[17]

في سياق الحديث حول استراتيجيات القتال، اجتمع سونبين مع أحد الخبراء العسكريين، لتدور بينهما حوارٌ يحمل أبعادًا عميقة:

سأل الخبير: «إذا تساوت الاستعدادات بين قواتنا والعدو، من مخزون الحبوب واحتياطي الغذاء وقوة التسلح، بينما أعد العدو تشكيلاته الحربية على نمط دائري، فكيف يمكننا أن نتغلب عليه؟«

فأجاب سونبين بحكمة: «لمواجهة عدوٍ متماسك كهذا، يجب علينا تقسيم قواتنا إلى أربع أو خمس فرق. نقوم بشن هجوم سريع، ثم نتراجع سريعًا، متظاهرين بالانسحاب. سيتبع العدو تلك الفرق، مطمئنًا إلى أنها في حالة فرار، مما يؤدي إلى تفكك تشكيله الدائري. وحينها، نستطيع أن نلتف حوله ونشتبك معه، لنحقق النصر في هذه

[17] يتناول هذا الفصل عدة أسئلة حول مقارنات بين مدى قوة الأطراف المتحاربة مقابل بعضها بعضًا، مع ذكر مختلف وسائل القتال في ظِلِّ ظروف متباينة، وهي في مجموعها تبلغ عشرة أسئلة محدَّدة، فمن ثَمَّ، كان العنوان بالصينية «الأسئلة العشرة» مقابل ما تطرحه بعض النسخ من عناوين أخرى، مثل: «أسئلة حول فن الحرب.«

المواجهة الحاسمة. هذه هي الطريقة التي تكسر بها قوة التشكيل الدائري«.

واصل الخبير: «وإذا ما وقعنا في مواجهة عدوٍ يفوقنا عددًا وعتادًا، وفوجئنا به ينشر تشكيلاته على نمط مربع، فما السبيل لمواجهته ودحره؟«

أجاب سونبين بثقة: «في هذا الموقف الصعب، ينبغي علينا استخدام أسلوب القتال المشتت. نتظاهر بالانخذال أمام هجماته، وفي خضم ذلك، نلتف على أجنابه ومؤخرته، مما يجعله غير مدركٍ لخطتنا. بهذا، نُجبر العدو على تفريق صفوفه ونواجه تشكيلاته المربعة بشجاعة«.

ثم سأل الخبير مجددًا: «لكن ماذا لو التقينا بجيشٍ أقوى وأمضى، وقد أعد قواته في تشكيل يُسمى "التشكيل النافذ"؟ كيف نتمكن من التغلب عليه؟«

أجاب سونبين: «لمواجهة مثل هذا التشكيل القوي، يجب تقسيم قواتنا إلى ثلاث فرق. تتولى إحداها الاعتراض على القوات المعادية، بينما تُسارع الفرقتان الأخريان بمهاجمة أجنابه، مما يُدخل الارتباك

والرعب في صفوف العدو. وعندما تتخلل الفوضى تشكيلاتهم، تكون الهزيمة حتمية، فهذه هي الطريقة التي تُمكننا من دحر أقوى التشكيلات، كما يُظهر لنا تاريخ الحروب«.

واستمر الخبير في طرح الأسئلة: «فماذا لو واجهتنا قوات العدو، أكبر عددًا وعتادًا، وقررت نشر تشكيلاتها في وضعية اعتراضية مستعرضة، فكيف نتصدى لها؟«

أجاب سونبين بوضوح وثقة: «لمواجهة عدو يمتلك مثل هذه القوة، يتطلب الأمر تقسيم قواتنا إلى ثلاث فرق، تكون الأولى مكونة من أشجع المقاتلين وأكثرهم براعة. بينما تتكفل الفرقتان الأخريان بمهام الدفاع عن خطوط الجبهة، مع الحرص على حماية العمليات التي تهدف إلى تشتيت قوة العدو وطاقته. في هذه الأثناء، تتقدم الفرقة المؤلفة من أشجع المحاربين نحو قلب العدو، مما يخلق حالة من الارتباك في صفوفه، ويحدث خللاً في توازنه، فيدور عليه الفلك، فتلك هي الوسيلة المثلى لدحره وقطع دابر قادته«.

ثم سأله أحد الحضور: «ماذا لو التقت قواتنا، التي تتفوق في عدد المشاة، لكنها تعاني من نقص في المركبات والخيالة، مع عدو يمتلك

عشرة أضعافنا من العربات والخيول؟ هل ترى طريقة للقضاء عليه والانتصار عليه، رغم كل ذلك؟«

رد سونبين بحنكة: «في هكذا مواقف، ينبغي أن نستولي على المناطق ذات الأهمية الاستراتيجية البالغة، مع تجنب الأراضي السهلة المنبسطة والحقول الواسعة المكشوفة، إذ إن التواجد في تلك البقاع يجعلنا فريسة سهلة للعدو. فالأماكن المنيعة هي الأنسب لقوات المشاة، حيث تعزز من قدرتها على الدفاع وتزيد من فرص النصر. هذه هي الطريقة الأكثر ملاءمة للتغلب على عدو يمتلك العدد الكبير من العربات والخيالة«.

تواصل الحوار، فطرحت الأسئلة بمزيد من الفضول: «كيف يمكن مقاومة عدو يزيد عدد مشاته بعشرة أضعاف، في حين أننا نتفوق عليه في عدد المركبات والخيالة؟«

أجاب سونبين بعقل راجح: «إن الأساس في مواجهة مثل هذا العدو هو الابتعاد عن الأماكن المحصنة، وعلينا أن نكون على حذر دائم، مستعدين للتنقل والانسحاب عند الحاجة، مع البحث عن الفرص المناسبة لاستخدام تكتيكات المناورة. إن استغلال قدرات

مركباتنا واستخدامها بذكاء يمكن أن يحدث الفارق في مسار المعركة، لاسيما إذا تمكنّا من الاستفادة من ضعف العدو في الأماكن المكشوفة. هناك دوماً مخرج ما، وعليكم فقط أن تعرفوا كيف تعثرون عليه«.

قال: «يجب علينا أن نستدرج العدو إلى السهول الواسعة، حيث تنبسط الأرض أمامنا، فتدور الاشتباكات في رحابها. ومهما بلغ عدد قواته من المشاة، فإننا سنستثمر طاقات مركباتنا وفرساننا، لنقضي على العدو. فتلك هي الطريقة المثلى لمواجهة تشكيل يتزايد فيه عدد المشاة«.

فسأله: «وماذا لو كان العدو أكثر عددًا وأوفر عدة، وأقوى رجالًا وعتادًا؟ كيف نثبت في وجهه، ونحقق النصر عليه؟«

أجابه: «ما دام العدو قد تحصن بمواقع منيعة، فعلينا أن نستكشف نقاط ضعفه، لننفذ منها إلى مهاجمته، بمعنى أن نستثمر كل فرصة سانحة للاختراق. فتلك هي الطريقة لمواجهة أعداء يحتلون مواقع حيوية«.

ثم سأله: «وكيف إذا واجهتنا قوات تتسم بالشجاعة والقوة، تحت قيادة بارزة تندفع نحو أهدافها بعزم لا يلين، فتدوس في طريقها على المقاطعات دون خوف؟ هل هناك وسيلة لمواجهتها؟«

أجابه: «إن مواجهة مثل هذا العدو تتطلب منا أن نجعله يعتقد أننا أقل عددًا وأضعف مما هو عليه، وأن نتخذ مظهر الخضوع لإملاءات قوته، بينما نعمل في الخفاء لنترقب الفرص السانحة للاشتباك معه. وبذلك نغريه بالزهو، ليقع في فخ الغفلة، ثم نباغته بهجومنا المفاجئ، مركزين على نقاط ضعفه. إن العدو الذي يعتريه الغرور سيفقد حذره، ولن ينتبه إلى ما نتربص به من كمائن«.

واصل الحوار، فسأله: «وإذا كان الجيشان قد أعدا العدة للاشتباك، وكان العدو محصنًا في جبال منيعة، وإذا اقتربنا، انكشفنا، فهل هناك وسيلة لمواجهته؟«

أجابه: «إذا كان العدو في مثل هذه الظروف، فإنه ينبغي علينا أن نجبره على فقدان شعور الأمان، فنزرع في قلبه الإحساس بالخطر، بتوجيه الهجمات نحو أماكن يعتبرها ملاذاته الآمنة. وعندما يضطر لمغادرة مواقعه، ينبغي علينا أن نتنبأ بخططه المستقبلية، ونعد

الكمائن اللازمة. تلك هي الطريقة الفعالة لضرب العدو وهو في حركة«.

سأله: «وإذا كان الجيشان قد أعدا تشكيلاتهما القتالية، وبدت تشكيلات العدو كالمجرفة، تسعى للقضاء على قواتنا، فما الذي نستطيع فعله حينئذٍ؟«

أجابه: «لمواجهة العدو في هذا التشكيل، يجب عليك أن تستنفد كل جهدك، فتجهز ثلثي قواتك لاستهداف مركز ثقله. ومن ثم، عليك اختيار أفضل المقاتلين ليتوجهوا بهجمات جانبية على أجناب العدو. وعليك أن تضلل نواياك عنه، فتظهر له أنك على وشك الوقوع تحت تطويقه، وعندما ينغمس في هذا الوهم، يفاجأ بقواتنا المترقبة لتوجيه الضربات القاضية. هذه هي الوسيلة التي تتيح لنا مقاومة تشكيل العدو الذي يجتاح ساحات المعارك كالمجرفة«.

***

[جرى تذييل هذا الفصل في إحدى النسخ بالرقم «سبعمائة وتسعة عشر»، ولا تُعرف مناسبة أو دلالة ذلك الترقيم.]

ضرب نقاط القوة عند الخصم[18]

الطريقة المتبعة في ضرب عناصر القوة المنتقاة لدى العدو، تقوم على مواجهة تشكيلاته المربعة [فراغ] بغير [فراغ]، ولضرب هذه

[18] عنوان هذا الفصل حرفيًّا، وحسب ما ورد في هامش إحدى النسخ المحقَّقة «ضرب أفضل العناصر المنتخبة من جنود العدو»، ويتناول المحتوى فنون مهاجمة القوة القتالية ذات التفوق لدى الطرف المعادي، وقد أحجمت عدة نسخ صادرة عن ترجمته؛ نظرًا للفراغات الكثيرة التي تتخلَّل عباراته، مما تعذر معه صياغة معنى واضح ومترابط لمحتواه، لكني حاولت بقَدْر ما أستطيع أن أترجم النص — مع عواره — وحسب الهيئة التي ورد بها في النسخة المُترجَم عنها (وكل النسخ تُورِد النص بهيئته المليئة بالثغرات والمساحات الخالية). ورأيت أن من حق القرَّاء — أو على الأقل بعض القراء ممَّن يتملكهم الفضول — أن يُطالعوا بأنفسهم حجم وشكل ما يتخلَّل المتن من فراغات؛ فالمادة، هنا، عبارة عن وثيقة ذات قيمة أثرية فضلًا عمَّا تحظى به (في الاعتبار الأول، بوصفها) مدونة تاريخية في فنون الحرب والقتال. وكشأن الوثائق القديمة دائمًا، فتآكُل الأطراف، وضياع الكلمات، وانمحاء الأحبار، بل اصفرار الأوراق وتَلَف وتهشُّم الجسم العام للوثيقة ... كل ذلك يُضفي عليها طابعًا معهودًا من الخصائص التي تمنحها قَدْرًا من القيمة، وإذ نُطالع النص، بهذا المعنى، فلا نظن أنَّا نحتاج لعَيْن القارئ وإنما لذهنية المحقِّق ومذاق المطالع والمتأمل في قطع الآثار، أو قل إن المساحات الفارغة (وكما هو الحال في فنون التصوير الفوتوغرافي) تقود مسار العين الفاحصة — أحيانًا — وبحكم تبادل مواقع الاتزان البصري، إلى ما هو ممتلئ بالتكوين، ... بالمعاني والكلمات، في حالة النص المنقول أمامنا، أي إن مساحات الفراغ تزيد في قيمة ما هو منظور ومقروء في النص المكتوب، هكذا أقدِّر وأرى!

[فراغ]، وإذا كان المطلوب الهجوم بعنف، [فراغ]، استخدام قوات أقل عددًا، [فراغ].

... [فراغ]، وبالعكس، فلا بد من قيام مجموعات المقاتلين بمطاردته، حتى [فراغ]، [فراغ]، وتتقدَّم قوات الميمنة والميسرة بمحاذاته، وهو ما يطلق عليه تشكيل [فراغ]، فلا يستقر في الخفاء، وإنما تنطلق الجيوش الثلاثة، [فراغ] والدروع [فراغ]، يجري تقسيم [فراغ] الجيش [فراغ] وحده، بل الناس جميعًا أو جمهرة [فراغ].

... [فراغ]، والصعوبة في ذلك أن [فراغ]، ثم تقسم الجماعات، بينما [فراغ]، فإذا لم يكن التشكيل بالقوة الكافية، ف [فراغ]، فمسافة بعيدة، بحيث يطوي العدو المسافات [فراغ]، ويهزم قادته فيتفرَّق قلب العدو بددًا [فراغ] بقوة رجاله، واحتشاد جنوده، [فراغ]، مقارنة بتلك الحشود [فراغ]، فتلك وسيلة الجنود [فراغ].٢

القوات السيادية والقوات الزائرة[19]

يتقاتل، أحيانًا، طرفان (يتساندان في جهد القتال) على جبهة واحدة، فيكون أحدهما الجيش الزائر (الغازي)، والآخَر الجيش السيادي (المرابط)، ويلزم أن يكون الزائر أوفَر عددًا من السيادي، فيزيد عدده بما مقداره الضعف، على أن تكون درجة القوة متماثلة لكلٍّ من الجهتَين [فراغ] [ورد في نسخة أخرى محقَّقة، بدل هذا الفراغ عبارة، مفادها: وهو المقدار المتكافئ، الذي يسمح لهما بالمواجهة القتالية للتشكيلات (المعادية)]، ولا تتخذ القوات الزائرة مواقعها إلا بعد أن تتحدَّد التشكيلات ومواقع القوات السيادية التي ترابط في أنسب المواقع وأكثرها ملاءمة قتالية (من حيث طبيعة المكان

[19] العنوان الأصلي، هنا، حرفيًّا: «الفرق بين القوات السيادية والزائرة»، وكان العُرف السائد في المفاهيم الوطنية والعسكرية في الصين القديمة أن يطلق على مجموعة الفرق أو الجيوش أو القوات التي تهاجم العدو خارج حدود الوطن، «القوات الزائرة»، بينما يُسمَّى الجيش المتمركز على أرض الوطن «القوة السيادية»، والمحتوى العام يقصد إلى أن وفرة الجنود والاحتياطي الغذائي وقوة العدة والعتاد لا تمثل كلها إلا هامشًا ثانويًّا في أمور القتال، في حين أن الموضوع الرئيس يَكمُن في فَهم دقائق القتال وفنونه ومعرفة أحوال الوطن وأعدائه وكيفية استغلال التضاريس والفرص والمواقف الملائمة لضمان النصر.

والتضاريس الأرضية)، ويتوجَّب على القوات الزائرة أن تَعْبر الموانع [حرفيًّا: الجبال، والأنهار، والمستنقعات]، حتى تصل إلى ساحات القتال، [فراغ]، فلماذا تحجم، بعد ذلك، عن التقدُّم لملاقاة العدو، وتهرع إلى الانسحاب، غير عابئة بما قد تتعرَّض له من مخاطر؟ (والإجابة هي أنها ما كانت لتضطر إلى هذا، إلا بسبب ...) عدم ملاءمة التضاريس وطبيعة الأرض للتشكيلات القتالية. وما دامت تلك الأحوال تشكِّل عائقًا، فلن يستطيع المقاتلون [فراغ]، ومن ثَمَّ يلجئون إلى الانسحاب؛ فلذلك أقول إن المحارب العبقري هو مَن يجيد استغلال التشكيلات القتالية المناسبة فوق تضاريس ملائمة.

عندما يتجاوز عدد المقاتلين في التشكيلات عشرات الآلاف، يسود بين عامة الناس إحساس بأن مثل هذا العدد الهائل سيلتهم خزائن الحبوب عن آخِرها وأنها لن تكفيه، [فراغ]، ففي الأوقات العادية (وقت السِّلْم) تصبح أقلُّ زيادة في عدد الجند عِبْئًا على الإعاشة، وفي ساعة التعبئة للقتال، تصير أعداد الجند المتضاعفة هي غاية الأمل، فأعداد الجنود وقت السِّلم كثرة ضاغطة على الإمداد والإعاشة، لكنها تبدو وقت الحرب حشودًا قليلة يُرجى لها المدد والزيادة [كذا].

آلاف مُؤلَّفة من الجنود، ومئات الآلاف من المقاتلين يخرجون إلى ساحات القتال، أعداد مهولة منهم، [فراغ]، بل مئات الآلاف يشنُّون الغارة علينا، وليس سوى القائد المحنَّك هو وحده القادر على تشتيت حملاتهم وتفريق صفوفهم [حرفيًّا: فَصمُ عُرى ما بين رأس الجيش وذيله (كذا)] وتقطيع أوصالهم، كما يقطع القصَّاب أوصال الضأن والماعز. (فإذا تمكَّن القائد المظفر من ...) تفريق صف العدو وتبديد طاقته، والغلبة على قواته، فهو جدير بأن يكون قائد الجيش الهادر والفيالق الجرَّارة، حتى وإن كان جنوده هم الأقل عددًا وعدَّة، أما إذا عجزَ عن تحقيق ذلك المستوى من الإنجازات، فسيكون قد أهدَرَ قيمة مُقاتِليه وإنْ تجاوزَت أعدادهم أقصى الحدود وآفاق المدى.

هل يمكن إحراز النصر لمجرَّد تفوُّق القوات من حيث الكثرة العددية؟ لو كان الأمر كذلك، لصار النصر مرهونًا بعملية حساب دقيقة لعدد أفراد الجيش. فهل، إذَن، يتحقَّق الانتصار لأكثر الأطراف حظًّا من الموارد والعتاد والثروة؟ لكن، لو كان الموضوع بهذه البساطة، لما احتاج الأمر أكثر من معرفة مقدار مخزون الحبوب ورصيد الاحتياطي العام لترجيح كفة النصر.

قد يكون، إذَن، حجم التسليح وجودته ودرجة التسلُّح هي العوامل التي تجلب النصر، أيمكن أن يكون هذا هو السبب حقًّا؟ بيد أنه لو كان الأمر كذلك، لأمكنَ ضمان النصر بكل سهولة (حتى قبل بدء القتال، بزمن طويل). ومن ثَمَّ يُمكِن القول بأن وَفْرة عناصر الثروة وكثرة الموارد في بلد من البلدان ليست ضمانًا مؤكَّدًا لتحقيق الأمن والاستقرار، ولا كانت ندرة الموارد والافتقار إلى الثروات مَجْلبة للخطر، ثم إن كثرة الجند ليست شرطًا للغلبة على العدو، ولا ندرة المقاتلين (... بالمقابل، سببًا في الهزيمة) [سقطت هذه العبارة من المتن، في إحدى النسخ المحقَّقة، واستكملتها بعض الشروح في الهامش؛ فلذلك أوردتُها بين قوسين]، ذلك أن ما يقرِّر النصر أو الهزيمة (من ناحية)، والسلام وعدم الاستقرار (من ناحية أخرى) يَكمُن، حقًّا، في مدى فَهْم واستيعاب فن الحرب وطرق استخدام القوات، بالقَدْر الذي يمكن معه تفريق صفوف العدو — عندما يتميَّز بوفرة عدد المقاتلين في التشكيلات — وإعاقة تبادل العون والمساندة بين فيالقه المقاتلة، وبالقَدْر الذي يمكن به شنُّ الغارة على عدو جيد التسليح والتعبئة والإعداد، على نحو يسبِّب له الإرباك والفوضى، وبالقدر الذي يبدِّد فاعلية الموانع والحصون [حرفيًّا: الخنادق والقلاع

...] ويبطل قيمتها الدفاعية للعدو، وبأسلوب ينزع قيمة وقوة التعبئة لدى عدو جيد التسليح، ويعوق جنود العدو عن حماية قادتهم، فتلك كلها مظاهر استيعاب فن ومنطق الحرب التي تمكن من إحراز النصر.

(ومن ثَمَّ)، كان القائد المُحنَّك هو الذي يملك ناصية فنون القتال، ويعرف مدى أهمية إعداد خطط القتال الدقيقة والتفصيلية قبل بدء المعارك، واتخاذ أهبة الاستعداد على أكمل وجه؛ فذلك هو السبيل إلى اكتساب الثقة في التقدُّم بخُطى ثابتة نحو النصر (قبل المعارك)، بل التمكُّن من إحراز التفوُّق المظفر على العدو (في ختام جولات الاشتباك)، وهكذا، يمضي القادة إلى ساحات القتال، فيَظفرون بالنصر، أو ينسحبون بقواتهم دون خسائر تُذكَر؛ ذلك بأنهم قد أحاطوا علمًا ودراية بفن استخدام القوات، [فراغ]، على القوات الزائرة أن تلتزم بما تفرضه القوات السيادية [فراغ]، حيث تنص قاعدة فن القتال على أنه: على القوات السيادية أن تواجه الأعداء عند المناطق الحدودية، [فراغ]. وهكذا، تؤدِّي القوات الزائرة خدمة جليلة [فراغ]، بحيث يتم إنهاك قوات العدو وتثبيط عزمها (حتى يبلغ بها الوهن والإحباط مبلغه) فيصير النصر أدنى من قطوف دانية، فإمَّا أن يتم تثبيت الجناح الأيسر للعدو؛ لضرب الأجناب اليمنى، سعيًا لإيقاع

الهزيمة بها، وهي أبعَد ما تكون عن أي قَدْر من المساندة، أو يجري تحطيم ميسرة العدو مع قطع الطريق بينه وبين أية تعزيزات يمكن أن يحصل عليها من قوات الميمنة، فتلك هي الوسيلة لإعاقة تحرُّكات قوات العدو والعمل على دفعها للانسحاب، حيث تعجز عن التصرُّف بسبب قلة عدد القوات (في الجانب القريب [كذا])، ويُحال بينها وبين الحصول على مساندة (من الجانب البعيد)، نظرًا لما أصاب وحداتها من التشرذم والفوضى [فراغ].

البراعة القتالية[20]

إن الخبير بإدارة المعارك، المتمرِّس بفنون القتال، هو ذلك الذي يقدر على تشتيت صفوف العدو مهما كانت قوته، [حرفيًّا: مهما بلغت كثرة جنوده وكثافة خيوله الراكضة] فتتفرَّق حشوده وتتشرذم وحداته، بما يتعذَّر معه أن تساند بعضها بعضًا، وتتعرَّض للهجوم المتواصل الذي يدك قواعدها ويشل يدها، حتى، عن طلب النجدة وإبلاغ أحوالها لقيادتها، فتنقطع الصِّلة بين وحدات العدو المقاتلة،

[20] ترجمة عنوان هذا الفصل حرفيًّا كالتالي: «الخبراء»، ويشير إلى «العليمين ببواطن الأمور في فنون القتال»، ويتناول أوجُه التفوُّق الملحوظة في ميادين القتال على يد القادة المحنَّكين.

وتبطل من ثَمَّ قيمة تحصيناته الدفاعية بكل ما أقيم فيها من قلاع، وما حُفر في وديانها من أخاديد، وتتبدَّد أهمية ما تكدس في خزائنه من احتياطي الغذاء، وتضيع مهابة جنوده مهما امتازوا بالشجاعة.

إن رجل الحرب المحنَّك، الحاذق فنون استخدام القوات، هو الذي يعرف كيف يلاحظ ويقيِّم التضاريس الأرضية [كذا]، ولا يَفوته أن يُحسن استغلال الأراضي المنيعة، ويرابط في مواقعه بقوات كثيفة، ويتقدَّم أو ينسحب من ساحات القتال بكل مرونة. (إن القائد العليم بفنون الحرب ...) هو الذي يجعل من الكثرة في جيش أعدائه شرذمة قليلة [... يقلِّل من قيمة الزيادة العددية في الجيوش المعادية، ويخصم منها هذه الميزة، بما يفرضه عليها من الشعور بالحاجة إلى مزيد من القوات]، ويجعل بطونها تتضوَّر جوعًا، حتى وهي تحوز خزائن الحبوب والغذاء [يقلِّل من قيمة ما تختزنه جيوش الأعداء من احتياطي الغذاء مهما عظمت كميته]، وينزل بنفوسها وأجسادها الإرهاق والتعب، حتى وهي قابعة مكانها، ويبدد ما الْتفَّ حولها من جموع الناس، ويباعد بينها وبين قلوب المؤيِّدين لها من أبناء شعبه مهما عظمَتْ حشودها، (إن قائدًا حكيمًا يستطيع أن ...) يوقع

الشحناء والكراهية بين فصائل جيوش وثيقة الصلة بين عناصرها، ويقطع أوصال قوات كانت، بالأمس، على قلب رجل واحد.

على كل جيش مشتبك في قتال أن يُلاحظ طريقتَين من طرق الحرب، أولاهما تُسمَّى: «الطرق الأربعة»، وثانيتهما يُقال لها: «التحرُّكات الخمسة». فالطرق الأربعة هي طريق التقدُّم للأمام، والانسحاب والتقدُّم جهة اليمين ثم اليسار، أما التحرُّكات الخمسة، فهي: دَفْع القوات للأمام، والانسحاب، والميل إلى اليسار، والركون إلى اليمين، والتوقُّف. وهذا الأخير يُعَد، أيضًا، أحد عناصر التحرُّك (فلا تحسبنَّه مناقضًا لذلك المعنى)، إن القائد العبقري هو ذلك الذي يجيد الاهتداء بالطرق الأربعة، والاسترشاد بالتحرُّكات الخمسة، بكل وعي ومرونة، (فإذا استطاع، حقًّا، أن يبلغ هذا القَدْر من الإجادة ...) فلن يستطيع العدو أن يقف في طريق تقدُّمه ولا أن يقطع عليه خط الرجعة إذا ما أراد الانسحاب، ولا أن يعوق ميله إلى اليمين أو اليسار، بل سيستشعر إزاءه أعظَم إحساس بالتهديد والخطر، حتى وهو مرابط بقواته في مواقعه، دون اشتباك في ساحة القتال [... جاءت الجملة الأخيرة، بهذا المعنى، في إحدى النسخ المُترجَم عنها، لكنها في

كثير من النصوص المتاحة لهذا الفصل كانت مهملة من السياق، وورد مكانها فراغ خالٍ من الكلمات].

إن المتمرِّس في فنون القتال سيعمل على إعاقة كل محاولات العدو للجوء إلى الطرق الأربعة، وعرقلة جهوده نحو «التحرُّكات الخمسة»، فإذا أراد التقدم بقواته، وجدَ نفسه تحت هجمات معادية، وإذا رجع القهقرى، سُدَّت عليه خطوط الانسحاب، وأحيط به من كل جانب، فلا يستطيع التحرُّك نحو الأجناب، ثم إذا لزم الثبات في مواقعه، لم يأمن شن الغارة عليه.

إن القائد المبرَّز في فن القتال يستطيع أن يجبر العدو على اجتياز المسافات الطوال، وهو تحت دروع القتال، وفوق عنقه آلة الحرب ينوء بها كاهله، فلا يجد سبيلًا إلى الراحة، فيقع من الإرهاق والجوع والسهر في أسوأ حالات الإعياء، فتلك — إذَن — وسيلة فعَّالة تؤدي حتمًا إلى هزيمته (في نهاية المطاف)، في حين يحتفظ القائد بجيشه وقد نال قسطًا من الراحة وحظًّا هائلًا من التزوُّد بالماء والغذاء، منتظمًا في الصفوف، منضبطًا رابط الجأش، على أتم استعداد للقتال، فإذا حانت ساعة اللقاء، تقدَّمت القوات بعزم وافِر وإقدام شجاع، لا

يردُّها شيء عن القتال، بل تمضي [حرفيًّا: تمشي فوق حدِّ السيف] فوق الخطر، دون أن تلتفت إلى الوراء، أو تفكِّر في التراجع والفرار.

***

[ورد في نهاية المتن الرقم «مائتان»، متبوعًا بثلاثة فراغات، قد تكون تكملة الرقم المذكور، ولا تُعرَف دلالته، في هذا السياق]

خمسة أنواع من الجيوش[21]

هناك خمسة أنواع من الجيوش المعادية: الأول: جيش يتسم بالجرأة والإقدام. والثاني: يتميَّز بالغرور والصلف. والثالث: يتصف بالتصلُّب والعناد. أما الرابع: فمُتردِّد هيَّاب. والأخير: ضعيف مُتخاذِل. فكلُّ نوع منها يتطلَّب، أثناء القتال، طريقة ملائمة تتناسب مع طبيعته. وبالتالي، فثمَّة خمس طرق لمواجهة تلك الطبائع المختلفة

[21] الترجمة الحرفية لعنوان هذا الفصل هي: «خمسة أنواع»، أو «خمسة تقديرات رفيعة»، وكانا في الأصل عنوانَين لفصلَين مستقلين، ثم جُمِعا في فصل واحد، في النص الأصلي، يتناول أولهما خمسة طُرق مختلفة في التعامل مع خمسة تشكيلات قتالية متباينة للعدو، أما الثاني، فيتحدَّث عن وسائل التعامل مع العدو بعد اقتحام حدوده، وهي الوسائل التي تتراوح بين العنف والمرونة.

للجيوش. وهكذا فلا بد من مُصانعة النوع الأول من الجيوش، بحيث يتطلَّب الأمر تكلُّف مظاهر الخضوع والضعف، أما النوع الثاني، فلا بأس من إظهار شيء من التقدير لمزاياه على أن يتم استغلال الفرصة السانحة لمهاجمته والقضاء عليه، وبالنسبة للجيش الذي يتسم بالعناد وجمود الرأي، فالمطلوب الإيقاع به والترصُّد له بالحيلة والخديعة، أما المتردِّد الحائر الذي لا يحزم أمره، فلا بدَّ من مبادأته بالهجوم الأمامي، وإثارة القلاقل والاضطرابات على أجنابه ومحاصرته بالأخاديد المحفورة في الوديان أو الحصون العالية فوق التِّلال وقطع طرق إمداداته، وفيما يتعلَّق بذلك النوع من الجيوش التي يغلب عليها الضعف والتخاذل، فيمكن إثارة الفزع في صفوفها بواسطة دقَّات الطبول الهادرة ومصادمتها مع اتخاذ مظاهر القوة المناسبة، ثم الهجوم عليها عند أول بادرة لتحرُّكاتها، أو التأهُّب لمحاصرتها في كلِّ الأحوال، حتى وهي مُقيمة في ثكناتها، مرابطة في مواقعها، دون أن يبدر عنها ما يفيد التحرُّك.

عندما تقتحم الجيوش أراضي أعدائها، فهي تلجأ، في العادة، إلى طريقة من اثنتين في التعامل مع العدو، أول هذه الطرق تُسمَّى بـ «السلوك الأخلاقي الرفيع»، والثانية توصف بـ «الأسلوب الوحشي

الإرهابي». ولكلٍّ منها خمس حالات، أو خمس مراحل متدرِّجة؛ فلذلك سُمِّيَت بـ «التيسيرات والتغليظات الخمس»، لكن ما هي التيسيرات الخمس؟

إن جيشًا يقتحم أرض عدوِّه ثم يسلك نهجًا يقوم على الفضائل، سوف تضيع مهابته وتسقط مكانته التي كان يتحلَّى بها في سابق الأيام، فإذا ضاعفَ من سلوكه الأخلاقي، فلن يَجِد ما يسدُّ به رمَقَه من الغذاء، فإذا واصل (في المرة الثالثة) سلوكه الأخلاقي، فلا بدَّ أنه سيخسر معركته، (وفي المرة الرابعة، فإنه ...) سيموت جوعًا، فإذا تشبَّث بسلوكه هذا في المرة الخامسة، فلن يتمكَّن من إنجاز مهامه القتالية. (فإذا كان هذا هو أسلوب التيسير) فما هو سلوك التغليظ إذَن؟

(اعلم) أنه إذا لجأت قوات الاحتلال إلى أساليب البطش والإرهاب، بادئ ذي بدء، فسوف ينظر إليها الناس بوصفها «القوات المعتدية»، وإذ يتضاعف توسُّلها بالطغيان، فسوف يقول عنها الناس إنها قوات الشر، وفي المرة الثالثة، وبتزايد توجُّهها الإرهابي، فسوف تطبع في النفوس إحساسًا بالخوف والجزع، (وفي درجة رابعة ...) وإذ

يتأصَّل سلوكها العدواني، فسوف يلجأ الأهالي إلى تضليل جنودها وتعمية عيونها، فتغيب عن القوات حقائق الأحوال، فإذا تضاعف سلوكها الإرهابي (إلى الدرجة الخامسة ...) كان حتمًا أن تتعرَّض لخسارة فادحة. فمن ثَمَّ، كان من الواجب على القوات المغيرة على أرض العدو أن تراوح بين تلك الملاطفات والتغليظات الخمسة (حسب الأحوال)، بما يضمن لها إحراز النصر.

***

[ورد في آخِر المتن العنوان التالي «المبادئ (الأخلاقية) الخمسة» وتحتها، مباشرة، كُتب الرقم «مائتان وستة وخمسون»، دونما إشارة إلى دلالة هذا الترقيم، وعلاقته بالسياق.]

خسائر المعارك[22]

إن كل مَن أراد أن يجبر الأهالي في البلد الخاضع للاحتلال [حرفيًّا: بلد العدو] على اتباع عادات مستهجنة ومرفوضة بالنسبة لهم، فإنه يُغامر بإبراز نقائصه مقابل ترجيح كفة مزايا العدو، بل يستهلك قوته

[22] يدور موضوع هذا الفصل حول مختلف العوامل التي تتسبَّب في الخسائر أثناء العمليات، مع عَرْض الاقتراحات والآراء بشأن الوسائل الكفيلة بتوفير أسباب الظفر في المعارك.

العسكرية بغير فائدة [العبارة الأخيرة، بدءًا من «فإنه يغامر بإبراز ...»، وردت في أحد النصوص المحقَّقة، لكنها لم تَرِد في عدد آخَر من النصوص]، وكذلك فمَن أراد أن يسدَّ ما لديه من حاجات على حساب موارد العدو [حرفيًّا: الزيادة في موارد العدو] فهو يسير بقوَّاته نحو الهلاك.

إن العجز عن صدِّ هجوم العدو [حرفيًّا: عن صدِّ أسلحة العدو الماضية] برغم التحصينات الدفاعية القوية، يصيب القوات بالإحباط والكَبْت (هذا من ناحية، أما من ناحية أخرى ...) وعندما تعجز الأسلحة عن أداء دورها المأمول فتفشل في اختراق دفاعات العدو، بمتانتها وجودة تحصيناتها، تكون الهزيمة هي النتيجة المحتومة.

[في بداية الفقرة التالية، ورَدَ في أحد المتون عبارة يتخلَّلها فراغ، نصُّها كالتالي: «إن عجز القوات ... من الحكمة». غير أن مصادر أخرى محقَّقة، أوردت له ترجمة بالصينية الحديثة، هي التي اعتمدت عليها وأخذت بها في نَقْل الفقرة كلها.]

إن عجز القوات عن تحقيق النصر، يرجع إلى جهل القائد بكيفية توزيع وتحريك التشكيلات، وعدم تحديده لاتجاهات الهجوم. إن وقوع القائد في مشاكل وعَقَبات شتَّى، برغم حنكته في توزيع التشكيلات وبراعته فيما يتصل بتوزيع الوحدات ووعيه التام بتضاريس الأرض، يعني أن مثل هذا النوع من القادة ليست لديهم دراية بالعلاقة بين النصر الحاسم [حرفيًّا: وحسب الترجمة الصينية «النصر الاستراتيجي» («جان لوي» تحديدًا، بمعنى استراتيجي)] والنصر العسكري.

عندما تعجز القوات عن تحقيق النصر، برغم ما تحظى به من تأييد الأهالي لها [وردت عبارة «برغم ما تحظى به من تأييد»، في أحد النسخ المحقَّقة، بينما خَلَت النسخ الأخرى من أي ذكر لها مكتفية بمساحة ضئيلة من الفراغ]، فالسبب في ذلك يرجع إلى عجز هذه القوات عن حشد وحداتها القتالية بالكثافة المطلوبة. أما إذا لم تستطع الجيوش الحصول على الدعم الشعبي، كان ذلك دليلًا على عدم تبصر مثل هذه الجيوش ببواطن أخطائها. (ولا بد من الانتباه إلى أن ...) ندرة تحقيق النصر برغم كثرة الاشتباك وغزارة اللقاءات القتالية مع العدو إنما ترجع كلها إلى التقاعس عن استغلال الفرص

السانحة، وإذا أفلتت من القوات فرصة التغلُّب على العدو فلأنها خالفت إرادة الناس. (واعلم) أنه لا يتزلزل كيان جيش إلا بما تردَّد حوله من الأراجيف والإشاعات، ثم إن وقوع الجيش في حيرة من أمره وعجزه عن تقدير احتمالات النصر أو الهزيمة، يعود، أساسًا، إلى جهله بكيفية اتخاذ الاستعداد الكافي للقتال.

أما إذا ضيَّعت الجيوش فرصة مواتية دون أن تستغلها على النحو الأمثل، أو إذا حانت لها الفرص السانحة فتخاذلت تردُّدًا وتهيُّبًا، أو إذا أدركت ما شاب قيادتها من أخطاء، دون الإسراع في تلافيها بحسم، فذلك كله من أسباب الوقوع في التهلكة.

(واعلم) أنه إذا أمكن للناهب الجشع أن يصبح عفيفًا شريفًا، أو للطائش أن يصبح رشيدًا، أو للمتردِّد أن يصير حازمًا، وللجبان أن يغدو شجاعًا جريئًا، فذلك هو السبيل إلى النصر في ساحات المعارك. ولن تمنح السماء ولا الأرض مجدًا لمَن سار على طريق الهلاك، ولن تخيِّبا رجاء مَن سعى جادًّا إلى المجد والقوة والعنفوان، [فراغ].

***

[ورد في ختام هذا النص، وبعد فاصل ضئيل، فقرة مليئة بالثغرات، بدرجة يتعذَّر معها ترجمتها في عبارة مفهومة، ومع ذلك فقد آثرتُ نَقْلها، على علاتها، إلى العربية، على النحو التالي: ...] «جيش [فراغ]، وإذا أريد للبلاد أن [فراغ]، يحل بالقوات التعب والإنهاك، ويبذل الكثير من [فراغ]، فلا يصمد أمام العدو.

ثم إن الجيش [فراغ]، بلد ذو عدد وافر من الجند، [فراغ]، وهنالك لا يمكن للقوات أن [فراغ].»

خمسة أنواع من الجيوش[23]

يُعتبر التعامل مع الجيوش المعادية أثناء الاقتحام من الأمور الدقيقة التي تتطلب استراتيجيات مدروسة، وتُصنف الأساليب إلى نوعين رئيسيين: السلوك الأخلاقي الرفيع، والأسلوب الوحشي

[23] الترجمة الحرفية لعنوان هذا الفصل هي: «خمسة أنواع»، أو «خمسة تقديرات رفيعة»، وكانا في الأصل عنوانَين لفصلَين مستقلين، ثم جُمِعا في فصل واحد، في النص الأصلي، يتناول أولهما خمسة طُرق مختلفة في التعامل مع خمسة تشكيلات قتالية متباينة للعدو، أما الثاني، فيتحدَّث عن وسائل التعامل مع العدو بعد اقتحام حدوده، وهي الوسائل التي تتراوح بين العنف والمرونة.

الإرهابي. وفي كل من هذين الأسلوبين، هناك خمس حالات أو مراحل تُعرف بالتيسيرات والتغليظات الخمس.

التيسيرات الخمس

1. **احترام الأعيان** :يتضمن هذا الحالة الحفاظ على ممتلكات الأعداء، وعدم التعرض للمعالم الدينية أو الثقافية، مما يعكس الأخلاق النبيلة للجيش المقتحم.

2. **تجنب استخدام القوة المفرطة** :في هذه المرحلة، يتم تجنب إلحاق الأذى بالمدنيين، ومحاولة التمييز بين المقاتلين وغير المقاتلين.

3. **تقديم المساعدات الإنسانية** :يمكن أن تشمل هذه المرحلة توفير الغذاء والماء للمدنيين، مما يعزز من الصورة الإيجابية للجيش لدى السكان المحليين.

4. **الاستعداد للحوار** :يسعى الجيش في هذه المرحلة إلى فتح قنوات للتواصل مع الجماعات المحلية، بهدف التفاوض أو إقناعهم بالاستسلام دون قتال.

5. **تجنُّب الاعتقالات التعسفية** :يُفترض في هذه الحالة ألا يتم اعتقال المدنيين أو المقاتلين إلا بناءً على أدلة واضحة، مما يعكس احترام حقوق الإنسان.

التغليظات الخمس

1. **الانتقام السريع** :يتضمن هذا استخدام القوة بشكل مفاجئ وعنيف، كرد فعل على أي مقاومة من قبل العدو.

2. **إثارة الرعب** :في هذه المرحلة، يُستخدم أسلوب ترويع السكان من خلال الاستعراضات العسكرية أو الهجمات المفاجئة.

3. **احتلال الأراضي بالقوة** :تُعتبر هذه المرحلة تجاوزًا للحدود الأخلاقية، حيث يتم احتلال الأراضي بالقوة، دون مراعاة للمدنيين.

4. **التدمير المنهجي** :في هذه الحالة، يُلجأ إلى تدمير الممتلكات والموارد الحيوية للعدو، مما يؤدي إلى إضعاف الروح المعنوية.

5. **التنكيل بالمعارضين** :تُعتبر هذه المرحلة الأكثر تطرفًا، حيث يُعاقب كل من يعارض الاحتلال بشكل صارم، مما يخلق جوًا من الخوف والرعب في صفوف السكان.

تسعى هذه الأساليب إلى تحقيق الأهداف الاستراتيجية للجيش المقتحم، وتحديد الطريقة الأنسب في التعامل مع الأعداء تبعًا لطبيعتهم وخصائصهم.

تتعدد أشكال الجيوش المعادية، فهناك خمسة أنواع تتوزع بين الجرأة والصلف والتصلب، وأخرى تتسم بالتردد والضعف. كل نوع من هذه الأنواع يتطلب استراتيجيات خاصة أثناء الصراع، حيث إن التصدي لكل منها يتطلب حنكة فريدة ومهارة في التخطيط.

ففي مواجهة الجيش الذي يتسم بالجرأة والإقدام، يلزم اتخاذ موقف يتظاهَر فيه الخضوع، بينما مع الجيش المغرور، يقتضي الأمر إبداء بعض الاحترام لمزاياه، ثم الانقضاض عليه في لحظة مناسبة. أما بالنسبة للجيش العنيد الذي يفتقر إلى المرونة، فيجب استدراجه من خلال الحيلة والمكر، بينما ينبغي أن يُهاجم الجيش المتردد بشجاعة، مع إثارة الفوضى حوله وإحكام السيطرة على خطوط إمداده. وأما الجيش الضعيف والمتخاذل، فيجب إلقاء الرعب في صفوفه عبر دقات الطبول القوية، وتوجيه ضربة قاصمة في أول فرصة سانحة.

وعندما تُقدم الجيوش على اجتياح أراضي أعدائها، فإنها تلجأ إلى أسلوبين متناقضين: الأول هو السلوك الأخلاقي الرفيع، والثاني هو الأسلوب الوحشي الإرهابي. ولكل من هذين الأسلوبين خمس حالات متدرّجة تُعرف بالتيسيرات والتغليظات الخمس. فما هي تلك التيسيرات؟

إذا اختار جيشٌ ما الاقتحام اعتمادًا على الفضائل، فإن هالته ستتلاشى، ومكانته ستُفقد، وبتكرار هذا السلوك، سيفقد قدرته على تأمين مؤونته. وفي المحاولة الثالثة، إن أصر على نهجه الأخلاقي، فلن يتمكن من الانتصار، وفي الرابعة، سيُحرم من القدرة على البقاء، وإذا استمر في هذه الطريقة في المحاولة الخامسة، فلن يحقق أي إنجاز في ساحة المعركة.

وفي المقابل، عندما تلجأ القوات الغازية إلى أساليب الإكراه منذ الوهلة الأولى، سيُنظر إليها على أنها القوات المعتدية. ومع ازدياد شراستها، ستُعتبر قوات الشر. وفي المحاولة الثالثة، ستغرس في النفوس رعبًا وجزعًا، وفي المرحلة الرابعة، ستُحجب عنها الحقائق،

مما سيجعل الأهالي يلجؤون إلى حيل التضليل، ويؤدي إلى زيادة العنف، مما سيجعلها تعاني من خسائر فادحة.

لذا، ينبغي على القوات الغازية أن توازن بين الملاطفات والتغليظات الخمسة، وفقًا لمقتضيات الموقف، بما يضمن لها تحقيق النصر.

***

"في نهاية النص، وُجد العنوان «المبادئ (الأخلاقية) الخمسة»، وبجانبه الرقم «مائتان وستة وخمسون»، دون ذكر دلالة هذا الرقم وعلاقته بالسياق."

خسائر المعارك[24]

إنَّ كل من يسعى إلى إجبار الأهالي في الأرض المحتلة على تبني عادات مستهجنة ومرفوضة، إنما يُخاطر بإظهار نقائصه، ويقلب موازين القوى لصالح العدو، فيستنفد طاقته العسكرية دون جدوى.

[24] يدور موضوع هذا الفصل حول مختلف العوامل التي تتسبَّب في الخسائر أثناء العمليات، مع عَرْض الاقتراحات والآراء بشأن الوسائل الكفيلة بتوفير أسباب الظفر في المعارك.

وكذلك، فإن من يسعى إلى تلبية احتياجاته على حساب موارد العدو، يسير بقواته نحو حتفه.

إن العجز عن صد هجوم العدو، على الرغم من وجود تحصينات دفاعية قوية، لا يؤدي إلا إلى إحباط القوات وإضعافها. وعندما تفشل الأسلحة في اختراق دفاعات العدو المتينة وجودة تحصيناته، فإن الهزيمة تكون النتيجة الحتمية.

وعندما يتعذر على القوات تحقيق النصر، فإن ذلك يعود إلى جهل القائد بكيفية توزيع وتحريك التشكيلات، وعدم تحديده لاتجاهات الهجوم بشكل دقيق. وإذا واجه القائد عقبات ومشكلات، رغم خبرته في توزيع التشكيلات وبراعته في التعامل مع الوحدات وفهمه الكامل لتضاريس الأرض، فإن هذا يشير إلى عدم قدرته على إدراك العلاقة بين النصر الحاسم، كما يصفه البعض بـ"النصر الاستراتيجي"، وبين النصر العسكري.

عندما تعجز القوات عن تحقيق النصر، برغم ما تحظى به من تأييد الأهالي لها [وردت عبارة «برغم ما تحظى به من تأييد»، في أحد النسخ المحقَّقة، بينما خَلَت النسخ الأخرى من أي ذكر لها مكتفية

بمساحة ضئيلة من الفراغ]، فالسبب في ذلك يرجع إلى عجز هذه القوات عن حشد وحداتها القتالية بالكثافة المطلوبة. أما إذا لم تستطع الجيوش الحصول على الدعم الشعبي، كان ذلك دليلًا على عدم تبصر مثل هذه الجيوش ببواطن أخطائها. (ولا بد من الانتباه إلى أن ...) ندرة تحقيق النصر برغم كثرة الاشتباك وغزارة اللقاءات القتالية مع العدو إنما ترجع كلها إلى التقاعس عن استغلال الفرص السانحة، وإذا أفلتت من القوات فرصة التغلُّب على العدو فلأنها خالفت إرادة الناس. (واعلم) أنه لا يتزلزل كيان جيش إلا بما تردَّد حوله من الأراجيف والإشاعات، ثم إن وقوع الجيش في حيرة من أمره وعجزه عن تقدير احتمالات النصر أو الهزيمة، يعود، أساسًا، إلى جهله بكيفية اتخاذ الاستعداد الكافي للقتال.

أما إذا ضيَّعت الجيوش فرصة مواتية دون أن تستغلها على النحو الأمثل، أو إذا حانت لها الفرص السانحة فتخاذلت تردُّدًا وتهيُّبًا، أو إذا أدركت ما شاب قيادتها من أخطاء، دون الإسراع في تلافيها بحسم، فذلك كله من أسباب الوقوع في التهلكة.

(واعلم) أنه إذا أمكن للناهب الجشع أن يصبح عفيفًا شريفًا، أو للطائش أن يصبح رشيدًا، أو للمتردِّد أن يصير حازمًا، وللجبان أن يغدو شجاعًا جريئًا، فذلك هو السبيل إلى النصر في ساحات المعارك. ولن تمنح السماء ولا الأرض مجدًا لمَن سار على طريق الهلاك، ولن تخيِّبا رجاء مَن سعى جادًّا إلى المجد والقوة والعنفوان، [فراغ].

***

[ورد في ختام هذا النص، وبعد فاصل ضئيل، فقرة مليئة بالثغرات، بدرجة يتعذَّر معها ترجمتها في عبارة مفهومة، ومع ذلك فقد آثرتُ نَقْلها، على علاتها، إلى العربية، على النحو التالي: ...] «جيش [فراغ]، وإذا أريد للبلاد أن [فراغ]، يحل بالقوات التعب والإنهاك، ويبذل الكثير من [فراغ]، فلا يصمد أمام العدو.

ثم إن الجيش [فراغ]، بلد ذو عدد وافر من الجند، [فراغ]، وهنالك لا يمكن للقوات أن [فراغ].»

استقامة القائد[25]

لا بد أن يتحلى القائد بسمات الاستقامة، إذ إن غيابها سيؤدي إلى انحراف طبعه نحو التهاون والظلم، مما يزول معه هيبته ويجعل جنوده يتراجعون عن بذل الجهد والفداء. لذا، تعتبر استقامة القائد كالرأس في جسد الوحدات المقاتلة، فإذا سقط الرأس، تشتت الأعضاء وفقدت القدرة على النهوض.

ويُضاف إلى ذلك، أنه من الضروري أن يتسم القائد بكرم الأخلاق، فغياب هذه السمة يعيق قواته عن مواجهة العدو، مما يقف حجر عثرة في طريق النصر. من هنا، يُعد كرم الأخلاق بمثابة القلب النابض في جسم التشكيلات القتالية، فبدونه تضعف العزائم وتخبو الهمم.

كما أنه يتوجب على القائد التحلي بالفضائل، ففقدان هذه الصفات يُفقده نفوذه وسط رجاله، ويكون لذلك عواقب وخيمة على الجيش، إذ يعيقهم عن تحقيق الانتصار. لذا، اعتُبرت الفضائل

[25] يتناول هذا الفصل ضرورة تحلي القائد بصفات أخلاقية. وهو ما يناظر في محتواه أحد فصول كتاب «فن الحرب» للمؤلّف سونزي.

كالأيدي في جسم الجيش المقاتل، فاليد التي تفتقر إلى القوة لن تتمكن من التصدي للأعداء.

ومن المهم أيضًا أن يتحلى القائد بالمصداقية؛ إذ إن فقدانها يُعطل على مقاتليه تنفيذ أوامره، مما يؤدي إلى فوضى تعصف بالسلطة وتشتت القيادة، وتثبط عزيمة الجنود عن الأداء الجيد وتحقيق الوعد، ولذلك تُعتبر المصداقية كالأقدام التي تسير بالجيش نحو النصر.

وأخيرًا، لا بد للقائد من أن يمتلك القدرة على التنبؤ بأحوال المعارك وتقدير النتائج المحتملة للعمليات، فإن عجز عن ذلك، يصبح الالتزام بالحزم والجدية أمرًا صعبًا. لذا، يُعد الحزم كذيل الجناح، حيث يُسهم في دعم القوات وتوجيهها نحو تحقيق الانتصارات، ويظل القائد الحكيم هو من يتفوق على أقرانه في هذه الصفات، إذ ترتكز عليه الآمال في تحقيق النصر، وتظل صفتا "الحسم" و"الثبات" هما من أبرز السمات التي يجب أن يتجلى بها القائد، فهي من أهم الصفات التي يُفترض أن يحملها.

أخلاقيات القائد[26]

[فراغ]، وبخصوص أولئك الجنود الشجعان، فالواجب على القائد أن يبذل لهم المزيد من الاهتمام والود، بالقدر الذي يشعر به نحو أبنائه، وواجب عليه أيضًا أن يبرز نحوهم التقدير والاحترام كأنهم أساتذته [حرفيًّا: أساتذته من ذوي الصرامة والجد ...] ثم إنه عند تعبئتهم للقتال لا بد أن يسيطر عليهم (بالقدر الذي يتصرَّف به نحو ...) حشائش الأرض وطينها، يابسها ووحلها، لا يستثني منهم أحدًا، فالقائد [فراغ]، [فراغ] خارج السيطرة، ويمكن للقائد وهو مشتبك في القتال ألا يسمح لأحد بالتدخُّل في أوامره [في نسخة أخرى محقَّقة من الكتاب: يمكن للقائد ألَّا يسمح بالتدخل في أوامره — وهو مشتبك في قتال — ولو من قبل جلالة الملك نفسه] فهو وحده الذي يملك سلطة القيادة، فذلك حقه المكفول له دائمًا أبدًا [في نسخة أخرى، وردَت العبارة التالية «فذلك مبدأ مقرَّر بشأن القيادة»] ... [فراغ].

[26] يتحدَّث هذا الفصل عن الصفات الأخلاقية الواجب توافرها في القائد، كما يحرص على التذكير بخطورة التهوين من شأن العدو، بالإضافة إلى عدد من النقاط المتعلقة، غير أنه وبسبب فقدان الكثير من عبارات النص، فقد كثرت الفراغات بين كلماته.

... [فراغ]، وإذ تدور المعارك بين جيشَين، فلا ينبغي أن يبقى القائدان معًا، على قيد الحياة، ولا أن يبقى الجيشان سليمَين بقضِّهما وقضيضهما [في نسخة أخرى، جاء هذا المعنى، «وليعمل كل قائد أثناء القتال على أن تكون المعركة مع قوات العدو وقائدها معركة بقاء أو فناء]، [فراغ]، [فراغ]، فذلك هو المنحى الذي تسير فيه أفكار القائد، ولا بد أن تبذل المكافأة لصاحب الجدارة في الحال، وأن يوقع العقاب على مَن يستحقه بغير إبطاء، ومن دون استثناء، بعدالة تامة، ومهما كان شخص المحسن أو المخطئ.

[فراغ]، تلك هي المزايا التي يتوجَّب على القائد التحلِّي بها حتى تصير علامة عليه [حرفيًّا: يتصف بها القائد حتى تبدو على سيماه كالنجوم التي يهتدى بها ليلًا في السماء]، فيحظى بتأييد الجنود.

مثالب القائد[27]

تتعدد الأسباب التي قد تفضي بالقائد إلى الهزيمة، منها:

[27] يعدِّد هذا الفصل عيوب القائد، والعيوب هنا، بمعنى المساوئ التي تنطوي علىها شخصيته، والتي يمكن أن تقود — على يدَيه — إلى الهزيمة.

1. **التبجُّح الطائش** بمزاياه، حيث يقوده الغرور إلى تجاهل المخاطر المحدقة.

2. **الغرور** الذي يحجب عنه رؤية الحقيقة، فيفقد توازنه أمام الأعداء.

3. **السعي إلى الشهرة**، مما يجعله يقدم مصلحته الشخصية على مصلحة جنوده.

4. **الجشع وحب المال**، إذ يسعى لجمع الثروات على حساب ولاء وتضحيات الآخرين.

5. **الرعونة والطيش**، التي قد تودي به إلى اتخاذ قرارات متهورة بلا تفكير.

6. **التبلد الذهني**، الذي يحول بينه وبين استيعاب المتغيرات في ساحة المعركة.

7. **التخاذل والجبن**، حيث يتخلى عن واجبه في اللحظات الحاسمة.

8. **الشجاعة المقترنة بالتهور**، التي تقوده إلى التصرفات غير المدروسة.

9. **فقدان المصداقية**، مما يجعل جنوده يتشككون في قيادته.

10. **التردد والتهافت في الرأي**، الذي يعكس ضعف الشخصية وعدم الثبات.

11. **التسيب وإهمال قواعد الانضباط**، مما يؤدي إلى فقدان السيطرة على القوات.

12. **الكسل واللامبالاة**، التي تُفقده الحماسة وتؤثر على روح جنوده.

13. **البطش**، الذي يجلب الفتنة بدلاً من الاحترام.

14. **الأنانية**، التي تمنع العمل الجماعي وتفسد روح التعاون.

15. **القيادة غير المتبصرة**، إذ يعتمد أسلوبًا ارتجاليًا متناقضًا، مما يؤدي إلى الفوضى والتفكك.

تتزايد الأمور سوءًا مع انغماس القائد في الأخطاء، مما يجعله عرضة للفشل وتضاؤل فرص النصر.

هزيمة القائد[28]

تتعدد الأسباب التي قد تفضي بالقائد إلى الهزيمة، وتتنوع في تأثيرها وتداعياتها، ومنها:

1. **عدم وضوح الهدف** أمام القوات، مما يمكن أن يؤدي إلى الهزيمة.

2. **حشد أخلاط من العامة والدهماء** غير المؤهلين للقتال أو من الجنود الشاردين عن المعارك، ودفعهم للحرب تحت تصورات خاطئة عن قدرتهم الفعلية، وهو ما قد يؤدي أيضًا إلى الفشل.

3. **كثرة النزاع والجدل** حول صحة أفكار أساسية، وعدم الاتفاق على رأي واحد بشأن الخطط، مما يؤدي إلى إضعاف القدرة على اتخاذ القرارات.

[28] يتناول هذا الفصل جملة الأحوال التي تؤدي بالقائد إلى الهزيمة.

4. **تقاعس الجنود عن تنفيذ الأوامر**، مع تشتت الآراء وانتشار الفوضى، ما يمكن أن يُسهم في الهزيمة.

5. **عصيان الرتب الأصغر** للقادة العظام، وشيوع اللامبالاة بين الجنود، مما يُظهر تقاعس المقاتلين عن أداء واجبهم.

6. **كراهية الأهالي** لقواتها المسلحة، فذلك سببٌ يؤثر سلبًا على الروح المعنوية.

7. **طول أمد المعارك** على جبهات بعيدة عن الوطن، مما يُنهك المقاتلين ويضعف حماستهم.

8. **مشاعر الحنين إلى الوطن** التي تصيب الجنود بعيدًا عن ديارهم، وقد تؤدي إلى الهزيمة.

9. **زيادة عدد الجنود الفارين** من القتال، ما يشكل سببًا لفقدان السيطرة والفشل.

10. **شيوع الانقسامات** ومظاهر التفكك داخل الوحدات، مما يُسهم في ضعف التنسيق والفعالية.

11. **تعرض الوحدات لشحنات هائلة** من الرعب والفزع، ما يؤثر على أداء الجنود.

12. **مشاق الترحال** عبر طرق موحلة، مع وعورة الدروب، قد تسهم في الهزائم.

13. **إنهاك الجنود** نتيجة بناء الاستحكامات والحصون، مما يُضعفهم ويُعرضهم للهزيمة.

14. **شيوع الإهمال** وسط الوحدات وإغفال اليقظة الواجبة، مما يؤدي إلى تراجع الأداء.

15. **شدة الإعياء** الناتجة عن التنقلات المتكررة، مما قد يُسبب تذمر الجنود.

16. **فزع الجنود** الناتج عن أحداث غير متوقعة، مما يسهل وقوع الهزائم.

17. **التراخي والإهمال** في الأداء العام نتيجة كثرة تغيير القرارات.

18. **انخفاض الروح المعنوية** لدى الجنود، مما يؤدي إلى عدم احترامهم للقادة.

19. **ميل القادة إلى المحاباة،** مما يُثبط عزيمة الجنود ويؤدي إلى الفوضى.

20. **تفاقم الفوضى** نتيجة تأرجح قرارات القادة وكثرة ترددهم.

21. **تحرش القادة** بمن يوجه إليهم أدنى لوم أو انتقاد، مما يُشعل الخلافات.

22. **إسناد المهام إلى غير الأكفاء،** مما قد يعجِّل بحدوث الكارثة.

23. **فتور حماسة الجند للقتال** نتيجة طول أمد العمليات بعيدًا عن الوطن.

24. **تراجع الروح المعنوية،** مع تفشي الفوضى داخل الوحدات قبل الاشتباك.

25. **الركون إلى الحظ والأماني** في ضعف العدو، مما يقود إلى الهزيمة.

26. **اكتفاء القادة بالتطلُّع إلى الأمل** في تراجع حماسة العدو، بدلًا من اتخاذ تدابير فعّالة.

27. **الاستخفاف بجنود سيئين،** مما يؤدي إلى تفشي الكراهية والفشل.

28. **تنكيل القائد بجنوده،** والسخرية منهم، مما يُشعل البغضاء في نفوسهم.

29. **مرور القوات عبر مضايق ومناطق وعرة** دون انتظام، مما يُضعف التنظيم.

30. **غياب التنسيق المرن** بين القوات، مما يُؤدي إلى تراجع الأداء.

31. **التفاوت في توزيع القوة** على أجنحة الجيش، مما يُثير القلق أثناء العمليات.

تتأثر مسارات المعركة بعوامل شتى، وكلما استمر الانغماس في الأخطاء، زادت فرص الهزيمة، مما يوجب على القادة التحلي بالحكمة والبصيرة في قيادتهم.

المدن المنيعة والأسوار المخترقة[29]

في أحضان الأرض المنخفضة، حيث تمتد المستنقعات كأفخاخ تخفي أسرارها، تكمن مدينة يتعذر اختراقها. تكتنفها تلال وكثبان متصلة، تشكل درعًا يحميها من غارات الأعداء، حتى وإن كانت تخلو من الحواجز الجبلية المنيعة أو الأخاديد العميقة. إن وجودها وسط هذه التضاريس القاسية يجعل من أي هجوم عليها أمرًا بعيد المنال.

وإذا كان العدو المقيم في تلك المدينة يحظى بمياه الشرب من نهر جارٍ، فإن اقتحامها يصبح كمن يسعى لالتقاط نجمة في كفّه. وعليه، لا داعي للغزو، خاصة إذا كانت المدينة تشرف من الأمام على وادٍ جبلي عميق، محاطة من الخلف بجبل شامخ يعانق السحاب، فهي بذلك تكتسب حصانة تتحدى كل محاولة لاختراقها، كما يشير إلى ذلك سونبين في اصطلاحه عن "المدينة الذكورية."

[29] يدور موضوع هذا الفصل، أساسًا، على الخواص الجغرافية للمدن الحصينة التي يصعب اختراقها مقابل تلك التي يسهل الإغارة عليها واقتحامها، وتجدر الإشارة، هنا، إلى أن عنوان هذا الفصل، في صيغته الحرفية هو «المدن الأنثوية والذكورية»، وحسب الاصطلاح الذي يفضّله سونبين في هذا الفصل، فالمدن الذكورية هي تلك التي يصعب اقتحامها، أما الأخرى، فعلى العكس من ذلك، بالبداهة.

بينما المدينة التي تعلو هضبة مرتفعة، تطل على منخفضات الأرض الأربعة، تُعتبر مثالاً للمدن المنيعة التي لا تُستوجب الهجوم. فليس هناك ما يستدعي ذلك، إذ تتناثر التلال الجبلية المتعرجة حولها كحراس أوفياء، تحول دون أي محاولة للغزو.

لكن إذا ما استقر العدو في موقع مكشوف، بلا دروع طبيعية تحميه، فقد أصبح فريسة سهلة لأي هجوم، خصوصًا إذا ما تآكلت معنوياته وانهارت همته. مدينة تستند أسوارها الخلفية على حواف منخفضة، دون أي ستائر جبلية تقيها، تصبح عرضة للاختراق، مما يستدعي الهجوم عليها.

إن كانت المدينة قائمة في أرض جافة، لا زرع فيها ولا شجر، تُعتبر "مدينة أنثوية"، يُمكن التجرؤ على مهاجمتها، خاصة إذا كانت مياه الشرب المتوافرة فيها شحيحة، تبتعد عن متناول اليد. وإذا ما وقعت مدينة وسط مستنقعات، دون أن تحوطها وديان عميقة أو تلال جبلية، فإنها تمثل فرصة لا تُفوت، كما لو كانت تحمل في طياتها دعوة صامتة للهجوم.

أما المدينة التي تطل واجهتها على جبل عظيم، ويقابل ظهرها وادٍ سحيق، فتبدو كأنها تواجه تحديًا عظيمًا، كأنما تحتمي خلف جرف مخيف ينخفض عند ذيلها. في مثل هذه الحالة، تُعتبر المدينة هدفًا سهل الاقتحام، مما يُوجب النهوض بمهمة الهجوم وعدم التردد في ذلك.

القواعد الخمس والمغانم التسعة[30]

في سياق المعارك الدائرة، تصل التعزيزات، لكن سرعان ما تتعرض للهزيمة، مثلما حدث مع سابقاتها. ولذا، استقرَّت القاعدة العسكرية التي تنصُّ على عدم إرسال أي مساندة أو تعزيز لقوات تبعد مسافة تزيد عن خمسين «لي»، فما بالك بقوات تبعد مئات «لي». فالمسافة بين التشكيلات والنقاط التي تقصدها التعزيزات تُعتبر المعيار الحاسم في تقرير منح المساندة من عدمها. وبذلك، تأسس المبدأ العسكري القائم على تجنب الدخول في حرب طويلة الأمد ضد عدو يملك من مقادير الحبوب ما يضمن له تفوقًا في مخزونه الغذائي. كما أنه من غير

[30] يتحدَّث هذا الفصل عن العوامل والظروف السلبية الواجب تجنبها أثناء القتال، بالإضافة إلى عدد من الاعتبارات التي تفيد في إلحاق الهزيمة بالعدو.

المجدي الدخول في صراعات مباشرة مع طرف يملك العدد الأكبر من المقاتلين، فضلاً عن عدم خوض معارك مع عدو يتفوق في مستوى الاستعداد والتدريب القتالي.

إن التقدير الدقيق لهذه المبادئ الخمسة هو الذي يمكّن القوات من الدخول إلى ميدان مائة معركة وتحقيق النصر في مائة حرب. فالاشتباك في معارك باستخدام القوات يتطلب السيطرة على تسعة مغانم حيوية، وهي:

1. الاستيلاء على مخازن الحبوب.
2. الاستيلاء على مصادر المياه.
3. الاستيلاء على المعابر.
4. الاستيلاء على طرق المواصلات الرئيسية.
5. الاستيلاء على المواقع ذات الأهمية الجغرافية.
6. الاستيلاء على السهول.
7. السيطرة على النقاط الاستراتيجية العالية.

8. الاستحواذ على موارد الثروات الطبيعية.

9. المناطق ذات الأهمية القتالية بالنسبة للعدو.

فهذه هي المغانم التسعة التي تمكّن من قهر العدو وتحقيق النصر، ولذا ينبغي على القادة العسكريين الأخذ بها في اعتبارهم لضمان النجاح في معاركهم.

التمركز والانتشار[31]

اعلم أن تمركز القوات أفضل من نشرها، وأن القوة الوافرة أسمى من الضعف الهزيل، وأن المباغتة بالهجوم على العدو تفوق الإغارة المعتادة، وأن التحرُّكات السريعة أفضل من التقدم البطيء. كما أن كثرة الحشود تمثل التفوق على الاقتصاد في أعداد الجنود، وأن استعادة اللياقة بالراحة والاستجمام تبقى أفضل من تبديد الطاقة بالإعياء والإنهاك.

[31] يتناول هذا الفصل مجموعة من المبادئ والأفكار بالمقابلة مع الجوانب المناظرة لها على طرف النقيض، فيتحدَّث عن التمركز والانتشار، والتحرُّك السريع بالمقابلة مع التحركات البطيئة، ويتطرَّق إلى التفوُّق العددي مقابل نقص أعداد الجنود ... وهلمَّ جرًّا.

وليكن الظرف هو الحاكم، فلا بد من أن يكون التمركز هو الخيار المفروض إذا بدا أنه الأنسب، وإلا فإن انتشار القوات يعدّ الخيار الأجدى. فالأوضاع القائمة تحدد مدى ملاءمة زيادة الحشد أو تقليص أعداد القوات، كما تحدد أيضًا سرعة المباغتة أو التمهُّل في الهجوم، مثلما تقرر سرعة التحرُّك أو بطء التقدم، وكثرة الحشد أو الاقتصاد في القوة، فضلاً عن مدى ملاءمة الراحة والاستجمام مقارنةً مع الكدّ واستفراغ كامل الطاقة والجهد.

غير أن الظروف قد تفرض الانتقال إلى النقيض؛ فقد يتحول التركيز إلى انتشار، والقوة إلى ضعف، وخطوط الحركة القصيرة إلى عبور طرق وممرات طويلة، والسرعة إلى بطء، وكثرة الحشود إلى ندرة في أعداد الجنود، والراحة إلى إرهاق ومشقة زائدة.

اعلم أنه لا ينبغي العمل على تمركز القوات في مواجهة عدو شديد الكثافة، كما أنه لا يجب اللجوء إلى نشر القوات لمواجهة انتشار آخر بالجهة المقابلة، ولا يجوز حشد الجيوش القوية مقابل جيش بنفس القوة، ولا إرسال قوات ضعيفة أمام مثيلتها، ولا التصرف بسرعة في مواجهة ما يساويها، ولا التقدم ببطء أمام نظيره. ولا يُفترض مواجهة

كثرة الحشود أمام قوات كثيفة العدد، ولا الندرة في الجنود مقابل مثيلتها. كما لا يصح مواجهة قوات نالت قسطًا من الراحة بأعداء أخذوا نصيبهم من الاستجمام، ولا جيوشًا أضناها القتال بأخرى استنزفها الإعياء وفَرْط المشقة.

إن تمركز القوات أو انتشارها مسألة نسبية، وكذلك قوة تسلُّحها أو ضعف مقدرتها، وهجومها المباغت أو غاراتها الاعتيادية، وسرعة أو بطء تحركها، وكثرة أو ندرة حشودها، وحيويتها أو سقوط همتها، كلها أمور تعتمد على الظروف المحيطة. ولذلك، يمكن تشتيت قوات العدو ذات التشكيل المتمركز، وكسر قوته وتحويل عناصر قوته إلى عوامل ضعف. يمكن إجباره على العودة إلى الطرق البعيدة بعد أن اجتاز أقصر السبل، وعندما تزداد تحركاته سرعة، يمكن أن يُجبر على إبطاء اندفاعه. وإذا كَثُرت حشوده، يمكن تقليص عددها، وعندما تكون قد تمتعت بنصيب وافر من الاستجمام، سيسهل تكبيدها صنوف المشقة والعناء.

الثوابت والمتغيرات[32]

إن القاعدة التي تحكم كل الموجودات هي أن بلوغ تمام الحد ينذر بالانقلاب إلى الضد، ولا بد لمنتهى النماء أن يتجه نحو حضيض الفناء. تلك هي القاعدة المعهودة، بل الضرورية، في تطور الأشياء. إن التبادل حتمي بين كل ازدهار وانهيار، فهو متبادل بين فصول أربعة، وكل ما يؤثر في غيره من الأشياء ينقلب إلى متأثر ومنفعل، تمامًا كما يحدث بين العناصر الخمسة التي تتبادل التأثير: المعادن والخشب والماء والنار والتراب. لكل الأشياء موت وحياة، ولكل موجود نصيب من العجز والاقتدار، وفي كل حال وجوه من النفع وجوانب من المضار.

[32] عنوان هذا الفصل في لغته الأصلية، يَرِد كالتالي: «تشي، وتشنغ»، وهما كلمتان اثنتان تقفان على طرفَي نقيض، فالأولى «تشي»، بمعنى «الخاص»، «الاستثناء»، «المتغيِّر»؛ أما الثانية التي تنطق بـ «تشنغ»، فبمعنى: «العام»، «القاعدي»، «الأساسي»، وكلتاهما من المصطلحات العسكرية القديمة، وهما، هنا، موضوع هذا الفصل الأخير من الكتاب، حيث يجري استعراض علاقاتهما المتبادلة والمتغيِّرة بهدف الاستفادة من خصائصهما البارزة، على النحو الذي يساعد على إحراز النصر.

كل ما هو مادي ملموس فهو قابل للمعرفة، وكل ما يمكن معرفته خاضع للتطويع ورهن لمشيئة الاستخدام والتطبيق. ومن هنا، يستطيع الحكماء الراسخون في الحكمة والفهم التحكم في كل الأشياء وإخضاعها تبعًا لما يتبدى من خصائصها. وللعلماء في ذلك طرائق لا تنفد ووسائل إخضاع لا حدود لها.

إن الحرب هي تجسيد لكيفية الاستفادة من التأثير المتبادل في طبائع الأشياء. كل ما هو مادي ملموس يقبل الإخضاع والتطويع، غير أن مدار الأمر كله يكمن في تدبر وسيلة الإخضاع؛ إذ ليس بالضرورة أن تكون الطريقة المستخدمة في تطويع الأشياء معلومة بادئ ذي بدء. إن الأشياء تتبادل التأثير فيما بينها، ويلحق بها التغيير الذي هو طبع أزلي، كطبيعة الأرض والسماء. وإذا أراد المرء أن يحصي الأمثلة والنماذج على ما يلحق الأشياء من تغيير جرَّاء الاحتكاك والصراع، فلن تكفيه جميع الرقاع، وستنفد السجلات قبل تمام التدوين، كما أنه لن تكفي لتدوين تلك الأمثلة كل أعواد البامبو النابتة في حدائق دولتي تشو ويوي.

تتبادل الأشياء الملموسة التأثير فيما بينها وفقًا لما هو مركوز في طبيعتها من خصائص. ومع ذلك، يصعب استخدام خصائص شيء واحد لإخضاع الأشياء كافة، ولئن كان التأثير المتبادل بين الأشياء قاعدة عامة، فإن هناك فروقًا دقيقة لا بد من تحديدها؛ لأن الفروق قائمة. ومن ثَمَّ، يدرك الخبير في أمور الحرب ما يعتري قوات أعدائه من نقائص بمجرد أن يطلع على مزاياهم، ويمكنه أن يقدر نقاط ضعفهم على ضوء ما يملكونه من ميزات، ويتنبأ بالنصر، كأنه يراه مرآى الشمس والقمر لعينَيه. وهكذا، يستطيع أن يقهر عدوه ويحقق النصر بكل سهولة وثقة، كأنه يطفئ جذوة متقدة بحفنة من الماء.

إن مواجهة حرب تقليدية بحرب مماثلة تدخل ضمن نطاق ما هو ثابت ومقرَّر في القواعد العسكرية، أما مواجهة حرب تقليدية بأساليب قتال غير مفهومة وغير مستقرة، فذلك هو التقلُّب والتبدُّل. إن التغيرات الناجمة عن التقاء القاعدة المستقرة بالتبدلات كثيرة لا يحدُّها حصر، وتبرز بوضوح في نظام توزيع ونشر القوات. يمكن توزيع المهام، سواء كانت ثابتة أو متغيرة، على الوحدات حسب نسق ترتيبها، بحيث تشتبك مع قوات العدو مسترشدة بنموذج الصراع المتبادل بين العناصر الخمسة.

عند الاشتباك مع العدو، يجب استخدام الفراغ بشكل استراتيجي. بعد نشر القوات وتوزيعها، ينبغي تنظيمها في تشكيلات محكمة، لكن عندما تنتظم في تشكيلات، فإنها ستكون عرضة للاستطلاع. وعندما تكون مكشوفة لعيون الرائين، فسيسهل ضربها. لذا، يجب أن يؤخذ في الحسبان المداومة على تغيير أساليب القتال، إذ إذا تماثلت تلك الأساليب في كل مرة، فسيتعذر إحراز النصر. وهكذا، في حين تعطي القوات الانطباع بأنها ثابتة وهادئة، إلا أنها ستلجأ إلى الحركة المفاجئة كأسلوب متغير، وعندما تبدو في غاية الإعياء، فستكون قد نالت أعظم قسط من الراحة.

وإذا أبدت مظاهر تفشي الجوع بين الأفراد، فإنها في الحقيقة قد أخذت كفايتها من الطعام. بينما تبدو عليها أعراض الفوضى، ستكون في جوهرها شديدة الانضباط، وستنطلق من قاعدة الحشد الوافر للجند لتعطي مظهرًا متغيرًا من ندرة أعداد المقاتلين. سيُفاجَأ العدو باكتشاف تلك الثوابت في أحوال القوات، وعندما يُؤخذ على حين غرة، سيقع فريسة للارتباك، مما يجعل التغلُّب عليه هدفًا يسهل تحقيقه. وكلما تنوَّعت أساليب القتال المتغيرة أو المفاجئة، تعزَّزت فرص النصر وزادت احتمالات الغلبة.

كما أن مفاصل أطراف الجسد تتداعى عند إصابة جزء واحد منها بسبب ما يؤلف بينها من نسيج وروابط جسد واحد، فكذلك الأمر في التشكيلات المقاتلة. إن ما تقع فيه طليعة القوات من هزائم يؤثر في الساقة؛ لأن الجيش كله كيان واحد. وبالتالي، لا ينبغي أن تتعرَّض التشكيلات الكبرى للاختراق والانشطار، ولا الوحدات الصغرى للتفكُّك والانهيار. يجب أن تحذر الوحدات الخلفية من التقدم على، أو تجاوز الوحدات المتقدمة، كما يجب أن تمتنع عن التراجع إلى ما بعد الوحدات الخلفية. من المهم أن تبقى الطرق الأمامية مفتوحة قبالة الوحدات المتقدمة، وأن تظل وراء الوحدات الخلفية طرق تسمح لها بالانسحاب إذا لزم الأمر.

بالنسبة للأوامر التي تُلقى على الجنود، فسوف يسارعون إلى تنفيذها ما دامت ضمن حدود استطاعتهم، بغض النظر عن حوافز المكافأة أو جزاءات العقاب. لكنهم لن يتورَّعوا عن صمِّ آذانهم عن الأوامر إذا كانت تطالبهم بما يتجاوز مقدرتهم، حتى لو كانت المكافأة ثمينة أو كان العقاب مفزعًا. إن دفع الجنود لمواجهة حتفهم تحت مخاطر غير محسوبة لن يلقَ استجابة، حتى لو كانوا يتمتعون

بشجاعة المقاتل المغوار، كما في حالة "منغ بن"، أشهر الشجعان في الأساطير الصينية.

إن توجيه أوامر مستحيلة التنفيذ إلى جنود عاديين يكاد يشبه مطالبة تيار النهر بالجريان في عكس اتجاهه. لذا، كان من الواجب، في المعارك، أن تُدار الأمور لتحقيق أقصى استفادة في ظل الأوضاع القائمة. في هذا السياق، يمكن تعزيز القوات التي حقَّقت الانتصار، بينما يتم تغيير الوحدات التي لاقت الهزيمة. وتُمنح القوات المتعبة نصيبًا من الراحة، وتجري زيادة تعيينات المياه والمؤن الغذائية للقوات المنهكة جراء الجوع والعطش.

بهذا الشكل، تتسابق القوات إلى المعارك وتقتحم الأهوال، كأنها تيار نهر دافق، سريع الجريان باتجاه المصب، يطيح بالأحجار المعترضة ويقذف بالسفن الراسية. فإذا تمكن القائد من كسب قلوب الجنود ومشاعرهم، فسيجدهم طائعين ومنضبطين، مسارعين إلى تنفيذ الأوامر، كأنهم تيار نهر جارف، يجرف في طريقه كل العقبات.

'هذا هو فن الحرب'